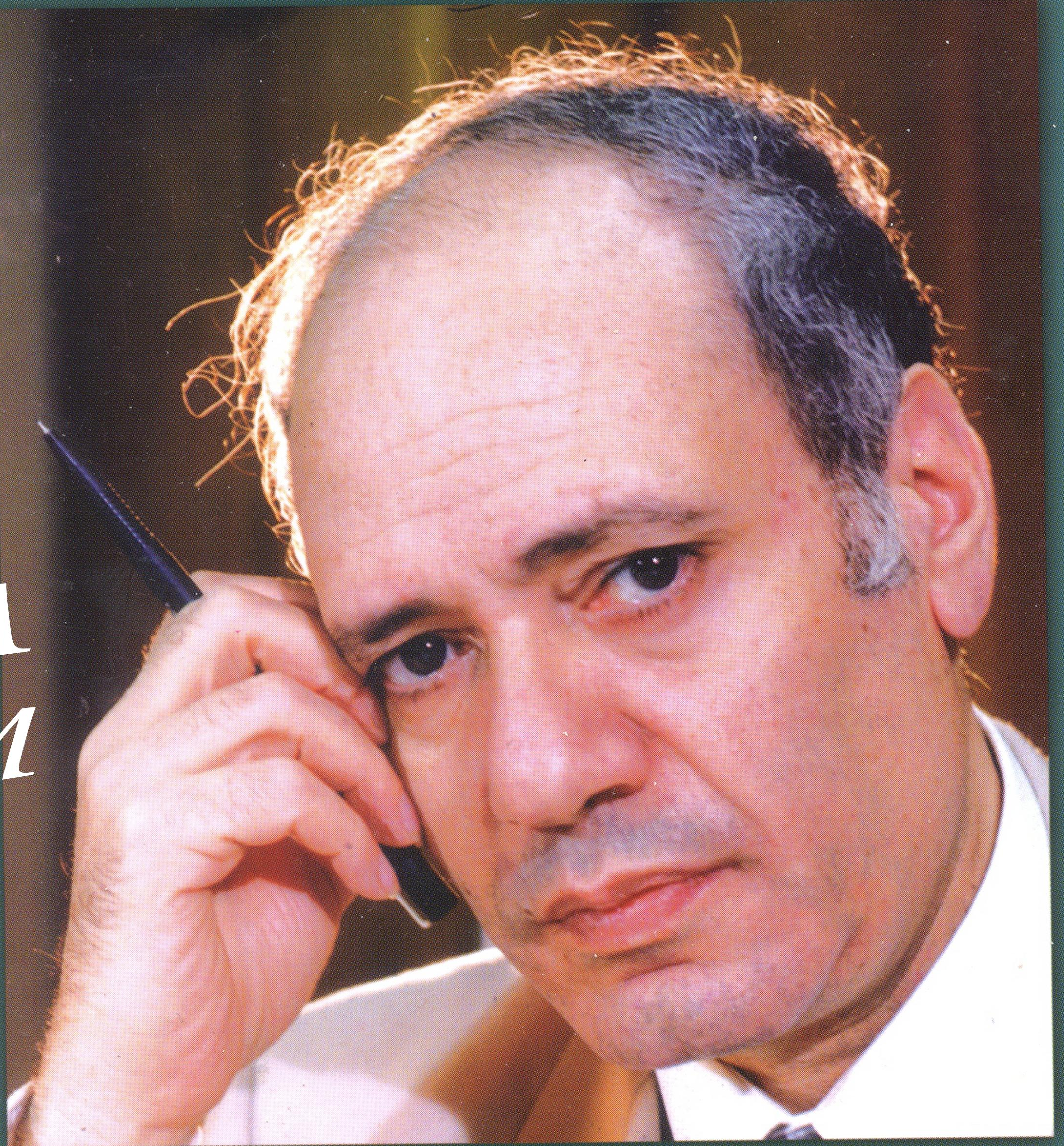
عبد الوهاب مطاوع

(أعمال لم تنشر من قبل)

491



A
M

الحب والطارق المجهول

الدار المصرية اللبنانية

هل تتحوّل الصّداقة في يومٍ ما إلى علاقة غرامية، وهل تنجح وما إمكانية استمرارها؟ وهل يتحوّل الحب إذا فشل كعلاقة إلى صداقة؟ وهل تستمر، وهل يحب الإنسان فجأة أم أن تلك المشاعر تنمو ببطء وتراكم من المواقف المتبادلة؟ وهل يمكن أن يعود الإنسان إلى علاقة حب قديمة، تكون بالنسبة له واحة في صحراء حياته، أم أنه بذلك يهدم حياة الآخرين؟ وما دور العِشرة في خلق الحب بين الزوجين؟

هذه الأسئلة كلها هي جوهر تلك المجموعة من المشكلات الحياتية، التي نغَّصت حياة أصحابها، وتناولها الكاتب الكبير عبد الوهاب مطاوع في هذا الكتاب، ليس من منطق الناصح الذي يعرف كل شيء، والذي يمتلك الكلمة، وإنما بحنو الأب، وخبرة الكاتب الكبير.



* عبد الوهاب مطاوع 1940 ـ 2004

* شغل منصب مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب.

* حصل علي جائزة مؤسسة علي أمين ومصطفى أمين عام 1992 كأحسن كاتب صحفي يكتب في المسائل الإنسانية.

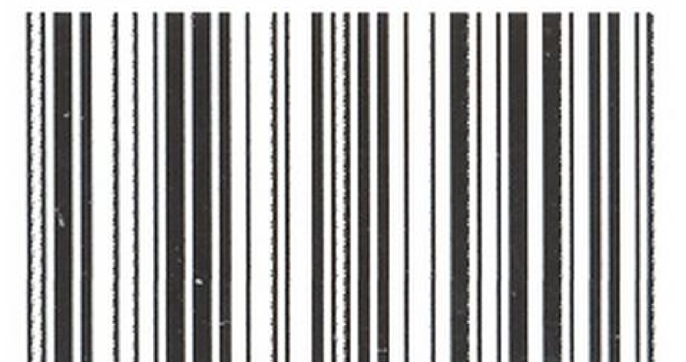
* كان يكتب باب (بريد الجمعة) الإنساني في الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام 1982، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومي بصحيفة الأهرام.

* صدر له 57 كتابًا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها ، ويتضمن البعض الآخر قصصًا قصيرة وصورًا أدبية ومقالات في أدب الرحلات.

* صدرت له ثلاث مجموعات قصصية هي: (أماكن في القلب)، و(لاتنسني)، و(الحب فوق البلاط).

Sun

24/9/2017





للشراء عبر موقعنا
store.almasriah.com

الدار المصرية اللبنانية

A.M.

عبد الوهاب مطاوع

أعمال لم تنشر من قبل

الحب والطارق المجهول

الدار المصرية اللبنانية

الليالي القاسية

أكتب إليك بعد أسابيع من التردد، بين أن أكتب أو لا أكتب لحرجي البالغ من حساسية مشكلتي، التي لا أستطيع أن أستشير فيها أي إنسان آخر. فأنا موظف بمؤهل متوسط بإحدى المحافظات القريبة من القاهرة. في الخامسة والأربعين من عمري. وزوجتي في الحادية والثلاثين من عمرها، وهي جميلة وشديدة الرقة والجاذبية. وقد تزوجنا منذ أربعة عشر عامًا وعمرها 17 سنة، وأنجبنا أربع بنات وولدين، لكن من يرى زوجتي لا يتصور أنها أم لستة أبناء، لأنها حافظت دائمًا على رونقها وقوامها. وهي في الحقيقة مثال للزوجة المطيعة التي تتفانى في خدمة أسرتها، وفي إسعادي بعد أن وجدت فيّ الزوج والأب والشقيق، ورغم صعوبات حياتنا لم تشك يومًا شظف العيش، وعشنا طوال هذه السنوات في حب متدفق ومتجدد دائمًا والحمد لله.

وقد مضت بنا الحياة طيبة جميلة بالحب وحسن المعاشرة، إلى أن وصلنا معًا إلى يوم وجدنا فيه أننا لا نستطيع الاستمرار في مواجهة صعوبة الحياة، أو تحمل غول الأسعار الذي يحاصرنا مع أبنائنا من كل جانب. فالراتب لا يزيد على مائة جنيه. ولو ضاعفنا من قدرتنا على التقشف، واكتفينا به للمأكل وحده فلن يغطي نفقات

الحياة الأخرى من ملبس ومدارس وعلاج.. إلخ. وأعدنا التفكير في أمرنا فاستقر رأينا على أنه لا حل لمشكلتنا سوى السفر للعمل في الخارج لعدة سنوات، أدخر خلالها مبلغًا من المال وأضعه في البنك وأستعين بفوائده على استكمال مطالب الحياة، إلى جانب الراتب، ثم يبقى المبلغ نفسه للأبناء في المستقبل. وقادنا البحث إلى مكتب من مكاتب السفر لأبحث لنفسي عن فرصة، وقابلت صاحب المكتب وكانت معي زوجتي، وشرحت له ما أريد، فصمت لحظة ثم قال: إن فرص الحصول على عمل لأصحاب الأعمال الإدارية مثلك ضئيلة جدًّا، لكني أستطيع أن أجد لزوجتك عملًا بسهولة. ولأن زوجتي لم تنل حظها من التعليم فقد اقترح أن تسافر هي للعمل كشغالة في إحدى الدول المجاورة.

ومع أن زوجتي ليس لها تجارب في الحياة، ولم تجرب السفر ولا الغربة، فقد وافقت أمامي فورًا على العرض من أجل الأبناء، وبسبب قسوة ما عانت من جفاف الحياة، ومن الليالي الكثيرة التي أمضيناها على ما يشبه الطوى، ومن الساعات الطويلة التي أمضتها وهي ترتق ملابسنا لكي تستر أبناءنا أمام الناس. وانصرفنا من المكتب وفكرت في الأمر طويلًا، ووجدت نفسي غير قادر على الموافقة ولا على الاعتراض، لأن الحال لا تخفى على أحد.. وإذا كانت زوجتي قد قبلت هذه التضحية.. فكيف أستطيع أنا أن أرفض التضحية بسعادتي الشخصية لفترة تبتعد فيها عني زوجتي من أجل الأبناء؟ وطلب مِنَّا الرجل إعداد أوراق السفر فأعددناها وذهبنا بها إليه. فأبلغنا أن عنده فرصة عظيمة لنا هي ثري عربي يؤجر شقتين بالقاهرة لبناته اللاتي يدرسن في القاهرة، ويريد لهن مدبرة منزل تسافر معهن عند عودتهن لبلادهن، واتصل به صاحب المكتب تليفونيًّا ودعاه للحضور.. وبعد فترة قصيرة دخل علينا في المكتب رجل عجوز تجاوز الخامسة والسبعين، يرتجف من الشيخوخة ولا تكاد قدماه تقويان على احتماله، وبعد حديث قصير قرر أن

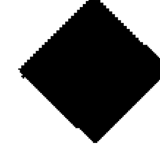
يصطحبنا معه إلى إحدى شقتيه لتقوم زوجتي بطهو طعام الغداء لهم، فإذا أعجبه طهوها للطعام فسوف يتعاقد معها على العمل.

ونزلنا وركبنا سيارته الفارهة إلى حي من أحياء القاهرة الراقية، وتوقفت السيارة أمام عمارة فاخرة، فطلب منِّي الثري العجوز أن أنتظر مع السائق في السيارة لأن «حريمه» لا يظهرن أمام غريب، كما قال لي.. ووافقت بحسن نية وانتظرت بالسيارة حوالي ساعتين، عادت زوجتي بعدها وهي متغيرة تضحك تارة وتلعن الدنيا تارة أخرى، وتدمدم بكلمات غير مفهومة، وعاد الثري صامتًا وجلس بجوار السائق وأمره بأن يعود إلى مكتب السفريات، ودخلنا على صاحبه فقال له الثري مشيرًا إلى زوجتي: «ما بتعرف تطبخ» وانصرفنا من المكتب، وفي الطريق روت لي زوجتي أن الرجل المرتعش من الكبر قد تحول فور دخوله إلى الشقة إلى «دون جوان»، وأنه رتب الأمر عامدًا لأن أسرته لم تكن بالشقة، وأنه راح يراودها عن نفسها ويعلنها بحبه لها من أول نظرة، وهي تصده بالهوادة مرة وبالحسم مرة أخرى، حتى يئس منها فعرض عليها ألفين من الجنيهات من أجل رغباته.. فقالت له متحسرة لو كنا نرغب في هذا الطريق لما تحملنا ما تحملناه ولما فكرنا في السفر، وترك الأولاد الصغار ومنهم من لم يبلغ العامين من عمره، فضاق بها وتركها وعدنا البيت مهمومينْ ونحن نتعجب من أحوال الدنيا، ومن هذا الرجل الذي يقترب من أبواب القبر ولا يرعي حرمة فيعرض ألفي جنيه على سيدة متزوجة من أجل رغباته الدنيئة.. فأين الدين.. وأين الأخلاق. وأين الإنسانية؟ وصرفنا نظرًا عن هذا الموضوع.. ووطنا أنفسنا على أن نأكل الحصرم.. ولا نعرِّض أنفسنا لهذه المهانة مرة أخرى.

وعدنا إلى حياتنا العادية نلاطم الأيام وتلاطمنا، لكن صاحب مكتب السفريات اتصل بنا بعد أسابيع ليبلغنا بحاجة إحدى الأسر من الدولة نفسها

التي جاء منها العجوز المنحرف إلى شغالة بشرط واحد هو أن تكون متدينة.. فقلنا إن هذا الشرط وحده دليل كاف على حسن النية فوافقنا، وأعلنت لمن حولي بأن زوجتي ستعمل في مستشفى هناك، وجاء يوم السفر فكان مؤلمًا لي وللأطفال الذين انخرطوا في البكاء، وطفلها الصغير يتعلق برقبتها ولا يريد أن يتركها وأنا انتزعه منها لكي تلحق بالطائرة.

وسافرت زوجتي يا سيدي منذ ثلاثة شهور، وأصبح التليفون هو وسيلتي الوحيدة للأطمئنان عليها، لكنها كلما حادثتني جاءني صوتها حزينًا باكيًا وأسالها عما يضايقها فلا تجيب، ثم بعد الحاح مني أخبرتني أنها تتعرض لنفس المضايقات من أحد أفراد العائلة رغم أنهم يعرفون جميعًا تدينها، وأنها تصلي الفروض في أوقاتها، وأنها زوجة وأم لستة أولاد، فارقتهم على رغمها من أجل أن تخفف عنهم صعوبة الحياة، ورغم حزمها وحسمها في هذه الأمور، لأن الفكرة السائدة هناك هي أن من تسافر عليها أن تفرِّط في كل شيء.. وأسمعها تبكي وأبكي معها لما تلاقيه وتتحمله من أجل الأولاد، وأريد أن أقول لها عودي لكن صورة الليالي التي عانيناها تقفز في ذهني فجأة، فتجعلني عاجزًا عن النطق بها. وهكذا وجدت نفسي في موقف لا أحسد عليه، فهي إن بقيت واستمرت فأنا في قلق مستمر، وإن كنت أعرف مدى تماسكها، وإن طلبت منها العودة عدنا إلى المعاناة من جديد وإلى الاستدانة وإلى كل ما رويت لك عنه.. وأن إيماني وإيمانها بالله كبير، لكنني حائر فبماذا تشير عليّ؟



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

يا سيدي: إن هناك مواقف معينة في الحياة لا تحتمل التفكير طويلًا في اتخاذ القرار الوحيد الذي ينبغي اتخاذه فيها. لأن مجرد التردد أمامه يفتح الباب للتفريط والتنازل. وأنت بكل أسف تواجه موقفًا من هذا النوع. وتعرف القرار الذي ينبغي اتخاذه بلا مراعاة لأية ظروف أخرى مهما كانت جديرة بالاعتبار والتفكير.. إذ ماذا بعد أن تجد زوجتك نفسها مخيرة بين شرفها وبين الخضوع والاستسلام لما لا ترضاه لنفسها ودينها؟ صعوبات الحياة والليالي القاسية؟ ومتى كانت المعاناة التي يشترك معكما فيها الملايين مبررًا للتفريط؟ إنها قد تكون سببًا في ترويض الإنسان لنفسه عن احتمال عناء الغربة، أو بعض صور جلافة أرباب الأعمال في الخارج وجورهم.. بل وقد تكون أيضًا مبررًا لكبح جماح الغيظ وردع النفس عن أن تستجيب لانفعالاتها، وعلي بن أبي طالب أشجع الشجعان هو نفسه من قال صادقًا إن الأبناء «مجبنة مبخلة» مشيرًا لثقل مسئولية رب الأسرة عن أسرته.

لكن كل ذلك لا يتعلق بالشرف الذي لا يحتمل التردد أمامه، وليس من الحكمة ولا من الشهامة أن تضع زوجتك في عش الدبابير، وتعتمد على تماسكها وصلابتها وحدها، لأن لكل إنسان قدرة على الاحتمال لا يستطيع تجاوزها، ولأن التجربة في حد ذاتها محنة، فلماذا تنتظر حتى تسمعها القرار الذي تنتظره هي منك؟ ولن يصيبكما في النهاية إلَّا ما كتب الله لكما، والرسول الكريم يقول: «**اطلبوا الحوائج بعزة نفس فإن الأمور تجري بالمقادير**» أي أننا لن نصيب من خير أو شر مهما تنازلنا أو جرينا في الدنيا جري الوحوش.. إلَّا ما كُتِبَ لنا منذ البداية.. فلماذا التردد والاكتفاء ببكاء

العاجز مع زوجتك في التليفون، وهي من تنتظر منك أن تكون أكثر حرصًا عليها من ذلك فتأمرها بالعودة، قبل أن تتخذ هي قرارها بنفسها وتفقد احترامك لديها، أو أن تستسلم لا قدر الله فتحملك في أعماقها مسئوليةهوانها وترخصها وتفقد أنت حبها إلى الأبد؟ إن بعض الأسر المصرية تدفع الآن لمدبرة المنزل نفس ما تدفعه الأسر إياها أو أكثر، مع اختلاف أساسي هي أنها ترعى حقوق ربها وتحفظ الحرمات، لأننا رغم صعوبات حياتنا من أكثر شعوب المنطقة تدينًا وخشية لله إن لم نكن أكثرها على الإطلاق، وهذه حقيقة يعرفها الجميع وما دمت قد قبلت مبدأ عمل زوجتك فابحث لها عن عمل لدى أسرة مصرية في الداخل أو في الخارج.. أو اصبر واحتسب إلى أن يأذن الله وتجد لنفسك عملًا يسهم في تخفيف عناء حياتك التي أسهمت أنت في تعقيدها بإنجابك ستة من الأبناء، وكأننا نخطب في الصحراء ونحن ندعو الناس كل يوم إلى أن ييسروا على أنفسهم لكي ييسر الله عليهم.

يا سيدي إن أول التفريط خطوة، وقد خطوتها بكل أسف حين سمحت لهذا الشيخ العربي الماجن بأن يصطحب زوجتك معه ويدعوك للانتظار بحجة أن حريمه لا يظهرن أمام غريب، وهي حجة مهينة لك وجارحة لكرامتك لأن من يحتج بها عليك يصطحب معه في نفس الوقت «حريمك أنت»، وأمثال هذا الشيخ الفاجر الذين يتصورون أن من تسافر عليها أن تفرط في كل شيء لا يحسنون فهم دماثة المصريين ولا تهذيب طباعهم، ويتصورونها ضعفًا وتفريطًا مع أنهم يعرفون تمامًا في أعماقهم أن نسبة المفرطات عندنا تحت ضغط ظروف الحاجة أقل كثيرًا جدًّا من نسبة العابثات عندهم بلا أي مبرر للعبث أو التفريط! لكن الأمر كله أمر نسبة وتناسب بين أعداد السكان الضخمة هنا والقليلة هناك!

فلا تتبع خطواتك الأولى بخطوة أكبر بترددك أمام دعوة زوجتك للعودة إلى بلادها قبل أن تنهار مقاومتها فتخسر كل شيء ولو ربحتما الدنيا بأسرها!

العشرة القديمة

أكتب إليك لأستشيرك في أمر أقف أمامه عاجزة، وأريد أن أستعين برأيك عليه. أنا سيدة في الخامسة والثلاثين من العمر، بدأت قصتي وأنا في سن التاسعة أو العاشرة حين كنت أعيش بين أبوين عطوفين ومع شقيق أصغر لي، نذهب معًا إلى مدرسة خاصة معًا كل يوم، ولأننا كنا في المدرسة الابتدائية فقد كنا نتلقى الدراسة في فصول مختلطة تجمع بين الأطفال والبنات، ونذهب إليها في أتوبيس المدرسة الذي كان دائمًا مزدحمًا، ويركبه معنا تلاميذ المرحلة الإعدادية التي تضمها مدرستنا أيضًا، فكنا نتعرض دائمًا لعدوان طلبة الإعدادية الكبار علينا، الذين يستولون على المقاعد ويتركوننا للوقوف طوال الطريق. وبدافع غريزي للدفاع عن النفس اقتربنا تلقائيًّا من تلميذ آخر يركب معنا الأتوبيس مع أخته الصغيرة ويدرس معي في الفصل نفسه، في حين تدرس أخته مع شقيقي في فصل واحد، فوجدنا أنفسنا نلتصق ببعضنا البعض في الأتوبيس، ونحتمي بهما ويحتميان بنا، فنشأت بيننا صداقة حميمة يعززها تبادل الكتب والكراسات والمساعدة في بعض الأحيان، واستمرت بنا الحال هكذا طوال المرحلة الابتدائية، وانتقلنا إلى المرحلة الإعدادية ففرقت بيننا الفصول، ولكن ظل الأتوبيس يجمع بيننا، وظلت الصداقة

عميقة بيننا حتى انتهت المرحلة الاعدادية، فالتحقتُ بمدرسة وأخي بمدرسة أخرى، ولم نعد نرى هذين الصديقين بانتظام. لكن الود لم ينقطع بيننا أبدًا. فقد كنا نحرص على دعوتهما في أعياد ميلادنا ويحرصان على دعوتنا في مناسباتهما، ورغم أننا قد وصلنا إلى مرحلة المراهقة، فإن العلاقة بيننا لم تنحرف أبدًا إلى أمور المراهقة. وظلت دائمًا أخوية، وإن كان قد استقر في أعماقي أن هناك رباطًا وثيقًا يربطني بهذا الصديق، لكنه لا يعبر عن نفسه من جانبه أو جانبي، وبعد أن حصلنا على الثانوية العامة تفوق هو عليَّ في المجموع فالتحق بكلية عملية، في حين التحقت أنا بكلية نظرية، وشغلتنا الحياة عامين أو ثلاثة حتى وجدت نفسي ذات مرة في الحرم الجامعي أمام زميلي القديم.. وينظر إلى وقد تغير شكله وربى شاربه وأصبح شابًا مكتمل الرجولة. ورحَّبتُ به بشدة وسألته عن أخته وسألني عن أخي، وتواعدنا على لقاء جماعي كأيام زمان.

وفي اليوم التالي جاءني مع شقيقته وجددنا صداقتنا مرة أخرى. وبعد أيام عاد شقيقي من موقع عمله حيث كان قد التحق بكلية عسكرية وتخرج، وأبلغته بما حدث وتم اللقاء فعلًا بعدها بأيام، وتواصل اللقاء بيننا على فترات متباعدة ولاحظت أنني مازلت أشعر في قربه بتفس الأمان الذي كنت أشعر به قديمًا ونحن أطفال محشورون في زحام الاتوبيس، وتخرجت في كليتي وأديت الخدمة العامة. وبعد عام وجدت عملًا في شركة استشارية بمساعدة بعض أقاربي، وانقطعت أخبار زميلي السابق لفترة شهور، وتقدم لي خلالها شاب من أقاربي ليخطبني وتحمس له أهلي، وطالبوني بقبوله لأنه شاب ممتاز وجاهز. إلخ.. ففكرت في الأمر ووجدت نفسي غير مرتبطة بأحد، فقبلت خطبته بلا أية مشاعر عاطفية تجاهه، لذلك لم تطل الخطبة طويلًا. ورغم عدم ترحيبي بها منذ البداية فإنني وجدت نفسي عقب

فسخها في حالة نفسية سيئة لعدة أسابيع، وجدتني خلالها أتجه بأفكاري نحو زميلي القديم، وأكاد أحس باللوم تجاهه لأنه لم يحمني من هذه التجربة كما كان يحميني زمان من المضايقات، لكني عدت لنفسي سريعًا حين تذكرت أننا لم نتبادل أبدًا كلمات الحب ولم نتعاهد على شيء، ومع ذلك فقد أحسست برغبة شديدة في رؤيته و رؤية شقيقته، فاتصلت بها وتحادثنا وتواعدنا على اللقاء. وسألتها عن شقيقها فعرفت أنه سافر ليعمل في إحدى الدول العربية، وأنه يطمئن منها على أخباري وأخبار شقيقي وأنه سيعود في أجازة قريبًا.

وبعد شهور وجدته أمامي في الشركة يبتسم ويقدم لي نفسه بأنه «الألفة» القديم عليَّ فانتفضت فرحًا حين رأيته، ودعوته للجلوس وانتظاري حتى أنتهي من عملي، وصممت في داخلي بجرأة غريبة على أن أفاتحه بما في صدري إن لم يتشجع هو ويفاتحني ونزلنا من الشركة معًا، وفي الشارع فتحت فمي لأتكلم فوجدته يقول لي إنه يحبني ويريد أن يتزوجني، وبدلًا من أدّعي الخجل أو المفاجأة وأطلب مهلة للتفكير. وجدت لساني يقول له بصراحة واضحة كشمس أغسطس وبكل هدوء لقد سبقتني فيما كنت أريد أن أقوله لك! فرقص طربًا لهذه الإجابة الصريحة، واعترف لي بأنه يحبني منذ زمن بعيد، وأنه تأكد من ذلك خلال اغترابه، وسلَّمت له بنفس الحقيقة، واتفقنا على الزواج في أسرع وقت، لأننا لسنا في حاجة إلى تعرف طويل أو اختبار للمشاعر، وتم عقد القران خلال أجازته، وسافر إلى مقر عمله واتفقنا على أن يعود بعد نهاية عقده، وأن نجهز الشقة خلال هذه الفترة، وساعدني أبي بكل ما يستطيع، وساعدنا أبوه أيضًا بما في طاقته وبكل ما تجمع في يدي مما أرسله من مال، حصلت على شقة تمليك في أحد الأحياء الجديدة بمقدم معقول وقسط محتمل. وقمت بتجهيزها وإعدادها وانتهت فترة عمله بالخارج بعد

10 شهور، فعاد إليَّ على جناح الحب وبدأنا حياتنا معًا. وبعد شهور قليلة استطعت أن أتوسط له في الشركة التي أعمل بها وتم تعيينه فيها، ومضت أيامنا جميلة سعيدة وضحكت من أعماقي حين ركبنا معًا لأول مرة أتوبيس العاملين بالشركة إلى مقر العمل، وتذكرنا أتوبيس المدرسة وكيف كان يقفز إليه ليحجز لي مكانًا فيه، أو كيف كان يَصُدُ عنِّي زحام التلاميذ بظهره لكي يحميني وأخته منه، وعرف زملاؤنا في العمل قصتنا وتندروا بها طويلًا وأسمونا «التلامذة»، كلما أشاروا إلينا أو تحدثوا عنا ومضت أيام السعادة سريعة، وبعد عامين أنجبت طفلة جميلة طار بها زوجي فرحًا، وحصلت على أجازة طويلة لرعاية الطفلة، وقسم هو وقته بين العمل وبين أسرته الصغيرة وانتهت أجازتي وعدت إلى عملي، فبحثنا عن حضانة قريبة من العمل لنترك الطفلة فيها، واضطررنا للتخلي عن الأتوبيس واشترينا سيارة صغيرة قديمة لنذهب بها إلى الحضانة كل صباح، واستمرت حياتنا جميلة كأنها أغنية طويلة من الحب والسعادة، ساعد على استمرارها أن زوجي هادئ الطباع قليل الكلام، وفي أعماقه قدر هائل من الحنان والفهم لكل الأشياء. فضلًا عن أننا كنا كما يقولون عشرة قديمة.

وهكذا مضت بنا الحياة، أسعد أوقاتنا فيها حين نلتقي نحن الأصدقاء الأربعة القدامى على العشاء في بيتي أو أو في بيت شقيقة زوجي، التي تزوجت من زميل لها، أو بيت أسرتي مع شقيقي الذي تزوج إحدى قريباتي، وأقام مع أبي وأمي، لكن جميلتي الصغيرة نغصت علينا فجأة صفو حياتنا بكثرة تعرضها للأزمات الصحية بطريقة غير عادية، ورغم معرفتنا بأن المتاعب الصحية للأطفال كثيرة، فإنها زادت بشكل ملحوظ بعد أن تخطت سن الرابعة وبدأت تشتد بلا سبب مفهوم.. وتنقلنا بها بين عدد كبير من الأطباء، إلى أن اكتشف أحدهم حقيقة مرضها بعد فوات

الآوان، فما إن عرفنا مرضها والطريق الصحيح لعلاجه حتى كنا قد فقدناها في لمح البصر، وهي لم تكمل الخامسة من عمرها، وارتج بيتنا الصغير بهذا الزلزال القاسي. ولن أصف لك حالنا بعد هذه النكبة، لكني سأقول لك إننا تجلدنا بعد ألم طويل من العذاب والمعاناة كل يوم فيه أطول من الآخر. ورضينا بقدرنا واستسلمنا لإرادة الله، وعدنا نعيش حياتنا ونطلب العوض من الله، ورغم النار التي حرقت قلبي فلقد تماسكت قبل زوجي الحبيب الذي هدته المحنة، رغم أنه من النوع الذي لا يبكي ولا يعبر عن مشاعره بسهولة، وبعد الشهور العصبية قال لنا الأهل والأصدقاء إن خير وسيلة لتضميد جراحنا هو أن ننجب طفلًا أخر ينسينا تجربتنا المريرة واقتنعت بذلك، لكن زوجي عارض هذه الفكرة بإصرار وتسلطت عليه فكرة أخرى شديدة المرارة هي أنه مادام طفلنا الأول قد اختاره الله بهذا المرض فلابد أنه وراثي في إحدى أسرتينا، وبالتالي فإن كل طفل سوف ننجبه سيكون معرضًا للإصابة به؛ ولمواجهة المصير المحتوم بعد قليل، ومادام الأمر كذلك - كما يتصور - فلماذا ننجب طفلًا نتعلق به ونحبه ثم تختطفه يد القدر من بين أحضاننا؟

وأشفقت عليه مما عاناه، فلم ألح عليه، لكني عدت بعد فترة لمناقشته في الأمر، وأكدت له أن أسرتينا خاليتان من هذا المرض، وأن التأكد من ذلك سهل، وأن مخاوفه فقط من تكرار الكارثة هي التي تدفعه لهذا الاعتقاد، وأن كل شيء بيد الله، فلماذا يعترض على مشيئته؟ فاستمع إلى حديثي صابرًا لأول مرة بعد أن كان يضيق به ولا يحتمل الكلام فيه، لكنه لم يغير رأيه. فأقنعت نفسي بأن الأيام كفيلة بأن تغرس الطمأنينه في قلبه، وضاعفت من رعايتي له وحناني عليه، فهدأت نفسه قليلًا لكنه لم يغير رأيه، وفشلت شقيقته وأمه في إقناعه وفشل شقيقي صديقه القديم في زحزحته عن رأيه، وزاد الأمر حدة أنه أصبح يتجنبني نهائيًا في فترات الخطر المحتمل فيها حدوث الحمل، ولم أشعر بخطورة الأمر إلَّا حين صارحني

لأول مرة إذا حدث خطأ ما وحملت فإن حملي سوف يعني بالنسبة له شيئًا واحدًا لا رجعة فيه، هو طلاقي والبعد عنِّي رغم حبه الشديد لي، لأنه لا يستطيع كما يقول أن يواجه المحنه التي عاشها من قبل!

ورغم قسوة هذا التهديد الذي لم أسمع منه مثله طوال سنوات زواجنا، فإنني لم أغضب منه لأني أعرف دوافعه وأعرف أنه نابع من الجحيم الذي عاشه، ولأني أعرف عن يقين أنه يحبني ولا يطيق الحياة بعيدًا عني، وتركت المشكلة للأيام لكن الأمر طال يا سيدي، فلقد مضت حوالي ٤ سنوات الآن على رحيل ابنتنا الغالية بغير أن يتنازل عن رأيه أو يتخلص من مخاوفه، رغم أنه رجل مؤمن بالله ويؤدي فروض دينه ويعامل الناس جميعًا بالحسنى، وهو مثال للأخلاق الطيبة ومحبوب من أسرتي ومن كل زملائه، وكلما شكوت لشقيقته طلبت مني الصبر عليه، وأنا صابرة فعلًا ولن أتخلى عنه أبدًا، لكن الأيام تجري وأنا أتقدم في العمر وبعد فترة طالت أو قصرت لن أصبح قادرة على الإنجاب، ولقد عانيت مثلما عانى وأكثر حين ثكلت في ابنتي، لكني مؤمنة بالله وراضية بقضائه وقدره وأرى الفرصة أمامنا لكي نعوض ما راح منا بطفل ينشأ بين أحضاننا، وينسينا آلامنا. فهل تقف إلى جواري وتحاول إقناعه بأنه ليس من حكم الضرورة أننا نشرب من الكأس نفسها لمجرد أننا شربنا منها مرة قبل ذلك، إنه يقرأ بريد الجمعة ويعجب بأرائك ويجد في بعض قصصه السلوى عما عاناه فهل توجه إليه كلمة تطمئن بها نفسه المعذبة.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

بكل تأكيد يا سيدتي سوف أقف إلى جوارك، وأؤيد موقفك بكل ما أملك لأنك على حق في كل ما تقولين، ولأن أمنيتك هي الأمنية العادلة في مثل هذه الظروف المحزنة، فليس من الحكمة ألَّا نساعد أنفسنا على نسيان التجارب الأليمة بكل طريقة مشروعة، وفي طاقتنا، ولقد أخلص لك الأهل والأصدقاء النصيحة حين أشاروا عليك بالإنجاب بعد ما جرى، فهكذا فعل كل المجروحين من أمثالكما فالتمسوا السلوى والعزاء في زهور جديدة تتفتح في حدائقهم عوضًا عن زهورهم التي اقتطفتها يد القدر، والحياة من حولنا مليئة بمن امتحنوا بمثل هذه المحنة، فعوضتهم الحياة بمن آسوا جراحهم، ونعموا بصحبتهم إلى نهاية الطريق، ولم يقل عالم ولا طبيب إن من فقد طفلًا بمرض ما في طفولته سوف يفقد كل من ينجبه بنفس المرض بحجة الوراثة، لأن التحقق من وجود المرض الوراثي أمر ميسور ويمكن للأطباء التأكد منه بسهولة. وثانيًا وهو الأهم لأن الوراثة ليست العامل الوحيد في المرض الذي أشرت إليه في رسالتك، ولا في أي مرض آخر في حدود علمي، وإنما هي عامل من العوامل المساعدة على الأصابة ببعض الأمراض وليس كلها، وهي أيضًا ليست حقيقة رياضية لا تقبل الاحتمالات، إذ كثيرًا ما تتخطى جيلًا وتنتقل إلى جيل بعده والعكس صحيح، وكثيرًا أيضًا ما تصيب ابنًا وينجو منها شقيقه، وإرادة الله في النهاية فوق كل الاعتبارات والعوامل وعلمه فوق علم كل عليم. ولو قبل زوجك فإنني على استعداد لأن أرتب له في مكتبي لقاء مع طبيب متخصص في هذا المرض ليشرح له كل أسراره ويهدئ من روعه، فمخاوف زوجك من الإنجاب في ظنيِّ هي نوع من «الفوبيا» أو المخاوف المرضية التي لا

أساس لها في الواقع، والناجمة عن القلق النفسي العميق، وهو مرض معروف وله علاجه العضوي والنفسي، والمخاوف المرضية تقود إلى الخطأ والخلط، لهذا فهو يربط بين أسباب ونتائج لا وجود لعلاقة حقيقية بينها، ويعذب نفسه بذلك ويقلل من فرصته للنجاة من آثار محنته السابقة. فلماذا لا تسلم بمشيئة الله يا صديقي وتفوض الأمر إليه.. إن طمأنينة القلب لا تتحقق إلَّا بالتسليم بإرادة الله في كل شيء، وتقبل الحقيقة مهما كانت قاسية، هو كما قلت مرارًا، طريقنا الوحيد لتخطي الآلام والصعاب. فدع الأمر لصاحب الأمر يصرِّفه كيف يشاء، ويختار لك ما فيه خيرك وسعادتك بإذن الله، فمخاوفك لا أساس لها من العلم ولا الحقيقة، ولا يدري أحد من يعيش غدًا، ومن ينزل الستار على رحلة حياته ونحن نعيش حياتنا ونحن نعرف أن الله سوف يسترد ودائعه في أية لحظة، فهل يعني إدراكنا لهذه الحقيقة ألَّا نعيش حياتنا، وألَّا ننجب ونضيف إلى الحياة زهورًا جديدة؟ لا يا سيدي بكل تأكيد. فلماذا تسمح لهذه الوساوس بأن تفسد عليك وعلى زوجتك حياتكما وأنتما الأحق بالتماس السلوى والتعويض في زهرة جديدة تضيء حياتكما؟ إن الأنجاب بعد سن السادسة والثلاثين ليس أمرًا مستحبًا من الناحية الصحية، لكنه في ظروفك وظروف زوجتك الثكلى الحريصة عليك والمتمسكة بك إلى النهاية أمر مستحب ومستحب جدًّا من الناحية النفسية والإنسانية، فلا تحرمها من فرصتها الوحيدة يا سيدي وأنت أكثر الناس رفقًا بها، ولا تحرم نفسك أنت أيضًا من هذه الفرصة وأنت في أشد الحاجة إليها، وثق في الله فليس أمامنا باب للرجاء غير بابه، وسوف تؤكد لك الأيام كذب مخاوفك وسوف تعوضك عما فقدت خيرًا عميمًا. ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون، وسوف تعلمون وتسعدون بما يؤتيكم الله سريعًا وسريعًا جدًّا إن شاء الله.

سر الحياة

قـرأت رسـالة «العشـرة القديمـة» التي تـروي فيهـا زوجة معذبـة عن مرض طفلتهـا الوحيـدة، ثـم رحيلها ورفض زوجهـا الإنجاب مرة أخـرى خوفًا من أن يكـون المرض الذي أنهى حياة طفلته وراثيًـا ويتعرض لنفس المحنة من جديد، قرأت هذه الرسـالة يا سـيدي ففجرت داخلي طوفانًا من المشـاعر والذكريات، وأحسسـت أنـي أريـد أن أتحدث مـع زوج هذه السـيدة الفاضلـة، وأن أروي له تجربتـي وقصتـي مـع الحياة لعله يغيـر رأيه ويسـتجيب لرغبة زوجتـه رحمة بها وإشفاقًا عليها مما عانته.

فأنـا يا سـيدي شـاب تزوجت منذ 7 سـنوات من زوجة ليسـت مـن أقاربي، ووفقنـي اللـه معهـا فعشـنا أيامنا سـعداء منذ اللحظـة الأولى.. وكنـت في ذلك الوقـت أعمل في إحدى الدول العربية، وأدرس في نفس الوقت منتسـبًا في كلية الحقوق بجامعة عين شـمس، وأعود كل سـنة لأداء الامتحان، وبعد أن حصلت على الشهادة الجامعية قررت العودة لبلادي. وفور عودتي منذ 6 سنوات وجدت عملًا ملائمًا في شـركة اسـتثمارية، وسـعدت به جدًّا وبحياتي الزوجية وبعودتي لبلدي بعد 5 سنوات من الاغتراب عنها، وأتم الله نعمته عليَّ بعد أقل من عامين

من الزواج فأنجبنا طفلة جميلة جدًّا، أسميتها «رشا» وسعدت بها أكثر وطارت بها زوجتي فرحًا، ومضت حياتنا هادئة سعيدة والحمد لله.. وذات يوم لاحظت زوجتي شيئًا غريبًا يلمع في عين طفلتنا اليسري، وبقلب الأم أثارت هذه اللمعة الخاطئفة قلقها واهتمامها فأسرت إليَّ بها، فنظرت في عينها فلم أر شيئًا.. فلما حدثتني بمخاوفها مرة أخرى قلت لها إن ابنتنا كالوردة المفتحة، ولا داعي للقلق، وانتهى الموضوع عند هذا الحد، وبعدها بفترة ذهبنا في أجازة صيف إلى الإسكندرية، وقمت بتصوير رشا على البلاج وجاءت الصورة جميلة كصاحبتها لكني حين دققت النظر فيها وجدت في عين الطفلة اليسرى نقطة بيضاء صغيرة جدًا كرأس الدبوس، ظننتها في البداية عيبًا في طبع الصورة لكني وجدتها في باقي الصور، فانقبض قلبي وأحسست بشيء ثقيل يجثم على صدري، وبدأت أفكر في استشارة طبيب لمعرفة سر هذا الشيء اللامع في عين ابنتي، وذهبت بها إلى طبيب كبير ففحصها بدقة، ثم نظر إليَّ وقال بعد لحظات من الصمت الثقيل إن هناك وحشًا يسكن عين ابنتي اليسرى، وأنه نما وتضخم خلال الفترة الماضية، ولم يعد هناك حل سوى استئصالها.. وعلاج العين الأخرى بالكوبالت فدارت الدنيا بي وأنا أسمع حكم الطبيب على ابنتي البريئة، وعرفت سر هذا الشيء اللامع الذي يطل أحيانًا من عينها.. ويتوارى أحيانًا أخرى عن الأنظار.. إنه المرض اللعين جاء واستقر في عينها اليسرى، ونحن غافلون ثم أعلن عن نفسه فجأة وزلزل حياتنا الهادئة، وكدت في غمرة انفعالي في هذا اليوم الكئيب أن أفقد زوجتي نفسها، لكن رحمة الله تداركتني وألهمتني الصبر والجلد، فتوجهت بابنتي إلى عدد كبير من الأطباء لأتأكد من صحة هذا الأمر.. فأكدوه لنا جميعًا بكل أسف، ثم أرشدني أحد الأطباء إلى أستاذ كبير للعيون لأستشيره فيكون رأيه هو القول الفصل في المسألة، فحملت إليه ابنتي وفحصها بعناية ثم

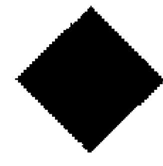
قرر ضرورة استئصال العين اليسرى وعمل عملية بالكوبالت للعين اليمنى على وجه السرعة، فسلمت الأمر لله وأدخلت ابنتي المستشفى تحت إشرافه. ودخلت ابنتي غرفة العمليات لينتزع الطبيب إحدى عينيها وتم إجراء عملية الكوبالت للعين الأخرى.. وعادت ابنتنا إلى غرفتها كالوردة الذابلة ودموعنا لا تجف مما عانته من أهوال، ومما حكمت به عليها المقادير، ومع مرور الأيام بدأت رشا تسترد صحتها.. ونضارتها وعادت إلى الحياة لتطل عليها من عينها الوحيدة وبدأت أنا في تجهيز عين صناعية تحفظ لها منظرها.. وتم تركيب العين وبدأت رشا تتعود عليها.. وتعود إلى مرحها القديم.. وبدأنا نحن نطمئن إلى ذلك مع الاستمرار في علاج عينها اليمنى لكي نحافظ على ما بقي لها من شعاع النور وترددنا بانتظام على الطبيب الكبير ثم بدأت زوجتي تهمس لي من بين دموعها بأن البنت لا تكاد ترى بالعين اليمنى.. وأنها تتعثر في الأثاث في شقتنا.. ولا تميز الأشياء جيِّدًا، فهرولت بها إلى الطبيب فأعاد فحصها ثم صارحنا بالحقيقة المرة وهي أن المرض اللعين نفسه قد أطل مرة أخرى من العين اليمنى، ولابد من جلسات إشعاع عليها حتى لا يستمر وينتشر إلى بقية أجزاء الجسم.. فقمنا بعمل الجلسات المطلوبة وعدنا للطبيب فقرر أن تبدأ جلسات العلاج الكيماوي لحماية جسمها من الزائر اللعين، وتقررت لها 30 جلسة وبدأنا هذه الجلسات مرة كل أسبوعين، وفي الأسبوع الخالي يتم تحليل دمها لنعرف مدى تحملها للجلسة القادمة.

وذات يوم قرر المستشفى أنها في حاجة لنقل دم، وتم نقل الدم لها فكاد يقضي عليها إذ تبين أنه ملوث، وأصيبت ابنتي بمرض الصفراء كأنها كانت في حاجة إلى مزيد من العذاب، وتوقف علاجها كيماويًّا لمدة شهرين إلى أن شاء الله لها أن تشفي من الصفراء ولن تنجو من خطرها.

وواصلنا رحلة العناء لمدة 7 شهور، وبعد 15 جلسة من العلاج فوجئنا بشعر ابنتي يتساقط كله حتى لم تبق برأسها شعرة واحدة، فأصيبت زوجتي بهلع شديد، وتمزق قلبي وأنا أرى ابنتي الجميلة في منظر كئيب، وتوجهت بقلبي إلى الله واستخرته ثم قررت وبصفة نهائية أن أضع الأمر كله بين يديه وأن أفوضه فيه وحده.

وهكذا قررت وبإصرار التوقف عن جلسات العلاج الكيماوي وليفعل الله بعباده ما يشاء ،وتوقفت عن الذهاب بها إلى الجلسات، ومضت الأيام وقلبي واجف.. لكن شيئًا في داخلي كان يعيدني إلى الطمأنينة كلما ألح عليَّ الخوف.. وبدأ شعر ابنتي ينمو من جديد حتى عاد إلى ما كان عليه.. وبدأت هي تتعود على حياتها كطفلة من أطفال النور، واستعادت جمالها القديم وخلال هذه الملحمة.. كانت فكرة الإنجاب مرة أخرى تراودني من حين إلى آخر وترددت أمامها وتسلطت عليَّ نفس المخاوف التي تسلطت على زوج السيدة الفاضلة، لكني نفضت عنِّي المخاوف وسلمت الأمر لصاحبه، واتفقت مع زوجتي على الإنجاب ورزقنا الله ونحن في هذه المأساة بالطفلة «دينا» فشكرنا الله كثيرًا على ما أعطى، وبعد شهرين من ولادتها حملتها إلى الطبيب الرحيم الذي سار معنا مشوار العذاب، ليفحص عينيها ويرى هل زارها نفس المرض أم لا؟ فبشرنا بأنها خالية منه والحمد لله، والآن يا سيدي فقد بلغ عمر طفلتي الثانية حوالي العامين وهي في أتم صحة وعافية، ولم يطل الزائر اللعين من عينيها، ولن يحدث بأمر الله، أما رشا الجميلة الكفيفة فهي أيضًا في أتم صحة وقد مضى الآن على توقفها عن العلاج عام أو يزيد، وهي في تمام العافية وفي غاية السعادة والمرح والنشاط.. وهي تذهب كل صباح بسيارة الحضانة إلى المركز، وتلتقي بأطفال في نفس سنها وظروفها فتتعلم وتلعب وتسمع الحكايات، وتعود إلينا في منتهى

الحيوية لتروي لنا القصص الطريفة، وقد وهبها الله ذكاء يفوق سنها وممتازة علميًّا، وأنا فخور وسعيد بها وأصحبها معي إلى أي مكان أذهب إليه، وبين دينا ورشا تمضي حياتنا ونحن سعداء بها وزوجتي التي عانت كثيرًا وتحملت كثيرًا، سعيدة وراضية مثلي بما أعطانا الله ونحمده عليه ونشكره على كل شيء، وقد أردت أن أعطي درس حياتي لزوج هذه السيدة الفاضلة ليتخلص من مخاوفه، وليكون على ثقة من أن الله لن يتخلى عنه، وليتوكل عليه ويستجب لرغبة زوجته التي تحبه واكتوت بفقد طفلتها، وسوف يعطيه الله ما يريد ويحفظ له أبناءه القادمين من كل سوء إن شاء الله.



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

يا سيدي إنك لم تقدم درس حياتك لزوج هذه السيدة الفاضلة وحده، وإنما ألقيت علينا جميعًا درسًا بليغًا في الإيمان بالله، وتسليم الوجه إليه، وتقبل كل ما تحمله لنا أمواج الحياة بنفس راضية وفي القدرة على استشعار السعادة فيما منحه الله لنا من أسباب مهما كانت مساحتها، ولقد صدقت في كل ذلك يا صديقي فالسعادة «إرادة وقدرة» قبل أن تكون أسبابًا، لهذا يعجز البعض عن استشعار السعادة في أكثر الظروف مدعاة لها، و«يقدر» البعض على الإحساس بها في أقل الظروف تهيؤًا لها، والفارق هنا هو في حكمة الإنسان وإيمانه بالله وقدرته على فهم الحياة التي تطالبنا دائما بأن نكيف أنفسنا مع الواقع الذي لا نستطيع

لـه تبديلًا، وبأن ننظر دائما إلى الجانب المبهج من حياتنا لكي يعادل ما أصابنا من آلام، وبأن نتطلع دائمًا إلى نصيبنا من السعادة بقلب يخفق دائمًا بالأمل.

لهذا قال أحد المفكرين يومًا «إن معظم الآم الإنسان من صنعه هو» ليس لأنه يريد إيلام نفسـه، وإنما لأنه قد يسـمح لآلام الحياة التي لا تخلو منها حياة بشـر بأن تشـقيه، وهو قادر على أن يجنب نفسـه ذلك إذا وضع كل الأمور في حجمها الصحيـح، وآمـن بصدق بـأن مالا حيلة لنـا فيه لا طاقة لنـا به، وإذا حـاول دائمًا أن يـداوي جراحـه بالصبـر والأمل، وأدرك أنـه لكل حال جمالهـا، ولكل جرح دواء، ولكل إنسـان من حظه ما يسعده ومن همه ما يشقيه، وعليه أن يهنأ بأسباب السعادة ويصبر على أسباب الشقاء.

وأنت يا صديقي قد أدركت كل ذلك بحكمتك، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ فلـم تسـمح لتجربتـك الأليمة بـأن تسـجنك في إسـارها، ولا بـأن تحرمك من حقك العادل في السـعادة وأنت جديـر حقًّا أنت وزوجتك الكريمـة بـكل خير وكل سـعادة، لأن من عانى أعظـم الألـم أحق بـأن ينال أيضًا أعظـم السـعادة، فلتطب لك الحياة مع زوجتك التي لا شـك فـي أنها كانت خير عـون لـك على المحنـة. أعانها اللـه على ما عانـت وما لاقت. ولتهنـأ بزهرتيك الجميلتين رشـا ودينا أقر الله بهما أعينكما، وهيَّأ لكما من أمركما رشـدًا، ولعل زوج كاتبة رسـالة «العشرة القديمة» يقرأ رسـالتك القيمة هذه ويستفيد بدروسها ويتعلم ما ينبغي أن نتعلمه جميعًا منها وهو «سر الحياة» الذي قال عنه الشاعر:

ومـــا سِـرُّ الـحَـيَـاةِ سـوى احْـتِـمَـــالِ　　　سـواء للـهـنِّـي وللـشَّـقِـــيِّ

وشكرًا لك يا سيدي أن أردت - نبلًا منك وكرمًا - أن تخفف «بآلامك» عنه وعن غيره من المعذبين بعض الآمهم.

الهزيمة

أنا يا سيدي شاب في الثامنة والعشرين من عمري. وفي السنة النهائية من دراستي الجامعية ارتبطت عاطفيًّا بزميلة لي في السنة الثالثة من الكلية نفسها، وتعاهدنا على أن نمضي معًا رحلة الحياة، لكنني اصطدمت بعد شهور من ارتباطي بها بأول محنة واجهتها في حياتي، حين أبلغتني فتاتي فجأة أنها سوف تخطب لقريب لها يعمل في أحد البنوك.

وحرتُ ماذا أفعل؟ وأنا طالب لا أملك مالًا ولا عملًا ولا شقة، وظروفي العائلية لا تسمح لأحد بمساعدتي، فأنا يتيم منذ صباي، وقد ترك لنا أبي معاشًا صغيرًا يفي بصعوبة بمتطلبات الأسرة، وبالحد الأدنى من نفقات تعليمي، حتى أني أمضيت سنوات الجامعة كلها تقريبًا ببنطلونين وقميصين، أضع فوقهما في الشتاء «بلوفورًا» زاملني كل سنوات دراستي حتى أصبح علامة مميزة لي بين زملائي، وأحسست بقنوط شديد لكني أدركت حقيقة وضعي فاستسلمت لمصيري وكتمت حزني وصبرت وتحاشيت الاقتراب منها، رغم تأكيدها لي أنها مرغمة على هذه الخطبة بأمر أبيها، ومر شهران وجاءتني فتاتي ذات يوم بالكلية منشرحة لتقول لي إن خطبتها قد فسخت لعدم التوافق، ولأن الخطيب

قد استشعر فتورها تجاهه، ووجدت نفسي أقفز في الهواء فرحًا وأكاد أحملها معي، وقلت لها لقد امتحنتنا الأقدار بهذه التجربة وعرف كلانا أنه لا حياة له بعيدًا عن الأخر، فلنتمسك بأحلامنا إلى النهاية، وتعاهدنا بالفعل على ذلك، وكان الامتحان قد اقترب فرحت ألتهم كتبي التهامًا بعد أن كنت قد أهملتها خلال الشهرين الطويلين، وتقدمت للامتحان ونجحت وحصلت على شهادتي، وانطلقت أبحث عن عمل، ومشيت مشوار البحث كاملًا بلا فائدة.. ولم أحجم حين وجدت عملًا في المعمار مطوحًا بشهادتي وراء ظهري، فبدأت العمل فيه لأحمل شكائر الأسمنت والرمل وأصعد بها على السقالة الخشبية لمدة 8 ساعات مقابل 6 جنيهات في اليوم.

ثم طلبت زيادة ساعات عملي إلى 10 ساعات لأحصل على أجر أكبر، وأصبحت أتقاضى ثمانية جنيهات كل يوم أدخر معظمها، وكنت طوال هذه الشهور ألتقي بفتاتي كل يوم جمعة، وأحكي لها عن عملي الشاق وعما ادخرته حتى الآن، ونمشي في الشوارع ننسج أحلامنا، ثم أصبحت أعمل يوم الجمعة أيضًا لأجمع المزيد من النقود فلا أرى فتاتي إلَّا مساء يوم الخميس عقب عودتها من كليتها.

وبعد سنة كنت قد جمعت مبلغ ألفي جنيه، ففكرت في أن أتقدم ثم أواصل عملي إلى أن أضع قدمي على أول الطريق، وفاتحتها في ذلك فأكدت لي أن أباها لن يقبلني بلا شقة، وصارحتني بأنها أعلمته عند الخطبة السابقة برغبتها فيَّ لكنه نصحها بتركي لأن طريقي طويل ولم يغيِّر رأيه بَعْدُ رغم فشل الخطبة.

سألت نفسي ماذا أستطيع أن أفعل أكثر مما أقوم به الآن؟ ولم أجد جوابًا على تساؤلاتي فواصلت عملي. وساعدتني بنيتي المتينة على تحمل مشاقه، وكان

كل عنائه يهون في الساعات القليلة التي أراها فيها مساء الخميس، إلى أن انتهى العام الجامعي وتخرجت فتاتي وبدأت هي الأخرى البحث عن عمل.

وبعد تخرجها بشهرين انتظرتها في الموعد الأسبوعي الذي نلتقي فيه فلم تأت، وفي الأسبوع التالي انتظرتها فلم تأت، فلم أطق صبرًا وانطلقت إلى شارعها أحوم حول بيتها لعلي أراها في الشرفة أو في الشارع، فوجدت الشارع هائدًا ولا أثر لها فيه فجن جنوني، واستدرت لأعود إلى بيتي وقبل أن أغادر شارعها سمعتُ صوتها يناديني فتوقفت، وقبل أن تنطق بشيء ثرت في وجهها متهمًا إيَّاها بأنها لا تقدر عذابي، فأمسكت بيدي وطلبت مني أن أؤجل ثورتي إلى أن أسمع الأهم، أما الأهم، يا سيدي فقد كان كارثة جديدة أو عريسًا آخر عائدًا من الخارج وجاهزًا وعلى استعداد لإنهاء كل شيء في ثوان، فعرضت عليها أن أتقدم لها وأن تتمسك بي أمام أسرتها.. فقالت يائسة إنه لا فائدة لأنها حاولت وفشلت، فعرضت عليها عليها أن نتزوج ونضع الجميع أمام الأمر الواقع فرفضت، لأنها لا تريد إيلام أبيها وأسرتها فسألتها حائرًا: إذت ماذا تريدين؟ فقالت مستسلمة: سأتزوج ثم بكت! وودعتها صامتًا وانصرفت وأنا لا أرى طريقي. ومشيت في شوارع هذه المدينة القاسية لا أعرف إلى أين أذهب. ثم عدت إلى البيت منهكًا وأمضيت الليل مسهدًا وطلع الصباح فلم أجد في نفسي رغبة للخروج أو الذهاب إلى العمل، فأمضيت عدة أيام بلا عمل، ثم ضقت بفراغي وأفكاري فقررت الهروب منها إلى العمل، وتوجهت إلى موقعه فاستقبلني المهندس بحفاوة وسألني عن سبب انقطاعي فادعيت المرض. وتسلمت العمل من جديد لكني رجوت المهندس ألَّا أعمل سوى 8 ساعات كل يوم، وألَّا أعمل يوم الجمعة فوافق.

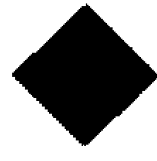
ومضت شـهور وأنا أمارس العمل نفســه مع المهندس فـي موقع مبنى جديد بمنطقـة الهرم، وكنت فـي أيام الأحلام قد أعطيت عنوان مكتبـه وتليفونه لفتاتي السـابقة، لعلهـا تحتاج إلـى الاتصال بي ذات يوم عنـده، فراودني الأمل أكثر من مرة في أن أجد ذات يوم رسـالة منها في المكتب حين أذهب إليه مرة كل أسـبوع لأقبض أجري، لكن الأسابيع والشهور مرت في صمت كئيب، حتى يئست منها تمامًـا وإن لم أنسـها أبدًا، فأنـا أتذكرها في موقع العمـل وأتذكرها وأنا وحيد في غرفتي بشقتي الضيقة التي تشاركني فيها أمي وشقيقتي الأرملة وأولادها.

إلـى أن كان يـوم صحـوت فيـه مـن نومـي نشـيطًا على غيـر عادتـي مبتهجًا علـى خلاف أيامي السـابقة، وبدأت العمـل مقبلًا عليه وتوقفت بعد 3 سـاعات «للتشـريبة» التي يحرص عليها العمال في السـاعة العاشرة، وهي استراحة لمدة ربع سـاعة نشـرب فيها الماء أو الشاي ونلتقط أنفاسـنا ثم نواصل العمل، وكنت جالسًـا فوق كتلة من الخرسانة أشرب الشـاي حين وجدت فتاتي بلحمها ودمها أمامـي، فانتفضـت واقفًـا ورحبت بها وأجلسـتها بجـواري كأننا كنـا على موعد وجـاءت فيـه! مع أني لم أرها منذ سـنة طويلة، وحكت لي أنهـا اتصلت بمكتب المهنـدس وعرفت منـه موقع العمارة وجاءتني.. وأنها قد طلقت من زوجها قبل الزفاف لنفس السـبب السـابق وأنها عرفت الآن بما لا مجال للشـك فيه أنها لن تكـون إلَّا لي، ولن تسـتطيع الحياة مع إنسـان غيري فذكرتها بأنهـا قالت العبارة نفسـها بعـد الخطبة الأولى ثم استسـلمت، فأكدت لي أنهـا تعلمت الدرس هذه المرة ولن تسمح لنفسها بالخطأ مرة أخرى.

ورغـم آلامي الشخصية فلقد غفرت لها كل ما سببته لي من عذاب، ووجدت نفسـي سـعيدًا بها، ونهضت واسـتأذنت المهندس في أجازة ثم عـدت معها إلى

المدينـة وودعتهـا على لقاء بعد سـاعات في بيتهـا، واصحطبت أمي وشـقيقتي وتوجهت إلى بيت أبيها وطلبت يدها فاستقبلني أبوها استقبالًا عاديًا وطلب مني إيجاد الشـقة قبـل إعلان الخطبة، وحـدد لي مهلة لا تكفي لادخـار ثمن ثلاجة، فخرجت من بيته محبطًا وأنا أحس بإنه لم يتعلم الدرس من فشـل خطبتين لابنته من قبل، ثم التقيت بعدها بفتاتي فأكدت لي ظنوني وقالت لي إنه ما زال مقتنعًا بأن طريقي طويل، وأنني لن أوفر لها الشـقة وبالتالي فلن يعلن خطبتنا إلَّا إذا حققت معجزة الشقة أولًا ثم العمل المسقر ثانيًا، فتوجهت إليه وحدي وناقشته في ذلك وقلت له إنني أحمل الأثقال فوق ظهري منذ عامين لأوفر الشـقة، وأن المهندس الذي أعمل معه سـيوفر لي عملًا إداريا معه بعد انتهاء المبنى الذي نشيده، وأنني ككل شـاب لن أسـتطيع توفير الشـقة قبل عامين آخرين، فلمـاذا لا نعلن الخطبة الآن بل ونعقد القران أيضًا إذا أمكن، ثم أواصل كفاحي للحصول على الشـقة؟ فأجابني في هدوء أن الانتظار هو الرأي الحكيم. فطلبت منه استدعاء ابنته ليسمع رأيها وقد ركزت كل أملي في أن تسـاندني أمام أبيها، ونحسم الموقف، فجاءت وطرحـت الأمر عليها ففوجئت بها تتخـاذل أمامه وتؤيده في عدم إعلان الخطبة إلَّا بعد إيجاد الشـقة، فخذلتني أمام أبيها، وطعنت حبي للمرة الثالثة فانسـحبت مهزومًا ذليلًا. والآن يا سـيدي أسـألك ما معنى هذا الموقف الغريب من فتاتي، وكيـف تريدنـي ثم تخذلنـي؟ وماذا أفعـل لكي أوفر هذه الشـقة اللعينـة وكل ما جمعته من انحناء ظهري لا يزيد على 4 الآف جنيه؟ وما هذه القسـوة التي يعامل بها بعض الآباء الشـبان المكافحين من أمثالي؟ وماذا نفعل يا سـيدي لكي نعيش ونحيا ونتزوج ممن نحب؟

هل عندك جواب على تساؤلاتي هذه؟



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

إن موقف فتاتك منك يعني أمرين: الأمر الأول؛ أنك تحبها وترغب فيها وتتمسك بها أكثر مما تفعل هي، وحجتي في ذلك هي قبولها للخطبتين السابقتين بلا مقاومة حقيقية من جانبها، وإحجامها عن إعلان رغبتها فيك أمام أبيها حين احتكمت إليها، وتعلق أملك على كلمة تخرج من بين شفتيها فتشد بها أزرك وتنتصر بها لك، فلم تفعل. وإنما خذلتك وأضعفت حجتك ونسفت قضيتك من أساسها. والثاني: هو أن فتاتك قد تكون راغبة فيك ومرتبطة عاطفيًّا بك ولكنها ليست قادرة على الدفاع عن أحلامها ولا على التمسك بها في المواقف الصعبة.. كأنما تريدك ولكن بلا مشاركة حقيقية من جانبها في تحقيق هذه الرغبة والدفاع عنك وتيسير الأمر عليك بإقناع أسرتها بك. ولو فعلت فتاتك كل ذلك لما تعدت الحدود ولا خالفت أباها أو خرجت على طاعته، بل لعلها تعينه بذلك على اتخاذ القرار السليم حين يطمئن قلبه إلى صدق رغبتها فيك، وإلى استعدادها لتحمل عناء رحلة الحياة معك.. وكثيرون من الآباء قد يتمسكون بإيجاد الشقة ويعتبرونها نقطة البداية في بحث مشروع الزواج، قبل أن يعرفوا أحيانًا أي شيء عن شخصية الخطيب أو خلقه وعمله، لكنهم في النهاية آباء لا تحركهم سوى رغبتهم في تحقيق السعادة لأبنائهم كما يتصورونها، وليس من العسير أن يتخلوا عن هذا المنطق العملي الصارم إذا استشعروا صدق رغبة فتياتهم فيمن يردن الارتباط به. لهذا فإني أعتقد أن مشكلتك تكمن في سلبية فتاتك تجاهك أكثر مما تتمثل في موقف أبيها الذي يرى في الشقة «مفتاحًا» للحديث في مشروع

الزواج. ومشـروع الزواج الآن أصبح يحتاج إلى شريكين مكافحين قادرين على التمسـك بأحلامهما والدفـاع عنها ضد غوائل الزمن حتـى تتحقق، وفتاتك فيما يبدو ليسـت من هذا النوع فلا تأس عليها، فلقد خذلتك في الحقيقة ثلاث مرات وليسـت مـرة واحدة كما تتصور، فـإذا جاز لنا أن نخطئ مرة فـلا يصح ألَّا نتعلم الحكمة من الخطأ الثاني أو الثالث، كأننا نقول مع أبي العلاء:

وأعـجـبُ مـنِّي كيف أُخْدعُ دائمًا عَلَى أَنَّني من أعْرفِ النَّاسِ بالنَّاسِ

ولعلـك الآن من أعرف الناس بفتاتـك، وبأنها غير قادرة على أن تحارب من أجل تحقيق أحلامكما، ومثلها لا يجوز للإنسـان أن يأسـى عليها أو على غيرها، فمن يخذلنا ويتخلى عنا لا يستحق دموعنا، والحياة عريضة من حولنا ومليئة بمن لا يتخلون عن شـركائهم، ولا يسـمحون لجدران شقة صماء بأن تكون الصخرة التي تتحطم عليها القلوب والمشاعر، فواصل كفاحك النبيل يا صديقي.. واستمر في الحلم وسـوف تعينك إرادتك القوية على تحقيـق أهدافك النبيلة في الحياة، أمـا بقية تسـاؤلاتك عما يفعل الشـباب لكي يحيـا ويعمل ويتـزوج بمن يحب؟ و ..و فالحـق أنها تحتاج إلى مجلـس وزراء بأكمله لكي يبحث عن إجابات لها، وقـد لا يسـتطيع أيضًـا رغم ذلك أن يقـدم لك الإجابات الشـافية عنهـا، لكن لا معنى لليأس.. ولابد من الأمل.. ومن الحلم أيضًا فهما طريقنا الوحيد لمناطحة صخور الحياة الوعرة من حولنا.

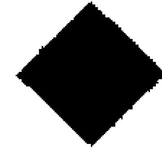
شيء من الحرج

أنا يا سيدي رجل نشأت في أعماق الريف، ونلت قسطًا من التعليم أحمد الله عليه، فقد حصلت على دبلوم المعلمين، وعملت مدرسًا ابتدائيًّا في القاهرة. وجئت إلى هذه المدينة الكبيرة منذ سنوات بعيدة فرحت أتردد على بيت عمي أتلمس عنده الرعاية والحنان لأني يتيم منذ صغري، فأحببت ابنته الشابة وأحبتني، ووجدت لديها ضالتي من الحنان، ووجدت فيَّ رجلها وأملها واتفقنا على الزواج، وتم بعد فترة قصيرة وبدأت حياتي معها فكانت لي نعم الزوجة والأخت والصديقة، وتحملت معي مشقة العيش براتب مدرس ابتدائي في القاهرة الواسعة بصبرٍ وبلا شكوى، بل راحت تدبر حياتنا بحكمة لم أشعر معها بقسوة الحياة أو مشاكلها، وكان الله قد أراد أن يجزيها عن حرمانها خيرًا وهي التي لم أسمعها يومًا تشكو قلة الشيء رغم قلته فعلًا، فصدر قرار بإعارتي إلى إحدى الدول العربية، وسافرت إليها مستبشرًا وأصحطبت معي زوجتي وأولادي الثلاثة، وعشنا حياتنا هناك في سعادة غامرة، كنت أرقبها خلالها وهي تجد السعادة بعد الحرمان.. فأراها تشكر ربها وتحمد الله على كل شيء ولا يتغير حنانها على الأبناء ولا حنوها عليَّ، فهي دائمًا الصابرة في الضراء والشاكرة في السراء. فلم ترهقني بمطلب، وكانت تتقبل كل شيء برضا وسعادة.

ومضت سنوات الإعارة الأربع سريعة وسعيدة غاية السعادة، وعدنا إلى بلادنا وقد أصبح الأبناء خمسة، فجمعنا كل ما ادخرناه في سنوات الإعارة وبنينا به منزلًا صغيرًا جميلًا في أحد أحياء القاهرة غير المزدحمة، وافتتحنا محلًا تجاريًّا صغيرًا في الدور الأرضي منه تديره زوجتي، ورضينا عن حياتنا وسعدنا بها، فأنا أؤدي عملي في المدرسة وزوجتي تشرف على المحل في ساعات الصباح، والأبناء من حولنا فرحين بما أتانا الله، وزوجتي تدير العمل والبيت بحكمتها الفطرية فلا مغالاة ولا إسراف في شيء، وإنما كل شيء بالأصول وبالعقل والحكمة، حتى كانت ليلة كئيبة استيقظت من نومي فيها فزعًا على صوت زوجتي يناديني فالتفت إليها إلى جواري في الفراش، فوجدتها قد فارقت الحياة دون كلمة وداع. وهكذا انتهت رحلتها في الحياة قبل أن تبلغ السابعة والثلاثين وبغير أن تهنأ بالحياة الميسورة سوى عدة سنوات قصار، ووجدت نفسي في الثامنة والثلاثين أرمل يرعى خمسة من الأبناء أكبرهم فتاة في سن الصبا. فتجرعت كأس المرارة وحدي ورضيت بقدري وكرست جهدي لرعاية أبنائي. وكانت ابنتي الكبرى في الثانوية العامة وقتها فتحملت بشجاعة عبء الأسرة والأشقاء. فلم توفق في امتحان الثانوية العامة. ولم أحزن لذلك لعلمي بما تحملته من آلام وأعباء، وقد عوضها الله عن فشلها بالنجاح في العام التالي بمجموع أهلها للالتحاق بكلية محترمة، لكن الأعباء الثقال التي تحملتها جعلتها تتعثر بعض الشيء في دراستها لأنها شديدة الحساسية، ولا تدخر جهدًا في تلبية مطالب إخوتها كأنها تريد أن تشعرنا بأننا لسنا في حاجة إلى أحد. فتحملت الكثير أعانها الله ثم تقدم لها شاب من الأسرة لخطبتها فرفضت في أول الأمر، لأنها لا تريد أن تتخلى عن أشقائها الصغار. لكني وجدته مناسبًا لها فأقنعتها به. وشاركني في إقناعها ابني الذي يليها في السن وهما صديقان حميمان قربت بينهما ظروف الحياة والحرمان من الأم

وهو طالب في كلية الطب، وتمت الخطبة وهي الآن منقولة إلى السنة الرابعة في كليتها وقد جهزت كل شيء لزواجها إن شاء الله، أما الابنة الثانية فهي في الصف الثاني الثانوي وقد نجح ابني الآخر في الإعدادية ونقل إلى الصف الأول الثانوي، وحصل ابني الأصغر على الشهادة الابتدائية ونقل إلى المرحلة الاعدادية.

وقد مضى الآن على رحيل الأم سبع سنوات.. وتجاوزت الخامسة والأربعين وأصبحت ناظرًا لمدرسة ابتدائية، لكن الوحدة تثقل عليّ وإن لم يفارقني طيف زوجتي الراحلة.. وبدأت أحس بالوحشة وبالحاجة إلى شريكة تشاركني بقية أيامي وتساعدني في تكملة رسالتي مع أبنائي، وأستند إلى ذراعها في شيخوختي لكيلا أكون عبئًا على أبنائي. وألَّح عليَّ التفكير يومًا ففاتحت ابني الأكبر فيه، فإذا به يوافقني عليه إشفاقًا منه عليَّ من الوحدة واعزازًا لي أعزه الله وأكرمه، بفضل من عنده، وما أظن ابنتي الكبرى إلَّا تؤيده في ذلك هي المضحية الراغبة دائمًا في إسعاد أبيها وأشقائها.. لكني أحس بالقلق تجاه أبنائي الصغار وأتساءل هل ستسمح لهم سنهم الصغيرة بأن يتقبلوا الأمر مع ما فيه من امتحان لمشاعرهم؟ لقد خانتني شجاعتي في مفاتحتهم بالأمر، والأب يا صديقي قد يضعف أمام أبنائه في مثل هذا الأمر المحرج فيحتاج إلى العون والمساعدة.. لهذا فقد فكرت فيك، وأنا أراهم يقرأون بابك ويحترمون أراءك في أن تزيل عّني هذا الحرج وأن توجه إليهم كلمة ولو في رسالة خاصة، تشرح لهم فيها أن من كان مثلي يحتاج إلى الزواج، وأن ذلك لن يؤثر على مكانتهم في قلبي ولا على رعايتي لهم، وأنه ولولا الظروف الأليمة ما فكرت في أن تدخل بيتنا غير أمهم العزيزة الراحلة. فإذا قبلت أن تؤدي لي هذه الخدمة.. فهل تقبل أيضًا أن تساعدني في إيجاد من تشاركني رحلة حياتي الباقية مع ما شرحت لك من ظروفي وأهمها أني لا أرغب في مزيد من الأبناء؟



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

قدر الله وما شاء فعل، وما دمت قد حمَّلتني الأمانة فليس أمامي خيار سوى تحمل تبعاتها، فأما أبناؤك فلا خوف عليك من الحرج الذي تستشعره معهم بسبب سنهم الصغيرة، فلقد أصبحت أشك جدًّا في أنه لم تعد هناك الآن مرحلة طفولة، لأن الأبناء يولدون الآن كبارًا كأنهم عرفوا الحياة وفهموا الكثير من أسرارها. والسر في تصوري يرجع إلى التليفزيون الذي تغلغل في حياتنا بما يعرضه من أفلام ومسلسلات تعرض صور الحياة المختلفة في قمة تأزمها أمام الكبار والصغار بلا تفرقة. لهذا فلست أتصور أن أبناءك بعيدون عن إدراك المحنة التي تعانيها، كما أن التجارب الحزينة تكسب الصغار نضجًا مبكرًا وحكمة فطرية تعينهم على مواجهة شدائد الحياة. وفي ضوء ذلك كله أقول لأبنائك ملتمسًا منهم العفو عما قد يصدم مشاعرهم: إن من نكد الدنيا أن يفقد الإنسان شريكة حياته في منتصف الطريق، وأن كثيرين من الآباء الذين امتحنوا بهذه المحنة لا يطيقون احتمال الوحدة لفترات طويلة، ويثقل عليهم الإحساس بفقدان الرفيق فيحتاجون إلى شريكة تساعدهم في تحمل رعاية الأبناء وتهوِّن عليهم متاعب الطريق، وهو أمر مشروع وله أسبابه الوضحة، بل إن بعض الصالحين لم يتحملوا الحياة بغير زوجة لأكثر من أسابيع بعد رحيل الزوجة الأولى، بغير أن ينقص ذلك من وفائهم لزوجاتهم، وقد رويَ عن الإمام أبي حنيفة.. وهو من هو روعًا وتقوى. أنه عاد من وداع زوجته. فالتفت إلى أصحابه وطلب منهم أن يبحثوا له عن زوجة، فقالوا له يا أبا حنيفة اصبر لقد

ماتـت زوجتك اليوم، فقـال لهم: إن شرار الناس عنـد اللهُ عزّابهم، وأنا لا أريد أن ألقى الله عزبًا !

ولسـت أروي لكم هـذه القصة لأبرر لكـم رغبة أبيكم المشروعـة في الزواج، وإنما لأشرح لكم بقدر ما أستطيع مدى حاجة الرجل في بعض الأحيان إلى وجود زوجـة إلى جواره، على وفائه لزوجته الراحلة وشـدة حرصـه على أبنائه وحبه لهم. فالأبنـاء دائمًا عند الأسـوياء من الآبـاء في حبة القلب دائمًا، ولا يغـير من مكانتهم وحقوقهم في الرعاية أن يتخذ الأب لنفسـه شريكة جديدة في الحياة.. ولا شك أنه لم يتمن ذلك لنفسـه ولكـم.. لكنها ظروف الحياة وضروراتها التي تدفع الإنسـان أحيانًـا إلى مـا لم يحب ويَرْجُ.. خصوصًـا إذا تفكر في مسـتقبله. ورأى أنكم عاجلًا أو آجلًا سـوف تسـتقلون بحياتكم.. وسيجد هو نفسه وحيدًا في سن لا تسمح له بالـزواج، يجتر آلامه ويتلمـس الصحبة. فإذا كان الأمر كذلك فلـم لا نتعاون معًا عـلى تخفيف آلام الحياة عنا جميعًا. فيظفر أبوكم بمن يسـكن إليها.. وتظفرون أنتم بأم بديلة تواصل معكم رسالة أمكم الراحلة.

إنني أعلم أن الأمر قاس على قلوبكم الصغيرة، لكن ماذا نستطيع أن نفعل وقد شاءت لنا الأقدار الحزينة هذا الوضع؟ ولماذا لا نأمل خيرًا ونؤمن بأن من حق كل إنسـان أن يحيا حياتـه في حدود المشروع والمقبول؟ فنرجـو لأبيكم أن يوفقه الله إلى شريكة عطوف ترعى الله في معاملتكم وتتقرب إليه بحسن رعايتكم، وكم شهدنا في الحيـاة من أمهات بديـلات كن رحمة على من وضعتهم الأقدار في رعايتهن رغم كل شيء.

أما أنت يا سيدي فما دمت قد حزمت أمرك فخير ما أنصحك به هو ما نصح به الإمـام علي بن أبي طالب ولديـه في وصيته حين قال لهما: «الله.. الله.. في الأيتام فلا

يضيعـوا في حضرتكم» فاجتهد يا سـيدي في أن تتخير لهـن من الأمهات من تكون عونًا لهم على الدنيا لا خطبًا من خطوب الدنيا عليهم، وليس أفضل في ضمان ذلك مـن ذات الديـن، فاظفر بذات الديـن والرحمة والعدل يهدأ بها جانبك.. ويسـكن إليهـا أبنـاؤك، وتمـضي بكم سـفينة الحياة في بحر هـادئ الأمواج لطيف النسـمات إن شاء الله.

المعجزة

قبل أن تتساءل يا سيدي من أنا أو ما الحكاية؟ سأذكرك بأني الأم التي كتبت لك في مثل هذا الوقت، من العام الماضي وهي في قمة اليأس والحيرة والتعاسة، لرسوب ابنها في الثانوية العامة وتغير أحواله بعد وفاة الأب عائل الأسرة.. ونشرت رسالتي المريرة هذه بعنوان «النداء الصامت» وقد رويت لك فيها أني حائرة فيما فعلت بأسرتي، وسألتك هل كنت مخطئة حين استجبت للنداء الصامت الصادر من عيني زوجي الطيب المريض بالمستشفى لكيلا أتخلى عنه في مرضه ومحنته، فقمت بملازمته طوال 5 شهور طويلة في المستشفى إلى أن رحل عن دنيانا، وابتعدت خلالها عن الإشراف على أبنائي ثم عدت إلى بيتي بعد رحيل زوجي فوجدت ابني الشاب قد أفلت زمامه خلال فترة غيابي وانحرف إلى سلوكيات غير سليمة، وإلى رفقة أصدقاء السوء وإلى الاستهتار وعدم تقدير المسئولية والعبث، إلى أن رسب في الثانوية العامة، فكان رسوبه ومعاملته لنا أكبر صدمة واجهتها بعد فقد رب الأسرة وعائلها، وكتبت لك رسالتي الماضية وأنا في أشد حالات التعاسة وشكوت لك همي ويأسي وضعفي أمام هذا الابن الذي أصبحت عاجزة عن السيطرة عليه، وقلت لك إننا قد تحملنا عامًا طويلًا

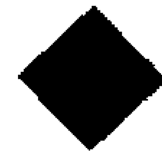
مـن التقشـف من أجـل توفير أجـر بعـض الـدروس الخصوصية له لكـي ينجح فـي الامتحان فأضاع تضحياتنا بالرسـوب، وسـألتك ماذا أصنـع معه وهل كنت أملك إلَّا أن اسـتجيب لنداء زوجي للبقاء معه؟ رغم ما ترتب على ذلك من بقاء أسـرتي وابنـي وهو في السـن الخطرة بلا إشـراف ولا رقابة، ومـع ما ترتب على ذلـك من انحرافه إلى سـلوكيات خاطئة. وهل كنت أسـتطيع أن أضحي بزوجي الطيـب رفيق العمر والكفاح لكيلا أترك أسـرتي وحدها؟ فرددت علي قائلًا لي: إننـي قـد أديت واجبي تجاه زوجي الراحل، وإنني لم أكن أملك إلَّا أن أؤدي هذا الواجب الإنسـاني معه، وخففت عنـي بكلماتك قدر طاقتك ثم دعوتني بعد أيام إلـى لقائك فذهبت إليك أنـا وابنتي، حيث فاجأتنا بما لـم أكن لأصدقه لولا أني عشـته بنفسـي.. فقلت لي: إن شـخصًا كريمًا قد اتصل بك وطلـب منك إبلاغنا بأنـه على اسـتعداد لتحمل أعباء نفقـات الدروس الخصوصية التـي يحتاج إليها ابني للنجاح في الثانوية، وإنه رغم مشاغله على استعداد لأن يعطي من وقته لهذا الابـن ما يهديه إلى الطريق المسـتقيم ويرشـده إلى الصواب، ثـم أعطيتني بطاقة لـه فذهبت إليه في مكتبه بالشـركة الكبرى التي يرأسـها، فدخلنـا إلى مكتبه نتعثر فـي الخجل والخوف، وقدمت البطاقة إلى سـكرتيرته فغابت دقائق في مكتبه ثم عادت ودعتنا للدخول.. فدخلنا على رجل فاضل «سـيماهم على وجوههم، من أثر السـجود» قام يرحب بنا كأننا من أقرب أقاربه وواسـانا وشد من أزرنا.. وأكد لنا أنه لن يتخلى عن هذا الابن حتى ينجح في الثانوية العامة، وطلب منا استدعاءه ليحادثه ويحثه على طاعة الأم وتحمل المسئولية والتزام السلوك القويم، ويبصره بواجباته بعد وفاة أبيه، وتم فعلًا ذلك وكان له أثر عميق في نفوسنا وفي نفس ابني الـذي لـم يكـن يصدق أن هناك مـن هو على اسـتعداد أن يعطي من نفسـه ووقته لمـن لا يعرفه.. خصوصًا إذا كانت له مشـغولياته الكبيرة مثل هذا الرجل النبيل.

وبعد ذلك قال له ولنا إنه سيتحمل جميع نفقات الدروس الخصوصية ولأحسن المدرسين، وأي أجر بشرط أن ينجح ابني وأن يقدر المسئولية. وشكرنا كثيرًا يا سيدي وانصرفنا، وبدأنا العام الدراسي وكلنا أمل. وكلنا خوف أيضًا من أن يخذلنا ابني أمام هذا الرجل النبيل، الذي أصدر تعليماته لسكرتيرته بأن تدفع للمدرسين كل ما يطلبونه فور اتصالنا بها، والحق إنني كنت أكثر خوفًا من الجميع وعشت شهورًا قلقة حائرة، لكن مضت السنة بحلوها ومرها. وتحسنت سلوكيات ابني إلى حد كبير، فأصبح أفضل كثيرًا في تعامله معنا، وأفضل كثيرًا من جهة أصدقاء السوء كما امتنع تمامًا عن تعاطي المكيفات التي أثارت فزعي وخوفي عليه، وقد تحقق كل ذلك كما قال لي حين رأى صورة من الحياة لم يكن يعرفها من قبل، ولأنه لم ينس أبدًا كلمات هذا الرجل الفاضل له، وجاء الامتحان وتحققت المعجزة ونجح ابني في الثانوية العامة، ولن تتصور مهما كتبت لك حجم فرحتنا وسعادتنا بنجاحه، ولا ماذا فعلنا وكم بكينا وكم ضحكنا حين علمنا بنبأ نجاحه. لقد أخذت أبنائي جميعًا معي وذهبت معهم إلى أبيهم في مستقره الأخير لنطمئنه إلى أن الدنيا بخير، ونطلب إليه أن يستريح لأن أسرته تواصل أداء رسالته والحمدلله.

وعدت من زيارة الأب الراحل لأتصل بسكرتيرة الرجل النبيل وأطلب إليها أن تزف إليه البشرى، بأن موقفه النبيل من أسرة ضعيفة فقدت عائلها لم يذهب سدى بل أنقذ شابًا من الضياع وأنقذ أسرة من التعاسة والخوف، ثم جلست لأكتب لك هذه الرسالة لتسعد معنا بما صنعت، لقد أقنعنا ابني بعد مجهود بأن يلتحق بمعهد لمدة سنتين بعد الثانوية العامة، الدراسة به داخلية ومتواصلة ليخرج إلى المجتمع رجلًا يعتمد على نفسه وهو معهد مستقبله مضمون لأنه

يضمن لخريجيه العمل، واكتملت فرحتنا بنجاح ابنتي الجامعية في دراستها وحُقَّ لنا أن نشكر كل من وقف إلى جانبنا، وكل من شد من أزرنا فماذا أقول يا سيدي عن هذا الرجل النبيل وكم من الكلام يفيه حقه.. وماذا أقول عنكم وكم من الكلام يفيكم حقكم؟

ماذا أقول يا سيدي ماذا أقول؟ ماذا أقول؟



ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

قولي يا سيدتي ما قلته أنا حين قرأت رسالتك.. الحمدلله مفرِّج الكروب وخالق «الأسباب» ومالك الملك ومن إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون!

لقد استرجعت حين قرأتُ رسالتك السعيدة هذه كلمات رسالتك الأولى الحزينة وسؤالك الملتاع: ماذا كنت أستطيع أن أفعل هل أتخلى عن زوجي وهو في أيامه الأخيرة لكيلا أغيب عن الاشراف عن أبنائي؟! فلعلك قد عرفت الآن يا سيدتي أن تضحيتك لم تذهب سدى، وأن استجابتك لنداء الواجب تجاه زوجك الراحل لم تكن بلا جزاء، فلقد ادخرت لك الحياة هذه التطورات السعيدة بعد العثرات السابقة.. وأية حياة تخلو من العثرات والصعاب، ومن الفشل ثم النجاح؟ لقد كان محتملًا لو تخليت عن رفيق حياتك في ضعفه ومرضه واحتياجه إليك، وتفرغت لأبنائك أن يحدث نفس ما حدث وأنت

غائبة عنه، لكنك كنت ستعانين طويلًا من عذاب الضمير ومن مرارة الاحساس بأنك قد تخليت عن شريك حياتك في أيامه الأخيرة، فلتقري عينًا إذن بما فعلت ولتشكري الله كثيرًا على ما تحقق، ولعل ابنك الشاب يدرك الآن أكثر من أي وقت مضى مسئولياته تجاهك وتجاه إخوته وتجاه الحياه، التي هيأت له من يقف إلى جواره ويشد من أزره، فيعرف أن الحياة مسئولية مشتركة بين الجميع، وأن الدنيا عطاء متبادل وأن عليه دينًا للحياة ينبغي أن يرده بأداء واجبه تجاه نفسه وأسرته وتجاه الآخرين بصفة عامة، وإني على ثقة من أنه سوف يحقق الآمال المعقودة عليه.

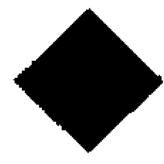
أما الرجل الذي أسهم بالقدر الأكبر في صنع هذه «المعجزة» الإنسانية فلعله أسعد من غيره بهذه الثمرة الرائعة لعطائه لهذه الأسرة، التي فقدت شراعها وكادت تعصف بها الأنواء، لولا أن أراد الله لها أن يجنبها المخاطر. وما أظنه في النهاية ينتظر منك ولا منِّي شكرًا على ما فعل، ولسوف تدهشين حين تعرفين أني لم أعرف بتفاصيل ما صنع بكم إلَّا من رسالتك أنت. فمن يعطي من نفسه للآخرين لا يقدم «حسابًا» لأحد من البشر، وإنما يتوجه بحسابه إلى «المحاسب الأكبر» جل شأنه سائلًا أيَّاه القبول.. فلنسأله معه وليتقبل الله من الجميع، مع تهنئتي لك باجتياز هذه العقبة الكئود وتمنياتي لأسرتك بحياة مستقرة سعيدة بإذن الله.

الخطة

أكتب إليك هذه الرسالة لعلي أجد لديك حلًّا لمشكلتي البسيطة، التي رغم بساطتها فإني أعانيها ليلًا ونهارًا، فأنا يا سيدي شاب نشأت في أسرة متدينة محافظة.. وعندما بلغت سن النضوج وجدت مَنْ حولي جميعًا بلا استثناء يحبونني حبًّا جمًّا سواء أكانوا من أهلي وأقاربي أم من زملائي في العمل أم أصدقائي في النادي.. بل ومن سكان الحي الذي أقيم فيه. ووجدت أن هذه نعمة من الله سبحانه وتعالى سعدت بها وفرحت جدًّا، فقررت أن أستزيد منها.. أي أن أستزيد من حب الناس لي فاتخذت لنفسي خطة هي أن أجاري كل إنسان متصل بي أو ممن أتعامل معهم فيما يقول أو يفعل استرضاء له.. وأنا أقف مع أي شخص يستشيرني في أي مشكلة ظالمًا كان أم مظلومًا.. وأن أؤيد كل إنسان في أي رأي يبديه أمامي طلبًا لإرضائه، وألَّا أخالف أي إنسان في أي رأي يبديه أو أي عمل يقوم به طالما هو معي. ومع مرور الأيام نجحت هذه السياسة إلى حد كبير ففزت بحب الناس وتقديرهم لي.. وأصبحت محبوبًا من الجميع.. مرحبًا به من الجميع وحمدت الله على ذلك.

لكني يا سيدي لاحظت بعد ذلك أن الصورة قد بدأت تتغير، وأن بعض أهلي وأصدقائي ومعارفي قد بدأوا ينفرون مني. وأن منهم من أساء فهم «خطتي» هذه

فأصبح منهم من يقول عني إني منافق.. ومنهم من يقول عني إنني «بوجهين» بل ومنهم أيضًا من قال إنني أستخدم هذا الأسلوب للوقيعة بين الناس، لكي يدب بينهم الخلاف وأصبح أنا الملاك الطاهر أمامهم، وبدأ معظمهم ينفرون مني ويقاطعونني، وأصبحت وكأن على صدري حجرًا ثقيلًا.. فهل أنا مخطئ يا سيدي في طريقتي هذه مع الناس أم على صواب؟



ولكاتب هذه الرسالة العجيبة أقول:

نعم أنت مخطئ يا صديقي في خطتك مع الناس ومع نفسك أيضًا.. لذلك فإن ما انتهت إليه علاقة الناس بك الآن من نفور ومقاطعة، هو النهاية الطبيعية لمثل هذه «الخطة»! فلماذا تسعى إلى إرضاء الجميع على حساب ما تؤمن به أنت وما تراه.. ولماذا تنصر كل من يستشيرك ظالمًا كان أم مظلومًا؟ وتجاري كل إنسان فيما يقول ويفعل؟ وأنت غير مؤمن بما يقول ولا بما يفعل، ثم مقابل أي شيء تفعل ذلك؟ الحصول على رضاء الآخرين، إن الإنسان لا ينال رضاء الآخرين واحترامهم بالتنازل عن شخصيته هو.. ومجاراتهم فيما يقولون ويفعلون خطأ كان أم صوابًا، وإنما ينال رضاءهم بقدر احترامه للحق ولنفسه وللآخرين وللقيم في معاملاته معهم.. وهو لا ينال احترامهم بمداهنته للجميع ومجاراتهم بالحق والباطل، ومهما فعل بسبب بسيط هو أنه لم يخلق بعد من البشر من نال رضاء «الجميع»

بالمعنى المطلق.. ولو كان هذا الهدف ممكنًا لحققه الأنبياء والرسل الذين جاءوا للبشر بالحق.. فلم ينالوا أبدًا رضا «الجميع» وإنما آمن بهم البعض وكفر بهم البعض الآخر وأذوهم، وهذه هي سنة الحياة. ثم كيف يستطيع إنسان أن يرضي «الكل» مع تشابك العلاقات الإنسانية وتعقدها بهذا الشكل، وإرضاء البعض يغضب بالضرورة البعض الآخر، الذين قد تتعارض مصالحهم أو مشاعرهم معهم.. ثم إن الإنسان يا صديقي لا يستطيع أن يعيش وهو في حالة «انتخابات» مستمرة، ويتعامل فيها مع الآخرين بنفسية المرشح الذي يطلب رضا الآخرين! فأمثال هؤلاء «المرشحين الدائمين» يغضبون الآخرين ويعقدون الأمور أكثر مما ييسرونها، لأن طلب تأييد الآخرين باستمرار يؤدي إلى إعطائهم ما ليس من حقهم، ولو كان شهادة في حقهم وتأييد مالا نؤمن به ولا نقتنع به، ولابد أن يجر ذلك إلى الافتئات على حقوق الآخرين.. فنخسر الناس.. ولا نكسب أنفسنا.. ولا يكسب الحق ولا العدل شيئًا.

يا صديقي كن نفسك بلا زيادة ولا نقصان، ولا تنطق إلَّا بما تؤمن به ولو أغضب الآخرين، ولا تؤيد ظالمًا طلبًا لرضاه لأنك بذلك تخسر من ظلمه وتخسر احترام غيرك وأولهم هنا الظالم نفسه، ولا تغالي في طلب محبة الآخرين بلا سند.. «فلقد قيل يومًا للإمام العادل عمر بن الخطاب إن الناس يخشونك ولا يحبونك.. فقال إنما يأسى على الحب النساء».

فقل كلمتك التي ترضي ضميرك.. وسوف يحبك غالبية من يتعاملون معك وهذا يكفي جدًّا.. فمن طبائع الأشياء أن يكون لك محبون.. وغير محبين..

وتذكر دائمًا أن البشر كالدنيا «ادبر عنها تقبل عليك» فهكذا البشر إذا غاليت في الإقبال عليهم بلا مبرر أدبروا عنك وزهدوك، وإذا اعتدلت في إقبالك عليهم

واحترمت نفسك معهم احترموك وبادلوك ودًا بود. فاصلب عمودك الفقري يا صديقي ولا تنحن لغير ربك مهما كانت الأسباب، وقل كلمة الحق دائمًا - اَغْضَبَ - تفز باحترامك لنفسك ورضاك عنها.. فإذا فعلت فلسوف تحظى غالبًا برضا معظم الآخرين واحترامهم لك والسلام.

دائرة الرعب

سيدي أكتب إليك والخوف يملأ قلبي، ولأبحث عن الطمأنينة والأمان في كلماتك لي. أنا سيدة عمري 17 عامًا رحلت أمي عن الدنيا، وأنا صغيرة وتزوج أبي من أمرأة بغيضة، وقاسيت معها الكثير خلال طفولتي، ثم رحل أبي أيضًا عن الدنيا منذ سنوات، وتركني لها وحيدة بلا سند ولا نصير ولا أقارب. ويعلم الله كم عانيت منها بعد وفاته، حتى زوجتني فور أن أكملت السادسة عشرة لأول طارق على الباب، وشكرت الله أن كان هذا الطارق شابًا وسيمًا عمره 25 سنة على خلق ومثقفًا وناجحًا في عمله ومقطوعًا من شجرة مثلي.

وخلال شهور كنت قد تزوجته وانتقلت إلى شقته الصغيرة، التي اعتبرتها بالنسبة لي جنة الأحلام. ولأني لم أعرف الحب قبله فلقد أحببت زوجي إلى درجة العبادة، وعشت معه أحلى أيام العمر وكان هو جذابًا ومرحًا ودائم الحركة والضحك. يخرج إلى عمله في الصباح ويعود بعد الظهر فيشاركني أعمال البيت.. ثم يصطحبني إلى الخروج في المساء لنمشي في الشوارع أو ندخل السينما.. ويقول لي دائما نحن بلا أهل.. فليكن كل منا هو أهل الآخر وأقاربه وأصدقاءه.. وأقول له إني بلا أب ولا أم ولا أقارب. وقد وجدت فيه أبي وأمي وأسرتي.

ومضت شهور الزواج الأولى سريعة كالأحلام السعيدة.. لكن قرب نهاية العام الأول من زواجنا صدمت زوجي سيارة أدت إلى إصابته بالشلل التام في ساقيه.. وتحول الشاب الذي كان يملأ البيت حياة وضحكًا وحركة إلى جليس دائم في البيت، ورغم شدة الفاجعة فقد تحملها بصبر وتجلد، ولم يفقد إيمانه ولا صبره، ولأننا لم نكن ندخر شيئًا للمستقبل، أو لم تمهلنا الحياة لكي ندخر شيئًا. فقد انخفض دخل زوجي إلى أقل من النصف، وكان من الضروري أن أخرج للبحث عن عمل نعيش منه أنا وزوجي. وبعد بحث قصير وجدت عملًا مناسبًا وبدأت أخرج أنا كل يوم في الصباح، وأذهب إلى عملي ثم أعود بعد الظهر حاملة كل حاجيات البيت والجرائد والمجلات التي يحبها زوجي. فأدخل إلى المطبخ ويقرأ هو الصحف حتى انتهي من إعداد الطعام، ثم نتناول غداءنا ونمضي الوقت في الحديث والتفرج على التليفزيون.. ثم نحتضن وحدتنا وعذابنا وننام راضيْين بما اختارته لنا الأقدار.

ومضت حياتنا هكذا عدة أسابيع ثم بدأت ألاحظ أن زوجي الوسيم الضاحك، قد بدأ يتحول إلى شخص آخر يثور لأتفه الأشياء ويعارض كل شيء ويفقد ابتسامته بلا سبب.

بدأت ألاحظ أيضًا أن نظرة الحب التي كانت تطل دائما من عينيه قد بدأت تتوارى، وتحل محلها نظرة ارتياب وضيق بلا مبرر، ولأني لا أجد وقتًا للقراءة فلقد كنت اشتري لزوجي الكتب التي يحبها، ويقرأ هو وأنا في العمل ثم يحكي لي ما قرأه في المساء ونتحدث، وذات مساء روى لي أنه قرأ قصة رائعة عن رجل تزوج من فتاة جميلة مثلك، وبعد زواجها أصيب في حادث سيارة أدى إلى بتر ساقيه، وخرجت زوجته للعمل وتعرفت على زميل لها في العمل وارتبطت به

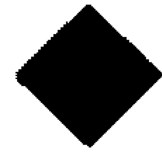
عاطفيًّا، وعرف زوجها ذلك بطريق المصادفة لكنه أخفى عنها الأمر.. ثم خنقها وهي نائمة بجواره في الفراش وانتحر بعدها!

سمعت هذه القصة منه.. ولم التفت إليها في البداية.. لكني تذكرتها فجأة بعدها بأيام حين كنا جالسيْن في المساء، نتحدث في بعض الأمور فقال لي فجأة يبدو أني سأخنقك أنا أيضًا في يوم من الأيام؛ واندهشت وسألته لماذا تقول لي ذلك؟ فضحك ضحكة غريبة وسكت. وحاولت جاهدة أن أخفي اضطرابي وخوفي بلا فائدة، ثم حدث بعد ذلك بأسبوعين أن كنت في المطبخ أؤدي عملًا وهو يجلس في الفراش أمام التليفزيون، فقال لي تعالي اجلسي بجانبي.. فذهبت وجلست إلى جواره فراح ينظر إلى رقبتي طويلًا.. ثم قال لي إن شكل عنقي هكذا لا يعجبه! ثم مد ذراعيه ولفهما حول عنقي وهو بالمناسبة له ذراعان فولاذيتان كأن الله سبحانه وتعالى قد عوضه عن عجز ساقيه بقوة ذراعيه، وتذكرت فجأة وهو يلف ذراعيه حول رقبتي، القصة التي حكاها لي وجمد الدم في عروقي وتوقعت أن يضغط عليها بذراعيه القويتين.. واستسلمت لمصيري.. فلم أفكر في أن أصرخ أو أحتج، فإذا به يتحسس عنقي بحنان ثم يبتسم ويخرج من تحت الوسادة سلسلة ذهبية ألبسني إياها وهو يقول لي إن شكل عنقي هكذا سيكون أفضل!

وتنفست الصعداء.. ومكثت أنظر إليه في صمت وبلا حراك.. فسألني هل أنت خائفة؟ إن الخنق لا تستحقه إلَّا الخائنات فهل أنت خائنة؟ ثم ضحك ضحكته المريرة الجديدة عليَّ وعلى زوجي الذي أحبه. وانتهت هذه اللحظة المرعبة..لكن الخوف لم يفارقني بعدها..فهو لا يكف عن تذكيري بعقاب الخائنات، وعندما يرى الرعب يرتسم على وجهي يسألني السؤال الغريب

نفسه: لماذا تخافين.. هل أنت خائنة؟ ومع ذلك فأنا أحبه ولا أحاول أن أتكلم أو أدافع عن نفسي لكيلا يقول لي لماذا تدافعين عن نفسك وأنا لم أتهمك بشيء؟ وبالتالي يثبت عليَّ التهمة الظالمة!

إنني حامل الآن يا سيدي وقد زاد ذلك من تمسك زوجي بي، لكن الخوف يملأ قلبي وأنام بجواره وأنا خائفة من أن يضغط على رقبتي بذراعيه القويتين وينهي حياتي. إنني أرجوك أن تنقذ زوجة ترتعد خوفًا من زوجها الذي تحبه.. وتشير عليها بما تفعل لكي تعيد ثقة زوجها فيها.. ولكي تدافع عن نفسها ضد شكوكه فيها.. إني أكتب إليك وأنا أعرف أن زوجي سوف يحاول خنقي قريبًا جدًّا فأخبرني بسرعة ماذا أفعل يا سيدي؟



ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

هدِّئي من روعك يا سيدتي فالأمر لا يعدو صراعًا نفسيًا يتأجج داخله بين حبه لكِ وخوفه من أن يفقدك، وبين هواجسه التي تصور له أن من كانت في مثل ظروفك قد تضعف وقد تضل الطريق، لذلك فهو يعمد إلى ترويعك من مصير الخائنات، لكي يبعد عنك هذا الشبح الذي يؤرقه وهو مخطىء في ذلك بغير شك، لكن له من ظروفه الأليمة ما يدعوك إلى الصبر وتفهم الأسباب والدوافع.

فهو يخيفك لكنه أكثر منك خوفًا.. وخوفه كله هو أن يفقدك ويفقد معك الحب والأمان والكرامة، وزوجك قد اهتزت ثقته في نفسه قبل أن تهتز ثقته فيك، والرجال يغارون يا سيدتي حين يفقدون ثقتهم في أنفسهم، وفي لياقتهم لمن يحبون. وهم قد يغارون أحيانًا بلا سبب، لأن الغيرة على حد تعبير شكسبير في عطيل «وحش يلد نفسه بنفسه ولا يحتاج إلى معين!»

لذلك فلا حل لمشكلتكما إلَّا بأن يستعيد زوجك ثقته الكاملة في نفسه وفي جدارته بحبك وإخلاصك، والأمر كله بين يديك يا سيدتي، فأنت تستطيعين بسلوكك الأمين معه أن تقنعيه بأن حبك له لم يتأثر بما شهدته حياتكما من تطورات مؤلمة، وبأن الزوجة المحبة لا تضل الطريق أبدًا مهما اعترضت حياتها معوقات طارئة يمكن أن تقع في أي وقت، ولأي طرف من طرفي العلاقة الزوجية، لأن الزواج شركة كاملة في مباهج الحياة وفي آلامها، وليس رحلة سياحية تنتهي بانتهاء مسراتها فقط، فإذا كانت الحياة قد امتحنتكما بهذه المحنة فالأحرى أن تكون دافعًا قويًا لأن يتمسك كل منكما بالآخر ويحتمي به من وحدته وآلامه، لا أن تخسرا بسببها ما تبقى لكما من أسباب الحب والسعادة، وكل ذلك لن يتحقق بصمتك والاكتفاء بمعايشة الرعب كل ليلة، وبتجاهلك الأمر خوفًا من أن يثبت دفاعك عن نفسك الشكوك الظالمة.. لا يا سيدتي لابد من المواجهة الصريحة للمشكلة معه، ولابد بعدها من أن يترجم سلوكك معه كل هذه المعاني التي تهدِّىء خواطره وتقتل هواجسه.

فقولي له كل ذلك يا سيدتي وسوف تجدينه أكثر تلهفًا منك على تصديقك، وساعديه في محنته على استعادة ثقته في نفسه وفي حبك له، وفي تمسكك به وسوف تشعرين بعدها أن ذراعه القوية إنما تلتف حول عنقك لكي تتشبث بك لا لكي تخنق فيك الحب والأمان كما تتصورين.

أما إذا استمرت الهواجس واستمر شبح الرعب يخيم على عشكما الصغير إلى مالا نهاية، فلا مفر في هذه الحالة من أن يشق كل منكما طريقه بعيدًا عن الآخر، وإن كانت ثمرة الحب القادمة تطالبك بالمزيد من الصبر والمزيد من الجهد لاستعادة الأمان المفقود.

صوت الصمت

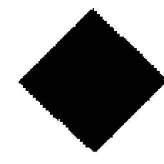
أكتب إليك هذه الرسالة لأعرض عليك مشكلة وأطلب منك أمرًا.

فأنا سيدة أقيم في ضاحية المعادي منذ فترة طويلة، وقد عشت حياة هادئة مع أسرتي الصغيرة المكونة من زوجي وابني الوحيد، ومضت سفينة الحياة بنا بلا عواصف ولا أعاصير، يجمعنا الحب والوفاء والاحترام. ونتبادل الاهتمام كل منا بالآخر، ويسأل كل منا صاحبه في الصباح هل نمت جيِّدًا؟ وتجمعنا مائدة الإفطار مع فنجان الشاي وصحيفة الصباح، نقرأ أخبار الدنيا ونتبادل التعليقات، ثم يخرج ابني إلى عمله وزوجي إلى ناديه ليلتقي بأصحابه ومعارفه، ثم تجمعنا مائدة العشاء معًا نحن الثلاثة مهما كانت مشاغل ابني، تربطنا بالجيران والناس علاقات ود واحترام على البعد، نكره المشاكل ونبتعد عنها، ولو تنازلنا عن بعض حقوقنا، وفي العام الماضي وصلت رحلة الحياة إلى غايتها المحتومة بالنسبة لزوجي العزيز فرحل عنَّا إلى العالم الآخر وتركني مع ابني وحدنا.. فتقبلنا قضاء الله وقدره برضى واستسلام، وواصلنا حياتنا، وزاد ابني من الوقت الذي يقضيه معي بعد أن أصبحت وحيدة، فأصبح يحرص على ألَّا يتركني وحدي ساعات طويلة، وأصبح يحرص على أن يتناول معي طعام الغداء كل يوم. وأن يصاحبني في تنقلاتي..

ويدعوني للخروج للمشي معه في شوارع الضاحية لكيلا استسلم للحزن وانعدام الحركة، وكان ابني من المتفوقين دائمًا في دراستهم، أمضي سنوات الدراسة كلها وترتيبه الأول، ولم أشعر طوالها بعذاب الأمهات مع أبنائهن في التعليم.. ولم أقل له يومًا ذاكر دروسك بل لعلي كنت أطلب منه أحيانًا ألَّا يرهق نفسه بالاستذكار كثيرًا، وبأن يروِّح عن نفسه قليلًا حتى لا يمل الدراسة والاستذكار، واستمر هكذا إلى أن أنهى دراسته العالية وحصل على وظيفة مرموقة مارسها بإخلاص وضمير، وكان يمتعنا بالحديث عما يصادفه فيها من أحداث وأمور فنسمع له معجبين ونوصيه - وهو لا يحتاج إلى توصية - بأن يرعى الله وضميره في عمله.. فيؤكد لنا ذلك. ونصدقه لأنه ممن غرست الرحمة في قلوبهم، وليس أدل على ذلك من عطفه عليَّ بعد رحيل أبيه وارتباطه بي بعده.

ومنذ ثلاثة شهور فقط يا سيدي اختار الله إلى جواره ابني الوحيد هذا وهو في الثلاثين من عمره، وبلا مرض أو مقدمات، فرحل عنِّي فجأة بعد أن رحل عنِّي أبوه قبله بشهور. ووجدت نفسي وحيدة وسط الظلام والفراغ والصمت، تمضي أيامي بطيئة حزينة صامتة، فأعجب كيف تتغير الدنيا هكذا من النقيض إلى النقيض خلال بضعة شهور.. أخطو في كل مكان في مسكني فأجد أثرًا من آثاره.. وأتذكر شيئًا يتعلق به وأكاد أسمع صوته الحنون يكلمني وأكلمه.. وأصبحت حياتي خاوية من كل شيء بعده.. فلقد كان «طعامي وشرابي وغذائي وكسائي وسعدي ووعدي، وعسلي وشهدي، وحربي وسلامي وبرئي وشقائي وفرحي وآلامي وفرشي وغطائي وصمتي وكلامي ونوري وضيائي ولقائي وفراقي وسفوري وحجابي وصفوي وكدري ونجمي وقمري وشمسي وكوكبي وكبدي ومهجتي وعيني ولساني وحركتي وسكوني وصلاتي وخشوعي وهنائي ودموعي وبهجتي وقلقي وصعودي ونومي ويومي وغدي وأرضي وسمائي وغرامي وهيامي».

لقد كان كل شيء في حياتي يا سيدي بعد رحيل أبيه، ثم شاءت الأقدار أن تفرق بيننا.. ولقد كتبت لك هذه الرسالة لأطلب منك أمرًا لعلك تستطيعه.. ولعلي أجد فيه بعض العزاء عما أعانيه من وحدة والآم، فأنا إحدى قارئات بابك، وقد كتبت إليك لأسألك عما إذا كنت تستطيع أن تجد لي من بين قارئاتك من ذوات الحاجة من تقبل أن تقيم معي في مسكني الخالي.. إنني واثقة من أنك لن تتردد في إجابة هذا الطلب لو استطعت، مع العلم بأني لا أضع أية شروط سوى أن تكون على خلق طيب وألَّا تكون مرتبطة أو على علاقة بأحد.. فهل تفعل؟



ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

نعم أفعل يا سيدتي وكلي أسى وأسف لما شهدته حياتك الهادئة من تطورات مؤلمة، إن بعض الأحزان لا تجدي معها أحيانًا كلمات العزاء، ومنها.. حزنك النبيل هذا الذي يعتصرك الآن وينطلق قلمك بهذه الكلمات البليغة المريرة عن ابنك العزيز الراحل، وبعض الآلام قد تنطق الإنسان من شدتها شعرًا ونثرًا وما هو بشاعر ولا ناثر، لذلك فمهما قلت لك يا سيدتي فلن ترقى كلماتي إلى مستوى أحزانك، ولعل الصمت أجدى تعبيرًا عن الأسى والمشاركة في مثل هذه الحال من الكلام.

لقد تذكرت بالرغم من أنك لم توقعي رسالتك باسمك.. وتذكرت أنك لست فقط إحدى قارئات هذا الباب، وإنما أنت أيضًا إحدى المساهمات في التخفيف

عن آلام الآخرين بالمشاركة الإنسانية وبالفعل، وتذكرت أنك كثيرًا ما اتصلت بي تليفونيًّا تطلبين معاونة بعض أصحاب الحالات التي قرأت عنها في هذا الباب.. وربما غلبك التأثر أحيانًا بظروفهم فبكيت وأنت تعرضين عليَّ معاونتهم. ولعلكم يا سيدتي كنتم تتداولون في أمرهم وتقررون مساعدتهم وأنتم تقرأون صحيفة الصباح وتتبادلون الآراء والتعليقات على مائدة الإفطار في الأيام الخالية.

لذلك فإن الرحمة لم تنشأ في قلب ابنك العزيز الراحل من فراغ.. وإنما غرست فيه وتعمقت في هذا الجو الأسري الذي ساده الحب والتعاطف والتراحم بينكم خلال رحلة الحياة، لكن ماذا نفعل يا سيدتي إزاء حقائق الحياة المؤلمة التي لا حيلة لنا فيها.. ولا مهرب منها؟ لا شيء نملكه سوى مواصلة الحياة والتجلد.. والاستعانة بالصبر والصلاة ومحاولة نسيان التجارب الأليمة والمشاركة في النشاطات الاجتماعية بقدر الإمكان، عسى أن تشغلنا عما نحسه ونعانيه، أما مطلبك فسوف أبذل كل جهدي لتلبيته خلال أيام، وسوف أختار لك من أثق في خلقها ودينها وأرشحها لك لتكون رفيقة درب لك تخفف عنك بعض ما تحسينه من وحشة وفراغ، وأرجو أن يوفقني الله في ذلك والسلام.

السر القديم

لو لم أستشعر الصدق في كلمات هذه الرسالة لظننت أن كاتبها من هواة مشاهدة الأفلام المصرية القديمة، وأنه استوحى رسالته من إحدى هذه المليودرامات الشعبية التي قدمتها السينما منذ عشرات السنين فماذا تقول رسالته؟

يقول كاتب الرسالة: اعذرني يا سيدي في أنني لن أروي لك تفاصيل كثيرة عن حياتنا، لكي لا أحرج بعض الاعزاء الذين ستعرف مكانهم من خلال قراءة هذه الرسالة.. لذلك فقد تبدو بعض أجزائها مبهمة، وغير منطقية لكنها صادقة بالرغم من ذلك، أنا طالب في الثانوية العامة انتظر إعلان النتيجة بين لحظة وأخرى، وأبي موظف كبير وأمي سيدة طيبة متفرغة لبيتها وأنا ابنهما الوحيد، منذ طفولتي نشأت في جو أسري هادىء خال من المشاكل تحترم فيه أمي أبي ويحرص أبي على مشاعر أمي.. وتتركز اهتماماتهما معًا حولي أنا، فهما يوفران لي ما أحتاجه في حدود إمكاناتهما ويحرصان دائما على تنشئتي تنشئة خلقية كريمة.. ومنذ بدأت أعي الأشياء أدركت أن أبي من هؤلاء الآباء الذين يحرصون على قضاء معظم أوقات فراغهم في البيت مع أسرهم وأنه لا يكاد يغادره إلّا للعمل.. وأن سعادته وراحته في الجلوس بيننا ومتابعة ألعابي ولهوي عن قرب.. وطوال سنوات التعليم لم ألحظ في حياتنا شيئًا

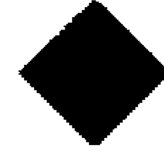
غير عادي.. وإن كان هناك شيء قد شكوت منه فلربما كان أني كثيرًا ما تمنيت لو كان لي شقيق أو شقيقة أو كلاهما معًا لألعب معهما وأتبادل معهما الحب والعطف، فلقد كنت أنظر بشيء من غيرة الأطفال لجيراني الصغار الذين يحكون لي الحكايات عن إخوتهم.. حتى ولو كانت من قبيل المشاجرات بينهم.. لكن الدنيا مع ذلك كانت جميلة بالنسبة لي.. وافتقاد الشقيق أو الشقيقة كنت أعوضه بصداقة الأطفال الذين يسكنون معي في العمارة نفسها.

ومضت سنوات الدراسة إلى أن وصلت إلى الثانوية العامة، أو إلى الشبح المخيف الذي يرهب الآباء والأمهات.. فاستعدت أسرتي لمواجهته بتجديد غرفتي وتزويدها بمكتب جديد ومائدة صغيرة عليها أدوات إعداد الشاي والقهوة، لكي أتفرغ تمامًا للاستذكار ولا أحتاج إلى الذهاب إلى المطبخ، لطلب الشاي. ورأى والدي في بداية السنة أن ألتحق بأحد فصول التقوية فالتحقت بفصل ملحق بأحد المساجد لمضاعفة الاستعداد للامتحان، وكان هذا المسجد بعيدًا عن حينا، وأحتاج إلى ركوب الأتوبيس للوصول إليه، وقد دلَّني عليه أحد زملائي فأخبرت أبي عنه فوافق وأعطاني الرسوم لأدفعها، وذهبت لتسجيل اسمي ودفع الرسوم، فلاحظت في الكشف المعلق الذي يضم أسماء الطلبة والطالبات الملتحقين بالفصل، أن هناك اسمًا مشابهًا لاسمي.. بل مماثلًا لاسمي مع اختلاف الاسم الأول فقط وهو اسم فتاة، فعجبت لهذا التشابه العجيب، واعتزمت أن أتعرف على هذه الفتاة لكي أداعبها بأن اسمينا متماثلان، وسعيت للتعرف إليها فعلًا، فما إن رأيتها حتى أحسست تجاهها إحساسًا عجيبًا لم أستطع حتى الآن أن أفسره.

فلقد أحسست بأني أعرفها منذ زمن طويل، وأني لست غريبًا عنها ولا هي غريبة عني، فتحدثت معها بألفة وتلقائية عجيبة كأنها صديقة قديمة وحين صارحتها

بذلك وبأني خجول ولا أستطيع أن أحادث فتاة بسهولة وأني أعجب من انطلاق لساني معها.. فاجأتني بأنها تحس هذا الإحساس العجيب نفسه وأنها وجدت نفسها مرحبة بالحديث معي مع أنها تنفر من الغرباء ولا تتحدث مع من لا تعرفه، فسألتها عن اسمها بالكامل فردت علي بما عرفته من قراءة اسمها في الكشف، فسألتها عن أبيها ووظيفته فأجابت بما زلزل كياني فلقد نطقت باسم ووظيفة أبي! نعم أبي هو بلحمه وشحمه ووظيفته واسم بلدته وأسماء أقاربه أي أقاربي.. إذن فأنا أمام أختي التي لا أعرفها ولم أتصور وجودها.. بل أنا أمام سر عائلي رهيب استمر عشرين سنة في طي الكتمان، ولا تتصور ما حدث لي ساعتها.. فلقد صرخت من الفرحة، نعم من الفرحة والسعادة.. فلقد أصبحت لي أخت.. وإن كنت لا أعرف كيف حدث ذلك.. وبين الضحكات والدموع والانفعالات تعارفنا وحكيت لها كل شيء عن حياتنا وحكت لي قصتها.. وعرفت منها أنها تكبرني بسنة.. وأن أبي انفصل عن أمها بعد زواج لم يستمر عامين ولم يوفقا فيه، وأنه تزوج بعدها من أمي وإن كانت صلته بها لم تنقطع، فهو يؤدي حقوقها كاملة ويزورها في مواعيد ثابتة، وأن أمها لم تتزوج بعده وتفرغت لتربيتها.. ولم تزعجه بعد الانفصال بأي مشكلة، وعجبت لأبي هذا الهادئ الرزين الذي لا يكاد يغادر بيته، لماذا أخفى عنِّي هذا السر ولماذا حرمني من أختي وهو يرى لهفتي على الأطفال الآخرين؟ لكني لم أغضب منه بل لعلي أحببته أكثر لأنه أنجب لي أختًا عوضتني عن وحدتي.. وزادت سعادتي وأصبحت ألتقي بأختي وأخرج معها بعد الفصل، وأوصلها إلى قرب منزلها وأعود سعيدًا لكن سعادتي للأسف لم تستمر طويلًا.. لأن أختي الحبيبة صارت كلما التقينا في الفصل تثير هذه المشكلة معي، أي مشكلة انفصال أمها عن أبي وتطالبني بمساعدتها في إيجاد حل لها.. وهي تتهمني بأني متبلد الشعور لأني لا أشاركها في إيجاد هذا الحل.. فكيف أجد هذا الحل؟ بل كيف أجد سبيلًا

لرؤيتها بعد أن انتهت الدراسة وتوقف فصل التقوية ولم يعد هناك مبرر للالتقاء بها.. إلَّا لو تقابلنا في كازينو أو على شاطئ النيل كما يفعل المحبون فأسيء بذلك إلى سمعتها وهو ما لا أريده. إنني أرجوك أن تدلني على حل لهذه المشكلة يرضي الطرفين أي أنا وأختي فهل تستطيع؟



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

إن الحل العاجل المطلوب الآن هو أن تصارح أباك باطلاعك على هذا السر القديم، وأن تعتب عليه في رفق أن حرمك من أختك الوحيدة في الحياة، وأن تصف له فرحتك الغامرة باكتشافها.. وأن تطلب منه أن يعلن هذا السر القديم لأنه ليس فيه ما يشين.. فما أكثر من تعثرت حياتهم الزوجية الأولى ثم وفِّقوا في زواجهم الثاني، وكان من زواجهم الأول أبناء وبنات، ثم أنه لا مجال الآن للحساب فلقد أهال الزمن تراب النسيان على ما جرى منذ عشرين سنة.. ولم يعد مهمًّا الآن أن نعرف من كان المخطىء ومن المصيب.. وإنما المهم هو أن نتعامل مع الواقع كما هو الآن.. وألَّا يحرمك من هذه الصلة الإنسانية الحميمة.. فمن له أخت يا سيدي حظه أفضل في الحياة ممن ليست له أخت.. ومن له أخت محبة ترعى حقوقه وتهتم بأمره، حظه في الحياة أفضل ممن ليست له مثل هذه الأخت، والشيء نفسه بل ويزيد بالنسبة لأختك، وهي ابنته فوجود أخ لها مثلك هو سند لها في الحياة تستند إليه وتعتمد عليه وليس من العدل أن يحرمها من هذه الميزة، وهو مطالب الآن وبصفة عاجلة بأن يقدمك لأمها، وأن يجمع بينكما وأن يسمح لك بالتردد عليها ولها بالتردد عليك، وأن يفخر بكما معًا وأن يقرِّ بكما علنًا.. بعد أن أجرم في حقكما

معًا بالفصل بينكما وإخفاء أمر كل منكما عن الاخر كأنه جريمة.. وليس هبة من السماء يسعد بها ويفخر بها.

أما حل المشكلة الكبيرة الذي تطالبك به أختك، فهو ليس في يدك ولا حيلة لك فيه ولا تملكه.. وإنما يملكه أبوك الذي أُشْفق عليه في موقفه الصعب هذا، فليس من السهل أن يعرض حياته العائلية الهادئة منذ عشرين سنة لمثل هذا الزلزال، وليس من السهل لوالدتك أن تقبل مثل هذا الذي تطالب به أختك، حتى لو كان الحل الوحيد الذي يحقق العدل في مثل هذه الظروف، لكن أختك لها بعض العذر في نظرتها إلى الأمر هكذا، لأنها تعيش المشكلة منذ طفولتها ولا يعرف مرارة التجربة إلَّا من اكتوى بها، كما أن ظهورك في حياتها وإن كان بالنسبة لك مجرد حدث سعيد حقق أحلامك، فإنه بالنسبة لها قد جدد أحزانها وإحساسها بالمشكلة التي تعيشها وأملها في إمكان الجمع بين أبيها وأمها، وهو حلم مشروع من جانبها لكنه صعب التحقيق، ولو أنصفت أختك لتجنبت إثارة هذه المشكلة الراكدة لأن إثارتها تنذر بالمتاعب ولا تقدم حلًّا لها، ولا ستسلمت لأقدارها التي اختارت لها هذه الحياة، وكفت عن محاولة تغييرها.. ولسعدت.. سعادة خالصة باكتشافك ولنعمت بهذه السعادة، وأمَّلت في أن تجد فيك عوضًا لها عما حرمت منه، وعونًا لها في الحياة يهتم بأمرها ويُعْنَي بها.. ولا يبقى بعد ذلك سوى أن تضغط أنت على أبيك لكي يزيد من رعايته لها ومن عطفه عليها ومن اهتمامه بها، فلعل في ذلك ما يخفف عنها بعض ما تعانيه.. ولعل حظكما في الحياة والزواج يكون أكثر توفيقًا من حظ أبيكما العاثر، لكي لا تعرِّضا أبناءكما بإذن الله لمثل هذه المفاجأة الغريبة التي هزت كيانكما وأنتما في سن الشباب.

الشريدة

أنا يا سيدي طبيب شاب تخرجت منذ عشر سنوات تقريبًا، وخلال فترة الامتياز تعرفت بسيدة جميلة متدينة كانت مطلقة وتكبرني بسبع سنوات، ولديها بنت كانت وقتها في الخامسة عشرة، وعرفت قصة زواجها وطلاقها، وعرفت أن زواجها لم يستمر سوى ثلاثة شهور، وأنها تزوجت وعمرها 16 سنة ولم ينجح الزواج فانفصلت وتفرغت لتربية طفلتها ورفضت الزواج حتى كبرت الطفلة، واقتنعت بكل هذه الظروف وأحببتها وأحبتني وتزوجتها رغم معارضة أهلي، لكني تمسكت بها فتنازلوا عن معارضتهم وباركوا زواجي منها، ومضت بنا الحياة كأي زوجين بحلوها ومرها.. وكان حلوها أكثر. لأن زوجتي كانت دائمًا حريصة عليَّ.

وانتهت فترة الامتياز وعينت في إحدى الوحدات الصحية في الصعيد، وسافرت معي زوجتي وبقيت ابنتها مع جدتها لأمها ترعاها. ولم نقصر نحن في حقوقها.. بل ولم تطل إقامة زوجتي معي في الصعيد، فلقد عادت إلى الاسكندرية لتشرف على إعداد شقة الزوجية التي وفقنا الله في الحصول عليها بعد عامين من العمل في الوحدة، وفي عيادة صغيرة افتتحتها في البلدة نفسها، وكنت قد رزقت بطفل وطفلة تركتهما مع زوجتي في الإسكندرية واعتدت أن أسافر إليهم كل شهر لمدة

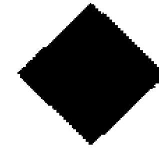
4 أو 5 أيام وخلال ذلك لم ننس ابنة زوجتي بالهدايا والنقود وبالحنان، فلقد كانت موضع حنان جدتها وأمها وأنا أيضًا حين أعود إليهم، لكنها شردت يا سيدي وبدأت تثير المشاكل كل حين، فلقد تمردت على جدتها وأمها وانفلت عيارها.. وأصبحت تريد أن تخرج وتدخل بلا حساب ولا سؤال ولا رقابة.. وأصبحت تسهر في الخارج وتعود متأخرة، وتثور إذا حاسبها أحد.. ثم جاءت الطامة الكبرى حين تركت البيت كله لعدة أيام ثم عادت فكان الشجار والعراك والبكاء.. وكل ذلك وزوجتي تكتم عنيِّ هذه المشاكل والكوارث وتبكي، حتى كانت إجازة من إجازاتي الطويلة أمضيتها بينهم.. فسمعت أصوات شجار بينهم عرفت منه حقيقة المأساة وسمعت شتائم وأسرارًا مخجلة.. وأدركت هول الكارثة التي أعرض لها طفليَّ بتركهما بعيدين عني وسط هذا الجو.. وبالقرب من هذه الأبنة الشاردة.. وناقشت زوجتي فيما سمعت فبكت.. وقالت لي ماذا أصنع.. وأبوها يرفض ضمها إليه خوفًا منها على أبنائه الصغار من زوجته الجديدة.. وأنا وحيدة في غيابك، والبنت قد أفلت عيارها وأحاول بكل جهدي إصلاحها، فماذا أفعل؟

وحاولت التدخل لإصلاح شأنها فلم يرق لزوجتي تدخلي كما أن البنت تسمع للنصح لكنها لا تتأثر به.

ووجدت نفسي حائرًا أمام المشكلة فأنا أستعد لدخول امتحان الماجستير ولا أستطيع أن أترك طفلي يريان هذا المثل السيئ أمامهما ويتأثران بهذه القيم.. وأفكر أحيانًا في إغلاق عيادتي بالصعيد وافتتاح عيادة في الاسكندرية لأعيش معهما ولا أتركهما لهذا الجو.. لكن الاسكندرية ممتلئة بعيادات الأطباء القدامى.. ولا مكان فيها لطبيب ناشيء مثلي، وأفكر أحيانًا في الانفصال عن زوجتي لكني أخشى أن أعرض أولادي لمثل ما حدث لهذه الفتاة.. وأنا حائر وقد بدأ الشك يتسرب إلى

نفسي تجاه الجميع.. وأخاف على سمعتي وأخاف ربي لو ظلمت زوجتي التي ترفض طريق هذه الابنة الشاردة.. وتبكي ليل نهار وتسألني ماذا أفعل..

إنني لم أجرؤ على استشارة أبي أو أصدقائي في مشكلتي هذه.. لذلك كتبت إليك أسألك هل أطلق زوجتي.. أم أترك الأمور كما هي وأنتظر ما ستأتي به الأيام؟ مع العلم بأني لا أريد أن أظلم نفسي أو أظلم زوجتي أو أظلم هذه الفتاة التي ظلمت نفسها فماذا أفعل؟



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

يا سيدي لقد لمست بنفسك أثار تمزق الأبناء بين الأب والأم.. فكيف تفكر في أن تكرر الجريمة في أبنائك؟ إن هناك طريقًا آخر للتصرف في مشكلتك.. هو أن تضم أسرتك الصغيرة إليك سواء في مقر عملك في الصعيد أو في مقر سكنك بالاسكندرية، ليكون طفلاك تحت رعايتك المباشرة وتجنبهما أية مؤثرات سلبية تخشى عليهما منها.. فإذا تعذرت عليك الإقامة في الصعيد.. فلا مفر من التضحية بعيادتك هناك والانتقال إلى الإسكندرية والكفاح لكي تجد لنفسك موطئ قدم بين أطبائها الكبار.. ولا بأس بالمعاناة والصبر في بداية الطريق لأن الهدف كبير ويستحق المعاناة من أجله، وهو إنقاذ أسرتك وطفليك من التمزق.. وحين يحدث ذلك ينبغي عليك أن تتحمل مسئوليتك الكاملة عن أسرتك وعن هذه الابنة الشريدة أيضًا، ولابد لزوجتك من أن تمكنك من محاولة إصلاحها

وإنقاذها من الضياع.. لأنها في كفالتك.. ولأنها أيضًا أخت ابنيك وما يخدش ثوبها يمس طفليك.. ولأنه أيضًا لابد لأحد من أن يتحمل المسئولية عنها ما دام أبوها اللاهي بأسرته وأطفاله يتنصل من هذه المسئولية.. وهي رغم جريمتها ضحية في النهاية لتمزق أسرة.. ولتخلي أب عن واجبه في ضمها إليه ورعايتها في هذه السن الحرجة، فإذا لم تستجب لمحاولاتك معها.. يصبح من حقك إبعادها عن طفليك وضمها لجدتها، على أن تستمر في جهودك لإصلاحها وإذا جاز لي أن أطالب زوجتك بشيء فهو بأن تمكنك من أداء هذا الدور الإنساني المطلوب..وأن تشتد في رقابتها أكثر ومهما كانت النتائج.. وأن تسعى جاهدة لتزويجها قبل أن تبحر أكثر في بحر الضياع.. وليس عليك في النهاية إلَّا النصح والنصيحة لأنك لا تهدي من أحببت لكن الله يهدي من يشاء.

أما زوجتك فقد أحسنت معاشرتك وحفظت لك ودَّك.. وهي أكثر الناس تعاسة بما آلت إليه حال ابنتها، فلا تضاعف تعاستها بالتخلِّي عنها في هذه المحنة القاسية.. ولا تعالج الخطأ بخطأ أكبر.. ولا تعاقبها بجريمة ابنتها الشريدة!

تقاطع طريق

أكتب إليك بعد أن قرأت مرارًا رسائل الآخرين إلى بابك وعايشت همومهم، ولم أتصور أني سأكون ذات يوم «رسالة» من هذه الرسائل.. لكن الحياة متغيرة دائمًا يا سيدي والليالي كما تقول أحيانًا في تعليقاتك «حبالى يلدن كل جديد»، وهذا صحيح وقد عشته بنفسي، فأنا شاب في السادسة والثلاثين نشأت في بيئة متدينة، وجدت مَنْ حولي يصلون ويصومون ويذكرون الله كثيرًا فصليت وأنا في سن السادسة، وحافظت على ذلك حتى الآن، والتزمت طوال حياتي بالقيم الدينية والأخلاقية.. وأمضيت سنوات الجامعة كلها بلا أية نزوة، ولم يكن شكلي منفرًا بل كنت وما زلت مقبول الشكل إلى حد كبير، وشخصيتي اجتماعية مقبولة وظروفي الأسرية طيبة، فأبي أستاذ غير متفرغ في إحدى الجامعات الإقليمية، وأمي ربة بيت فاضلة من أسرة طيبة، وقد كانت مشكلتي وأنا طالب في المدرسة الثانوية، وفي الجامعة هي كيف أتفادى محاولات بعض الفتيات «معاكستي» بغير أن أجرح شعورهن.. ولا تضحك مِّني لذلك أو تتصورني مغرورًا فوالله هذا ما كان يحدث، وقد كنت أرفض الاستجابة لأي نداء لأني جاد ومتدين في أعماقي وأرفض العبث، وقد حزمت أمري على ألَّا أعرف فتاة إلَّا إذا نويت

الارتباط بها. وتخرجت في الجامعة ووفقني الله إلى العمل في هيئة محترمة براتب طيب وحافظت على سيرتي في العمل بالطريقة نفسها التي التزمت بها في الجامعة، إلى أن جاء يوم كنت أجلس فيه في شرفة مسكني بالدور الأول من عمارة بأحد أحياء القاهرة أقرأ صحيفة الصباح، حين انتبهت فجأة إلى فتاة تقف على الرصيف المواجه لمسكني أمام سيارة تستعد لركوبها وتشير إلي.. ظننتها تحييني تحية الصباح فرددت عليها التحية بيدي وبالابتسامة ثم عدت إلى قراءة الصحيفة.. فوجدتها تكرر الإشارة وتدعوني للنزول إليها فاعتقدت أن سيارتها معطلة وأنها تحتاج إلى مساعدتي، فأسرعت بالنزول إليها لأساعدها في إدارة موتور سيارتها، فقالت لي إن السيارة سليمة لكنها تريد أن تتحدث معي فترددت قليلًا في الاستجابة لدعوتها، لكني وجدت نفسي أركب إلى جوارها، وانطلقت السيارة في شوارع الحي الهادئة، فقالت لي إنها معجبة بي وأنها راقبتني طويلًا ولاحظت عليَّ أني لا أرفع عيني إليها حين تمر بي، وأنها سكنت في شقة في العمارة الجديدة المواجهة منذ شهور، ولم أحاول مرة واحدة معاكستها أو جذب انتباهها مما يقطع بأني شاب مستقيم، وأن هذا ما أعجبها في شخصيتي.. وتكلمت معها طويلًا عن مبادئي في شخصيتي واتفقنا على أن نلتقي مرة أخرى، وغادرت سيارتها وقلبي يخفق لفتاة لأول مرة في حياتي.

وقابلتها بعد ذلك عدة مرات بالطريقة نفسها وعرفت عنها كل شيء.. عرفت أنها خريجة كلية الآداب لكنها تعمل في كافتيريا أحد الفنادق الكبرى، وأنها وحيدة أمها مع شقيق واحد يقيمان معها رغم وجود مسكن قديم للأم في حي شعبي، وأنها ادخرت مقدم إيجار هذه الشقة.. من راتبها الكبير وعائد البقشيش خلال 5 سنوات، وأنها اشترت سيارتها من نقودها، وأن أمها تتقاضى معاشًا

بسيطًا من زوجها وأنها تعول أسرتها بما تكسبه، وصارحتها منذ البداية بأنني لا أرضى بالارتباط بها وهي تعمل هذا العمل الذي يعرضها لأنظار الآخرين ومضايقاتهم، كما صارحتها منذ البداية بأنني لا أوافق على مظهرها المتحرر نسبيًّا وأني لن أطالبها بالحجاب، ولكن بارتداء الملابس المحتشمة، وسعدت هي بكل ذلك وبدأت بالتخلص من المكياج ثم من الفساتين القصيرة، وبدأت ترتدي الملابس المقبولة وفي ثالث لقاء لنا سحبتها من يدها وقدمتها لأبي وأمي وقلت لهما كل شيء عنها وأمامها لأني تعودت معهما الأمانة والمصارحة في كل شيء.. وقلت لأبي إنها تكسب أكثر من 700 جنيه من عملها هذا، لكني غير راض عنه وأرجوه بأن يسعى لإلحاقها بوظيفة بشهادتها، ورغم معارضة أبي وأمي الداخلية لارتباطي بها فإنهما احترما إرادتي وقدَّرا لي استقامتي ووافقاني على خطبتها والزواج منها.. وفعلًا تمكن أبي من أن يجد لها وظيفة محترمة في إحدى الهيئات براتب 100 جنيه في البداية وأعلنَّا الخطوبة، وقدمت لها شبكة مناسبة وتوقفت عن ممارسة عملها الأول كمضيفة في الفندق الكبير، وتعرفت بأمها فلاحظت منذ البداية أنها غير مرحبة بي بسبب موقفي من عملها. وبسبب ما سمته بعد ذلك بتزمتي، لكن فتاتي لم تتوقف عند معارضتها وتم الزواج خلال ستة شهور من الخطبة.. وعرض علي أبي وأمي أن أتزوج في مسكنهما لأنهما يقضيان معظم شهور السنة في مدينتنا الصغيرة، التي يدرِّس أبي بإحدى كلياتها حيث بيت الأسرة القديم.. وفكرت في الاستجابة لذلك إلَّا أن خطيبتي رجتني أن يتم الزواج في شقتها لكي نتمتع باستقلالنا فقبلت إرضاءً لها، وانتقلت الأم وابنها إلى شقتهما الصغيرة في أحد الأحياء الشعبية وبدأنا حياتنا الزوجية. كان راتبي وقتها 190 وراتبها 100 جنيه، فقلت لها إننا لن نسعد إذا شقي أحد بسبب سعادتنا.. وأن علينا أن نطلب رضاء أمها بأن نواصل كفالتها لها ولشقيقها

في حدود الإمكانات، فأكدت لي أنها ستعطيها جزءًا من راتبها ومن فوائد مدخراتها، فرتبت أموري معها على أن أدفع إيجار الشقة وهو 50 جنيهًا ثم أعطيها 140 جنيهًا هي باقي راتبي لتكون ميزانية الأسرة، أما نفقاتي الشخصية ومواصلاتي فسوف أغطيها من الحوافز التي أحصل عليها من الهيئة، ومن أجور بعض دروس اللغة الإنجليزية التي أعطيها للأقارب والمعارف كلما سمحت لي الظروف.

وبدأنا حياتنا طائرين سعيدين في عش صغير جميل، وانفجر بركان الحب المكتوم في قلبي طوال العمر فأحببتها بلا حدود، ووجدت فيها الحنان والأمان والنبع الذي ارتشف منه الحب والسعادة. وتوجنا حبنا بمجيء طفلتنا الوحيدة «شيرين» بعد عام واحد من الزواج.. وأحدث مجيء الطفلة انقلابًا في حياتنا.

وأصبحت لنا اهتمامات وحكايات جديدة عن الطفلة واستجاباتها الأولى للأشياء.. وأعود من عملي فأجدها كالوردة المتفتحة تنتظرني لتحكي لي وأنا على الباب أول كلمة نطقت بها طفلتنا ونوادرها وحركاتها، ثم نتناول طعامنا وأنا أحكي لها تقرير اليوم عما حدث لي في عملي، وتحكي لي أيضًا تقرير اليوم عما حدث لها ونزور أسرتي أو أسرتها أو نمضي الأمسية في عشنا الصغير، وعشنا هكذا 5 سنوات من السعادة الخالصة، كنت خلالها اعتبر هدف حياتي الوحيد هو إسعادها وتوفير كل متطلباتها لكيلا تشعر بنقص أي شيء عرفته في حياتها السابقة، وكان أبي يقدم لي من حين لآخر بعض المساعدات المالية فأعطيها لها.. مع تزايد راتبي إلى 280 جنيهًا وارتفاع راتبها إلى 150 جنيهًا هي أيضًا. لذلك فلم نواجه أية مشاكل من هذه الناحية.. لكن الليالي كما قلت لك من البداية «حبالى يلدن كل جديد» فذات يوم كنت عائدًا إلى البيت بعد يوم طويل

في العمل فوجدت أمها في البيت والجو معبأ بالغيوم، وتوجست شرًا وانتظرت أن تهب العاصفة فلم تتأخر إذ قالت لي زوجتي إنها التقت مصادفة بإحدى زميلاتها السابقات فأوصلتها بسياراتها إلى هناك، والتقت بزميلاتها ومديرها السابق، وإنها وجدت زميلاتها جميعًا يرتدين أفخر الملابس وتكسب الواحدة منهن أكثر من ألف جنيه في الشهر.. و .. و.. وإن مديرها قد عرض عليها العودة للعمل إذا أرادت براتب أكبر مما كانت تتقاضاه وأنها وعدته بالتفكير والرد عليه بعد معرفة رأيي. قلت لنفسي رأيي؟ ألم نتفق منذ البداية على نسيان هذا الطريق إلى الأبد؟

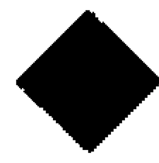
فرفضت بالطبع وذكرتها باتفاقنا وبأننا سعداء هكذا، وبأني أعمل ليل نهار لإسعادها وأننا شابان في بداية الطريق... إلخ فسكتت ولم تعلق. أما أمها فقد انبرت لي تتهمني بالأنانية والتزمت وأني «غاوي فقر» واستمعت إليها صامتًا ومتألما وقبل أن أتكلم كانت زوجتي قد نهرتها وطالبتها بالصمت، ثم قامت وقبلتني وأكدت لي أنها لن تفعل شيئًا إلّا إذا وافقت عليه، ومرت الأزمة بسلام هذه المرة.. وضاعفت جهدي في العمل وفي إعطاء الدروس لكي أحقق لها مستوى أفضل للحياة لكيلا تعود إلى التفكير في العودة لهذا الطريق، وبعد أن كنت لا أعطي الدروس سوى للأقارب والمعارف أصبحت أعطيها لكل من يطلب منّي، وأصحو في الخامسة صباحًا لأستقبل تلميذًا في السادسة وأعطيه درسًا حتى الثامنة قبل أن أذهب للعمل، وكل ما أكسبه أعطيه لها.. وأحرص على تلبية مطالبها قبل كل شيء حتى أنني لم أشتر لنفسي بدلة واحدة خلال 4 سنوات، في حين حرصت على شراء الفساتين لها كل صيف وكل شتاء، ثم جاءت زوجتي ذات يوم لتعرض على ما أسمته «بحل وسط» وهو أن تعمل فترة إضافية من 3 - 9 في الكافتيريا إلى جانب

وظيفتهـا، فقلت لها إني لا أقبل المبـدأ من الأصل لكي أناقش التفاصيل.. وعرفت ساعتها أنني أواجه خطرًا حقيقيًّا يهدد حبـي وعش أحلامي، وتأكد لي ذلك حين جاءت بعد عـدة أيام تطلب مني بهدوء شـديد، وبلا أي انفعـال: الانفصال لكي تعيش حياتها كما تريد، لأنها ضاقت بالقيـود والتزمت وتريد أن تنطلق كما كانت! كان اليوم يوم جمعة وكنت أستعد لارتداء ملابسي للذهاب لإعطاء درس جديد.. فشعرت بالسخونة تصعد من رقبتي إلى وجهي إلى رأسي، حتى غامت الدنيا أمام عينـي.. ولم أصـدق ما سـمعت.. الانفصال؟ هـل تطلبين الطـلاق.. بعد كل هذا الحب وكل هذا الإخلاص وكل هذا الوفاء؟ لقد عشـنا 6 سـنوات لم تنطق خلالها شـفتاي بكلمة واحـدة تجرح مشـاعرك ولم نتغاضب مرة واحـدة..، فكيف ينهدم الحـب هكـذا مرة واحدة؟ فلم تجبني والتزمت الصمت.. فقلت لها: لك ما شـئت لكني سـأنتظر فترة لعلك تراجعين فيها نفسـك حرصًا على طفلتنا وعلى حبنا، ثم قمـت وجمعت حاجيـاتي وحملت ملابسي وقبلت ابنتـي وأخرجت كل ما في جيبي من نقود ووضعته في يدها، وغادرت الشـقة حزينًا متثاقلًا إلى بيت أسرتي، وهناك وجـدت أبي وأمـي يعرفان كل التفاصيـل من أمها سـامحها الله، ووجدت العطف والحزن في عيونهما فلم أنطق بكلمة وعدت إلى غرفتي القديمة ورتبت ملابسي فيها وقاومت رؤية ابنتي أسـبوعين كاملين، ولم أسـتطع أكثر من ذلـك، وأمضيت ليلة سـاهرًا حتى الصباح وحين اسـتيقظت أمي ورأتني مرهقًا والتجاعيد تملًا وجهي انزعجت وسألتني عما بي؟ قلت لها أريد أن أرى ابنتي ولا أريد أن أذهب إليها، فلم تغسل وجهها وارتدت ملابسها على الفور، وخرجت ثم عادت إليّ بها بعد نصف سـاعة، وصرخت مـن الفرحة حـين رأيتها وأسرعـت أحملها وأدور بهـا وأقبلها، وسـألتها مـاذا تريدين أن تفطري؟ فقالـت مكرونة! ورغم غرابـة الطلب لم أتردد وحملتهـا ودخلت إلى المطبخ وأجلسـتها على كرسي وبدأت أطهـو لها المكرونة وأنا

لا أعـرف الطهـو.. فحاولت أمي أن تصنعها بدلًا منـي فنحيت يدها برقة ورحت أصنعهـا حتـى نضجت، وحين اسـتدرت لأقدمها لها رأيت أمـي تخرج من المطبخ بسرعـة ودموعها تنسـاب من عينيها.. وحملتها إلى حجرتي وجلسـت على الأرض ورحـت أطعمهـا وألاعبها.. ولم أشـعر بالزمن وهو يمر حتى جـاءت أمي تطلبها منِّي لأن حماتي في الصالة تنتظرها.. فقبلتها وودعتها وخرجت وهي تسـألني: لماذا لا تأتي عندنا يا بابا، فلم أجد جوابًا!

وكانـت المهلـة التـي حددتها لها شـهرين، فمضـت الأيـام ثقيلة بطيئـة، وكلما مر أسـبوعان أرسـلت لإحضـار ابنتـي لأراها، ثم سـمعت أن زوجتـي قد عادت للعمـل في الفنـدق مـع احتفاظهـا بعملهـا الأصلي وأنها عـادت لارتـداء الملابس القصيرة والفسـاتين التي بلا أكمام، وإلى وضع المكياج وإلى الرقص والسهر.. وأن النقود الكثيرة قد عادت للجريان في يدها وأنها تصطحب أمها وشقيقها وابنتنا يوم الجمعـة إلى الفندق فيتناولون الغداء على حمام السـباحة، وينفقون 60 أو 70 جنيهًا في وجبـة واحـدة، وأن الأم سـعيدة للغاية بعـد أن انتهت أيام الفقـر الذي فرضته عليهم سامحها الله، وقد عرفت هذه الأخبار كلها عن طريق الأم نفسها التي تروي أخبـار هذه «الانتصارات» لأمـي حين تأتي لإحضار الطفلـة أو لأخذها، وترويها بتشـف وهي تؤكد لأمي أن ابنتها ليست من ثوبي، وأنها لا تستطيع أن تعيش حياة عادية كالتي عاشـتها معي إلى الأبد، وأنها عرفت منذ البداية أن ابنتها تحبني لذلك لم تقـاوم لكنهـا كانت متأكدة من أنها حين يضعـف الحب لن تتردد في أن «تنطرني» مـن حياتهـا، لأنها كما قالت جامحة ولا تطيق القيود، ورغم كل ذلك فحين جاءتني الأم تطلب إنجاز الطلاق لم أفقد الأمل في عودة زوجتي إلى نفسها، وقلت لها إنني عنـد وعدي لكنـي لصالح الطفلة أريدهـا أن تعاود التفكير لمدة 3 شـهور أخرى،

فوافقت مضطرة ومضت الأسابيع بنفس الطريقة السابقة، وطوال هذه الفترة لم أرها إلّا مرة واحدة منذ أيام وهي تدخل عمارتها، ورغم بعد المسافة فلقد رأيت صورة أخرى للفتاة التي أحببتها، واهتززت كثيرًا في أعماقي لكنني واصلت حياتي كما عشتها طوال هذه الأيام الكئيبة، وهي تنتظر نهاية المهلة ولا يبدو عليها أي ندم أو استعداد لتغيير رأيها، بل لقد استقالت من عملها المحترم وتفرغت للفندق، وأصبحت تعمل صباحًا ومساء وقد أرسلت إليَّ أمس تذكرني بموعد انتهاء المهلة وتطالبني باسم الحب القديم والاحترام العميق بيننا ألّا اضطرها للجوء للمحاكم لطلب الطلاق، ووجدت نفسي مع اقتراب نهاية المهلة أتساءل: ما زلت أحبها؟ فأجدني بكل صراحة أقول نعم ما زلت أحبها. لكنني أرفضها بوضعها الحالي وأبحث فيها عن فتاتي القديمة وأتساءل هل أستطيع فراقها للأبد؟ فأقول قد لا أستطيع. لكني أحاول الصمود وقد صمدت بإصرار حتى الآن. ثم أتساءل وما ذنب ابنتي في كل ما جرى؟ وأقول لا ذنب لها مثلي لكن هذا نصيبها من الدنيا، ونصيبي أيضًا إني خلقت مستقيمًا، إنهم ينتظرون كلمتي بعد أيام وأنا أثق في رأيك وسأعمل بما تشير عليَّ به فبم تنصحني أن أفعل وأن أقول؟



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

باختصار شديد فإنني أميل إلى تأييد رأي الأم في أن ابنتها لم تخلق لك رغم هذه القصة الرومانسية الجميلة التي جمعت بينكما، لأني أعتقد أن طريق كل منكما

في الحياة يتقاطع مع الآخر ولا يتماثل معه لذلك التقيتما في نقطة التقاطع المؤقت ودام الالتقاء 6 سنوات جميلة، ثم واصل كل طريق سيره.. ولن يلتقيا مرة أخرى في أغلب ظني.

فشخصية كل منكما ونظرته إلى الحياة تختلف اختلافًا جذريًّا عن الآخر، وأنا أحيانًا أصدق فكرة «البير كامي» عن سوء التفاهم المتحكم في المصير الإنساني والذي يجعل من السعادة في بعض الأحيان مطلبًا عسير المنال رغم يسرها لو صفت النفوس ودام الحب بين القلوب، فأنت مثلًا تطلب السعادة لنفسك ولأسرتك الصغيرة.. وتجدها في الحب الذي تغمر به زوجتك وطفلتك، وفي الحياة الجادة المستقيمة وفي الكفاح لبناء مستقبلك والصبر على الآمال إلى أن تتحقق بطريقة طبيعية، وهكذا معظم البشر الأسوياء. أما زوجتك فهي تطلب أيضًا السعادة لنفسها وطفلتها على الأقل لكنها لا تجدها في الوسيلة نفسها وإنما تراها في الحياة السهلة الخلابة، وفي الانطلاق ورفض القيود، وتحقيق كل الرغبات من أقصر طريق، وقد كانت نقطة التقاطع التي جمعت بينكما هي الحب وحين خمدت جذوته أطل الخلاف بوجهه القبيح عليكما واستعد كل طريق للسير في الاتجاه المخالف.

وقد استجابت فتاتك لكل مطالبك منها فتركت العمل السابق وارتدت الملابس اللائقة، وعاشت حياة الزوجة العادية خضوعًا لنداء الحب وحده، لكن التغير الحقيقي لم يمس شخصيتها الحقيقية ونظرتها للحياة ولم يمس جوهرها فبقيت في أعماقها.. شخصية جامحة «تلذذية» تريد من الحياة دائمًا ما يحقق لذتها وسعادتها، وحين كنت أنت هذا الشيء الذي يحققهما نالتك من أقصر طريق، وحين تساقطت أوراق الحب لم تتوقف طويلًا أمام مصير طفلتها أو مصير أسرة صغيرة، أو أمام هذا الحب العظيم الذي تحمله، لها والذي قد تحلم به أية أمرأة أخرى،

وإنما حزمت أمرها وطالبتك بأعصاب ميتة بالانفصال لتبحث عن سعادتها في حياة أخرى.. لذلك فأنا لا أصدق أن بداية التغير من جانبها كانت هي مصادفة لقائها بإحدى زميلاتها السابقات، وإطلالها من جديد على مغريات عالمها السابق، وإنما أتصور أن هذا التغير قد بدأ قبلها بفترة ونما تدريجيًّا مع ذبول كل ورقة من أوراق قصة الحب التي عاشتها معك، فبدأت تستجيب لوساوس أمها التي كانت ترفضها من قبل، والدليل على ذلك أنه ليس في ظروفكما ما يدعو إلى هدم المعبد على الإطلاق.. فأنتما لا تواجهان مشكلة مالية حقيقية.. وأنت شاب مقبول من كل الوجوه.. وفي بداية طريقك وتكافح لإسعادها وتوفير الحياة الكريمة لها فما المشكلة الحقيقية إذن؟ إنها فقط في داخلها هي وفي تقلُّب عواطفها.. وفي ضعف إحساسها بالواجب الإنساني تجاه طفلتها وتجاه من أحبته وأحبها ولم يقصر في حقها، أو يمس مشاعرها بأية كلمة أو تصرف، فدعها لحياتها يا صديقي فقد اختارت طريقها نهائيًّا بالاستقالة من عملها بالهيئة الذي تتمناه فتاة أخرى، وهي ليست لك فعلًا. لكن لا تفقد ثقتك في نفسك لأن من أحببتها كل هذا الحب لم يصمد حبك في قلبها طويلًا، فليس عارًا أن يحب الإنسان من لا يبادله الحب، لكن الخطأ الحقيقي هو أن نبتذل أنفسنا في طلب مودة من لا يحفظون لنا الود، وأنت شاب ممتاز قد تتمناك أيَّة فتاة أخرى فاستجب لمطلبها بالانفصال وواصل رعايتك لطفلتك البريئة ضحية الجموح وتقلب الأهواء، والطبيعة «النزوية» إلى أن تضمها إليك، واستعد توازنك النفسي والعاطفي بعد فترة نقاهة مناسبة، ثم إمض في حياتك إلى أن تلتقي بمن تؤمن بصدق نظرتك الجادة إلى الحياة وأسلوبك المستقيم فيها، وثق أن سنواتك هذه لم تضع سدى فمن عرف بالتجربة الأليمة من لا يصلحون له، فقد عرف بطريقة غير مباشرة من يصلحون له ومن يمكن أن يلتقي طريقه معهم إلى النهاية بإذن الله.

السؤال الصعب

أكتب إليك هذه الرسالة في الساعة الثالثة صباحًا، ولم تنم عيني بَعْدُ كعادتي في ليال كثيرة أمضيها مسهَّدًا أفكر في أمري ومستقبلي ومصيري، واسترجع شريط حياتي بالآمه ومتاعبه.. ثم أقف حائرًا أمام السؤال الذي يشغلني الآن.. وقبل أن أقول لك ما هذا السؤال سأعرفك بنفسي فأقول لك: إنني شاب في السادسة والثلاثين من عمري أعيش مع أمي في حجرة في شقة مشتركة، في مسكن من مساكن «البسطاء» كما تقول دائمًا في ردودك لطفًا منك أن تصفهم بالصفة الحقيقية لنا ولأمثالنا من الفقراء إلى الله تعالى.. ولقد بدأت رحلة كفاحي وأنا في مرحلة الدراسة الإعدادية حين توفى والدي رحمه الله ولم يترك لنا سوى الستر والإيمان والتراحم بيننا. وكنا أربعة أبناء: 3 فتيات وولد وحيد هو أنا وأمي الشجاعة، فشمرت والدتي عن ساعديها ووقفت معي تشد أزري وتقوِّي من عزيمتي وتغرس في نفسي الإيمان بالله وبأنه لن يتخلَّى عنا.. كنت قد حصلت على الشهادة الإعدادية، ووفقني الله في الحصول على وظيفة صغيرة في إحدى شركات القطاع العام، ودبرنا أمرنا بالإرادة والكفاح والتدبير السليم.. وكان هدفنا أمي وأنا هو أن «نستر» الفتيات لأننا من أصل ريفي.. والحمدلله وفقنا الله في تزويجهن لأزواج

طيبين من الريف، واستقرت كل أخت من أخواتي في بيت زوجها أمًا مثالية وزوجة مثالية في الريف البعيد عن القاهرة.

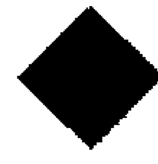
وما إن تزوجت آخر أخت لي حتى عاد أمل الحصول على مؤهل جامعي يطل عليَّ من جديد.. وشجعتني أمي بعد أن أقنعتني بأن الحياة كفاح إلى آخر يوم فيها، فذاكرت للثانوية العامة منازل وحصلت عليها بعد 3 سنوات من العذاب.. ثم التحقت منتسبًا بإحدى كليات جامعة القاهرة.. ولم أجد صعوبة كبيرة في تحصيل مواد الدراسة ولا في اجتياز امتحانات السنوات الأربع بها حتى حصلت على المؤهل الذي أردته منذ أسابيع، ولكن بعد أن أبيض شعري وتسللت التجاعيد إلى وجهي، ولم ترهقني الدراسة.. بقدر ما أرهقني نفسيًا أن والدتي خلال سنوات الدراسة النهائية كانت قد مرضت وزاد عليها المرض، وكأنها قد «انهزمت» أخيرًا بعد طول الصمود، وبعد أن أعطت لنا كل صحتها وطاقتها وجهدها، ولم أبخل عليها بشيء أبدًا بل كنت أدخر كل مليم وأتوجه بها إلى الطبيب، وأحاول في كل مرة أن يكون طبيبًا كبيرًا لكيلا يطول ألمها ومعاناتها، خصوصًا أننا وحيدان في الدنيا.. فالأخوات في بلاد بعيدة لا نراهم إلَّا كل فترة طويلة وبيننا وبينهن سفر بعيد، وأقارب أبي لم يرونا ولم نرهم منذ وفاة أبي لكي لا نطلب منهم شيئًا، وما كنا سنطلب أي شيء لكنه ضعف الإنسان وضيق أفقه، حتى وصلتْ الحال أن كانوا إذا رأونا في الطريق أداروا وجوهم بعيدًا عنا لكيلا يكون سلام ولا سؤال عن الحال قد يجر عليهم بعض الأعباء.

والأيام تمضي بخيرها وشرها.. وأنا راض عن نفسي وعن نصيبي من الدنيا، أرعى أمي وأقوم بكل أعمال البيت من تجهيز الطعام ونظافة البيت وغسل الملابس، وأوفر الراحة بكل جهدي لأمي المريضة.. لكني وجدت نفسي فجأة أمام سؤال

صعب أو اختيار صعب أريد أن استعين برأيك فيه.. فلقد جاءتني فرصة للعمل في إحدى الدول العربية مقابل 1200 ريال كل شهر، ووجدت نفسي شارد البال حائرًا فيما أفعل، فأنا أمام طريقين لا ثالث لهما الأول هو أن أضع السيدة التي ربتني وأفنت صحتها وعمرها من أجلنا في إحدى دور المسنين وأسافر لأبدأ حياتي، وأكوِّن نفسي وأدخر من المال ما يسمح لي بالزواج بعد أن وصلت إلى هذه السن بلا زواج، ثم عندما أعود في الأجازة أسأل عنها.. فإن كانت على قيد الحياة اجتمعنا مرة ثانية.. وإن كانت غير ذلك.. أسأل عن المكان الذي استقرت فيه لأزور قبرها، وبالطبع فإن إيداعي لها في دار للمسنين وهي في هذه الحالة من كبر في السن ومرض بالجسم وعدم مقدرة على الحركة سيزيدها مرضًا واكتئابًا وحزنًا.

والثاني: هو أن أرفض هذه الفرصة وأبقى مع أمي.. أواصل رعايتي لها وأخفف عنها معاناتها، واستمر في محاولاتي لتحسين ظروفي، وفي هذه الحالة فإن الانتظار سيطول وسيطول جدًّا لتحقيق أي شيء.. وإن كنت أسلم بأن الله سبحانه هو الرزاق الكريم.

إنني في حيرة من أمري وانتظر منك أن ترد عليَّ بما يهديني إلى اختيار الطريق السليم الذي يرضى ربي وضميري ولا يحرمني من حقي في أن أبدأ حياتي.. فماذا تقولي لي؟



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

إن من نكد الدنيا على الإنسان أن يجد نفسه مخيَّرًا بين أمرين أحلاهما مر، كما تقف الآن حائرًا بين نداء الواجب والعاطفة تجاه أمك، وبين نداء المصلحة الذاتية. لكنك لو فكرت في الأمر بحكمة لما وجدت الاختيار صعبًا إلى هذا الحد، لسبب بسيط هو أن مقياس المصلحة الذاتية لا يصلح وحده أساسًا لتقييم الأمور، وإنما ينبغي أن توازنه دائمًا حقوق الآخرين علينا، والتزاماتنا نحوهم.. فضلًا عن المقياس الآخر الذي يمكن وحده أن يكون أساسًا عادلًا لتنظيم الحياة، وهو أن يحب المرء لغيره ما يحبه لنفسه.. وعلى ضوء هذا المقياس وحده أسألك: ترى كيف يكون أحساسك بالمرارة والأسى وأنت في أخريات العمر وبعد أن أفنيت صحتك وشبابك من أجل أبنائك، إذا ما وجدت نفسك في نهاية الرحلة وحيدًا بلا أهل ولا أبناء ولا أقارب في دار للمسنين، لأن بناتك تزوجن في الريف البعيد وابنك الوحيد قد تلقى عرضًا للعمل في الخارج؟ إذا أجبتني بأنك لن تحس بالمرارة والإحباط والتعاسة وبأنك أضعت حياتك عبثًا، سأدعوك فورًا إلى قبول هذا العرض وإيداع أمك أقرب دار للمسنين لكي تختتم حياتها فيها وأنت بعيد عنها، أما إذا اعترفت بعكس ذلك.. فلن أطلب منك شيئًا وإنما سأدعك لنفسك وضميرك يهديانك إلى الاختيار السليم.

إنني أقدِّر ظروفك تمامًا وأعرف أن الحياة صعبة ومريرة على من كان في مثل ظروفك، وأقدر كفاحك وتضحياتك.. لكني أيضًا أشفق عليك من أن تهدر كل

هذا الرصيد من الحب والعطاء والوفاء لأمك على هذا النحو المؤلم، ففرص العمل تذهب وتجيء وما قد تفقده اليوم قد يعوضك الله بأفضل منه غدًا.. أما البشر فإنهم إذا ذهبوا لا يجيئون من عالم الغيب مرة أخرى.. وأمك لو رحلت عن عالمنا وهي مملوءة بالمرارة تجاهك فلن تعيدها لك الأبدية لكي تصلح خطأك في حقها. ولن يعفيك ضميرك من الحساب والعقاب حتى نهاية العمر.

وفي مثل ظروفك هذه لا يكون الخيار بين هذين الطريقين اللذين أشرت إليهما، وإنما يكون الخيار بين أن تجد لأمك مأوى كريمًا لدى إحدى شقيقاتك. وبين أن تستطيع اصطحابها معك إلى أي مكان تعمل فيه ولو عشتما معًا في غرفة في مسكن مشترك كما تعيشان الآن، وهو بالمناسبة أقصى ما يعدك به هذا الراتب الذي تتحدث عنه، لأنه من الأجور الدنيا هناك. فإن تعذر هذا وذاك، فلا خيار سوى مواصلة الكفاح على المستوى المحلي، إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، وبعدها تستطيع أن تصنع بحياتك ما تشاء.. فاكمل مشوارك مع أمك يا صديقي ولعل الله يهيئ لك عن طريق بريد الأهرام عملًا إضافيًا يلبي بعض مطالبك.. ويقربك من تحقيق بعض آمالك، فمن أسوأ الأمور ألَّا يكمل المرء ما بدأه من عمل صالح، وأن يهدره بسوء الختام. وقديمًا قال الشاعر:

ولم أر في عيوب النَّاسِ عَيْبًا كَنَقْصِ القادرِينَ على التَّمَامِ

فتمم ما بدأته يا صديقي.. ولسوف يعوضك الله من كفاحك وتضحيتك خيرًا كثيرًا بإذن الله.

إبر النحل

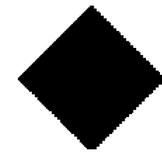
أنا سيدة في التاسعة والعشرين من عمري، تعرفت على زوجي منذ عدة سنوات عن طريق العمل، فنحن طبيبان وقد التقينا في أحد مجالات عملنا. وبعد تفاهم وإعجاب سريعين تمت الخطبة، وكنت وقتها أعمل في مستشفى خاص فبدأنا معًا رحلة تأثيث بيت الزوجية، وعملت ليلًا ونهارًا حتى استعطعت معه تكوين عش الزوجية بالشكل اللائق، ووقع عليَّ العبء الأكبر في ذلك لأني كنت موفقة في عملي وأحصل على عائد أكبر، ولم أشعر بالامتياز عن زوجي لأن كل ما فعلت كان لصالحنا نحن الاثنين، وقد تمكنا من إتمام الزواج بعد سنة من الخطبة وبدأنا حياتنا معًا ورزقنا بعد عام بطفلة جميلة، وبعدها بعام آخر بطفلة أخرى أكثر جمالًا، ومضت حياتنا هادئة فتركت عملي في المستشفى وعملت مع زوجي في عيادة متواضعة بمنزل أبي الذي راعي ظروفنا فلم يتقاض منا إيجارًا، رغم أنه رجل مكافح، ولاحظت بعد فترة من الزواج أن زوجي يميل إلى الراحة ولا يرهق نفسه في العمل إلَّا قليلًا فعوضت ذلك بالعمل والمشاركة في مسئوليات الحياة بلا ضيق، مؤمنة بأن لكل إنسان قدراته التي لا يستطيع تجاوزها، ولم يسبب لي ذلك مشكلة.. وإنما جاءت المشكلة من أن زوجي كانت له قبل الزواج علاقات

نسائية انتهت بعد الخطبة والزواج، لكنه ما زال يحتفظ بالخطابات الغرامية وصور الفتيات اللاتي عرفهن حتى الآن، ولم أعترض على ذلك، وأخذت الأمر ببساطة لأني أؤمن بأن من حق كل إنسان أن يحتفظ بأطلال ذكرياته، لكني للأسف أحسست منذ سنة بعودة إحدى هذه الفتيات للاتصال به أو عودته للاتصال بها لا أعرف، وحين ناقشته في ذلك قال إنها إنسانة لديها بعض المشاكل وأرادت أن تستشيره فيها، ولم أعلق على هذا التصرف فأعطيته الثقة وتركت الأمور تمضي في مسيرتها الطبيعية.

ومنذ أسابيع أحسست بأن زوجي يعطي اهتمامًا خاصًا لسيدة تبلغ من العمر الأربعين ومتزوجة ولديها أولاد، لكنها على خلاف مع زوجها، وقد أرادت من زوجي خدمة خاصة بعملنا فأرسلها إلي واتصلت بي فرحب بها لأنها من طرف زوجي، ثم جاءتني في البيت ومن أول لحظة رأيتها فيها تذكرت الرسالة التي قرأتها في بريد الجمعة بعنوان «الأظافر الطويلة» عن الزوجة التي كافحت مع زوجها حتى بنى نفسه ثم جرى وراء سكرتيرة له من ذوات الأظافر الطويلة الملونة التي تهتم بنفسها وتزوجها على زوجته المكافحة، فلقد رأيتها من أول نظرة تهتم بنفسها أكثر من اللازم ويبدو من تصرفاتها أنها غير متزنة وصاحبة أظافر طويلة. ورغم ذلك فلقد بدأ زوجي يتعاطف معها ويطلب مني التعرف إليها ومصادقتها، فاعترضت بشدة وتحدثت معه بصراحة عن هذه التصرفات وبدأ شعوري نحوه يتغير.. وبدأت أفقد ثقتي في نفسي رغم أني على قدر من الجمال وأهتم بنفسي ولكن في الحدود المعقولة والمقبولة لأم وزوجة وطبيبة تحمل وتتحمل مسئوليتها في الحياة.

كما أني محبوبة من الجميع، لكن تصرفات زوجي واهتمامه الشديد بهذه المرأة قد أثارا شكوكي ودفعاني لترك بيت الزوجية، والانتقال أنا وطفلتاي إلى بيت والدي

فترة قصيرة.. فهل أخطأت في هذا التصرف.. لقد حاولت جاهدة أن أعيش حياة زوجية سعيدة بعد رحلة كفاح طويلة خضتها منذ الصغر وحتى تخرجي، لكن شبح الأظافر الطويلة قد هدد سعادتي فأرجو أن ترشدني إلى الطريق لأني لم أشرك أحدًا من أسرتي في مشكلتي، وإنما كتمتها في قلبي، وتراودني أحيانًا فكرة الطلاق لكنني بالطبع أتمنى الحياة السعيدة المستقرة فماذا أفعل؟



ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

أخطأت ولم تخطئي يا سيدتي فيما فعلت، فأما الخطأ فهو في أن تتركي بيتك وتهرعي بطفلتيك إلى بيت أبيك لمجرد ظنون لم تتأكد في سلوك زوجك مع هذه السيدة الأربعينية، لأن الانسحاب هنا لا يستفيد منه إلّا الغزاة المسلحون بالأظافر الطويلة، ولقد كان الأحرى بك أن تصمدي في موقفك وتتمسكي بأرضك وبيتك وزوجك وتدافعي عنه حتى آخر نقطة.. فإذا فشلت بعد كل ذلك يكون الانسحاب بعد أن أرضيت ضميرك ودافعت عن مستقبل طفلتيك بكل ما أتيح لك من وسائل الدفاع المشروع عن النفس، ويزيد من أهمية ذلك أنه في أوقات الضعف البشري الذي ينتاب الزوج فإن قرب زوجته منه واهتمامها بأمره ومحاولاتها للاحتفاظ به وحمايته من الإغراء تمثل وخزًا مستمرًا لضميره يلسعه كإبر النحل، ويدفعه غالبًا إلى مقاومة نزواته، أما الابتعاد عنه.. وتجاهل أمره والانسحاب من حياته عند أول

بادرة فهو يساعده على الاستسلام لضعفه ويقدم له المبرر النفسي الذي يبحث عنه، والذي يجده بسهولة في ترك زوجته له وعدم تمسكها به مما يقنعه بحاجته إلى التعويض النفسي والعاطفي لدى غيرها!

هذا عن الخطأ فيما فعلت.. وأستطيع أن أضيف إليه أيضًا عدم احتفالك بعودة الاتصال بينه وبين بعض من عرفهن من قبل، فلقد كانت الحكمة تقتضي منك فعلًا أن تدعي الأمور تجري في أعنتها دون إثارة المشاكل أو تضخيم للأمر، لكن الحرص كان يتطلب منك أيضًا إشعاره باهتمامك بالأمر وبغيرتك منه على ألَّا تتجاوز غيرتك الحدود الصحية المسموح بها، لأن قليلًا من الغيرة يسعد الزوج ويشعره بأهميته لدى زوجته وبتعلقها به، أما الكثير منها فإنه يضر القلب والمعدة ويؤدي إلى نتائج مدمرة.

أما عن الصواب فيما فعلت فهو في نفورك من هذه السيدة وفي رفضك الاقتراب منها، والسماح لها بمصادقتك، فأنت محقة في ذلك حتى ولو لم يتبين لك بالدليل سوء نياتها لأن من حق كل إنسان أن يختار أصدقاءه، وأن يقترب ممن يطمئن إليهم ويبتعد عمن لا يحس بالأمان تجاههم، وأنت محقة غالبًا في سوء ظنك بها لأن قرون الاستشعار لدى المرأة المحبة لا تخطىء أبدًا بشأن من تخشى منها على زوجها، وهي إن نفرت من امرأة كانت تستحق في أغلب الأحوال نفورها وشكوكها، لهذا فلا لوم عليك في ذلك لكن اللوم كله في هجرك لمملكتك، فعودي إلى بيتك يا سيدتي وتمسكي برفضك لهذه السيدة وبابتعادها عن بيتك وعن زوجك، وزيدي من اهتمامك به ومن رعايتك له وحرصك عليه، ولا بأس بشيء من الرقابة عن بعد، وإن كنت لا أفضل ذلك عادة، لكن ميل زوجك للدعة والراحة يوحي بأن إرادته ضعيفة.. وأصحاب الإرادة الضعيفة أقل قدرة على مغالبة النفس ومقاومة

الإغراءات، وهؤلاء ينجح معهم الاهتمام والحب والرقابة العائلية والتجاوز عن الصغائر أكثر مما ينجح معهم الصد والصدام والانسحاب، فأعيدي حساباتك يا سيدتي ولا تفرطي فيه ولا تفكري في الطلاق لأنه لم يحدث ما يستدعي مثل هذا الأمر الجلل.. ولأن لكما طفلتين جميلتين لابد أن نفكر في أمرهما وأن نقدم مصلحتهما في أن ينشآ بين أبوين متحابين على أي اعتبار آخر، وليس الأمر شديد الصعوبة فهو لا يتطلب سوى «وصفة» تمزجين فيها بين الحب والحرص والاهتمام بنسب متوازنة وبعدها يشفي المريض من هذه النوبة العارضة إلى الأبد إن شاء الله.

رحلة العودة

أكتب إليك هذه الرسالة ولا أعلم ماذا سيكون مصيرها؟ لكني أكتبها حتى ولو لم تجد لي إجابة شافية، لعلي أحس براحة نفسية بعد أن أسجل خواطري وتساؤلاتي. فأنا سيدة جامعية تخرجت في كلية عملية، وعملت في إحدى شركات القطاع العام تقدم لخطبتي جار يقطن بجوارنا ويحمل نفس مؤهلي، وكان على خلق طيب فقبلته على الفور وتزوجنا، وبدأنا حياتنا الجديدة سعداء ثم رزقنا بطفلنا الأول بعد عام، وبطفلنا الثاني بعد عام آخر، واستدعى زوجي في هذه الفترة للخدمة العسكرية كضابط احتياط، فعرفت معنى الخوف لأول مرة في حياتي حين تركني إلى خطوط القتال، لكن سنوات الحرب مضت بخيرها وشرها. وعاد زوجي إلى عمله بعد عام من انتهاء حرب أكتوبر، وعاد الاطمئنان إلى حياتي مرة أخرى ومرت الأيام بنا هادئة لا ينغص صفونا شيء، نخرج في الصباح أنا وزوجي والأولاد فيذهب كل منا إلى طريقه، فأذهب أنا إلى عملي ويذهب زوجي إلى عمله، ونترك الأولاد في المدرسة، ثم نلتقي مرة أخرى عند مدرسة الأولاد فنصطحبهما إلى البيت، وفي المساء أنشغل أنا في أعمال البيت وينشغل زوجي مع الأولاد في مراجعة دروسهم ثم تنتهي الواجبات المنزلية والمدرسية ونستمتع بساعة من السمر البريء والصفاء

قبل النوم، وفي أيام العطلات نخرج إلى الحدائق أو إلى زيارة الأهل والأصدقاء ونمضي معظم وقتنا خارج البيت، ونعود في المساء وقد جددنا نشاطنا ونستعد لأسبوع جديد من العمل.

وبعد 9 سنوات من الزواج رزقت بطفلي الثالث، وواجهت مشكلة رعايته وأنا سيدة عاملة، لكن زوجي خفف عنِّي كثيرًا منها، فكان يشتري كل ما يلزمنا من الخارج. ويساعدني في أعمال البيت ورعاية الأولاد، وكنا قد استطعنا خلال هذه الفترة ادخار مبلغ صغير فاشترينا به سيارة مستعملة من أحد أصدقائنا فسهلت حياتنا، وأعفتنا من المواصلات. ويسرت لنا زيارة الأهل وشراء ما نحتاج إليه، وقد ربطت الحياة بيني وبين زوجي بروابط عميقة زاد منها أنه كان حنونا عطوفًا ومن هذا النوع من الرجال الذين يجعلون هدف حياتهم إسعاد أسرهم.

وفي صباح يوم شتوي بارد في أوائل العام الماضي، ذهبت إلى مقر عملي ودخلت من البوابة الرئيسية، وبعد أن خطوت عدة خطوات داخل المصنع الذي أعمل به شعرت بألم شديد في صدري، كأن سكينًا دخلت تحت جلدي وتمزقه بشدة فتوقفت في مكاني، ولم أستطع أن أخطو أية خطوة أخري، ورآني زميل واقفه عاجزة عن الحركة. فجاء منزعجًا وقال لي مالك يا باشمهندسة، فأشرت له إلى صدري ولم أتكلم، وجاء الزملاء فزعين وأحضروا سيارة أعادتني إلى بيتي ومعي خطاب بتحويلي إلى طبيب الشركة، وعدت إلى البيت فاستلقيت على الفراش حتى جاء زوجي في المساء وعرف ما جرى فاصطحبني إلى الطبيب الذي فحصني وقال باختصار ذبحة صدرية تحتاج إلى راحة تامة لمدة شهر، ولا تعرف كم انزعجنا حين سمعنا هذه الكلمات القاسية، ولا كم حزن زوجي وتألم لي حتى أشفقت عليه والألم يهري صدري، لكننا امتثلنا لإرادة الله واستسلمت للفراش، ومضت

فترة الراحة وتحسنت حالتي وعدت إلى عملي، ولكني لم أستمر به أكثر من أسبوع وعاودني الألم مرة أخرى، وحسم الأطباء الأمر بعد إجراء فحص بالمنظار وعرفت أن أحد الشرايين التاجية المغذية لعضلة القلب مسدود تمامًا، وأن أمامي الاختيار بين إجراء جراحة قد تنجح وقد لا تنجح كأي جراحة، وبين الاستمرار في العلاج بالعقاقير مدى الحياة مع الالتزام بالاعتدال في المجهود، وإلَّا عاودتني الآلام الرهيبة، ورفض زوجي بإصرار إجراء الجراحة وألح عليَّ في الحصول على أجازة مرضية من عملي واستجبت لمطلبه وحصلت على أجازة عدة شهور، والتزمت الراحة والاعتدال في كل شيء.. وتضاعف حنان زوجي ورعايته لي فلم يدع لي فرصة للقيام بأي عمل في البيت، وحاول دائمًا أن يهوِّن عليَّ الأمر وأن يبث في نفسي روح التفاؤل والأمل، وأصبح يلازمني في كل الأوقات التي يخلو فيها من العمل، واستمتعت بصحبته في هذه الفترة بأكثر مما استمتعت بها خلال السنوات الخمس عشرة التي تعاشرنا خلالها، رغم مخاوف المرض أحسست كأنما عدنا إلى أيام شهر العسل واللفتات الرقيقة، وتبادل النظرات، والكلام بغير كلام، والحنان الزائد في كل لحظة، ورضيت بكل ذلك وحملت لزوجي داخلي عرفانًا بكل ما يبذل من أجلي ومن أجل أولادي، فلقد كان يزداد عطفًا عليَّ كل يوم، كأنه يخشى أن يخطفني أحد منه.

وذات يوم في صيف العام الماضي حمل لي زوجي معه مفاجأة سعيدة عندما عاد مبتسمًا وسعيدًا وأسرَّ لي وهو في قمة الابتهاج أنه قد حجز لنا مكانين في رحلة الحج لدى شركة سياحية لنؤدي الفريضة معًا.. ودهشت وقلت له إني تحت العلاج وقد لا أستطيع تحمل مشقة الحج، فقال لي بل ستستطيعين بإذن الله وسيخفف الله عنك آلامك.. وسيعينك على أداء الفريضة، وسنذهب إلى هناك لكي نطلب من الله الشفاء لك.

وتمت إجراءات الحج سريعة، وودعنا الأطفال والأهل والأصدقاء.. وسافرنا والجميع يوصونه برعايتي ومنعي من بذل أي مجهود، ومن التعرض للشمس فترة طويلة وهو يشكر الأصدقاء ويطمئنهم.

وسافرنا إلى الأراضي المقدسة وبناء على رغبته سافرنا إلى المدينة المنورة أولًا لنمضي بها ستة أيام قبل أن نبدأ مناسك الحج، وأقمنا بفندق يطل مباشرة على الحرم النبوي، وعشنا خمسة أيام كأنها من أيام الجنة، نؤدي الفروض في أوقاتها في الحرم النبوي، ونستمتع بالحديث معًا طوال الوقت، وواصل زوجي رعايته لي فعمل على شراء كل ما يلزمنا للمعيشة من الأسواق لكيلا يحملني أي جهد في هذه الفترة، وفي فجر اليوم السادس صحونا قبيل الفجر لنستعد لأداء الصلاة في المسجد وتوضأنا استعدادًا للنزول، لكنه أحس بشيء من الإرهاق فطلب منِّي أن أذهب وحدي لأداء الصلاة مع بقية الحجاج من زملاء وزميلات الرحلة لكيلا تفوتني فريضة في المسجد النبوي، وأصر على نزولي، فودعته ونزلت للصلاة، وبعدها عدت مسرعة إلى الفندق فذهبت أولًا إلى الغرفة التي تركت بها زوجي فوجدته مستلقيًا على الأرض، فقدرت أنه أراد أن يستريح قليلًا على أرض الغرفة التماسًا لرطوبة الأرض في الجو الحار كما يفعل الحجاج، وقررت أن أدعه يستريح ساعة ثم أعود لأراه.. واستدرت لأترك الغرفة عائدة إلى غرفتي لكن شيئًا ما في صدري أوقفني، فعدت إليه وناديته عدة مرات فلم يجبني فرفعت صوتي قليلًا يا حاج، يا فلان، لم يجبني فعدت أناديه بصوت أعلى.

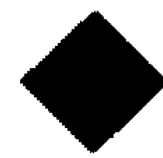
ثم بصوت كالرعد ثم تنبهت فجأة إلى دموع من حولي تنساب في صمت، وكانوا قد عادوا من الصلاة وملأوا المكان، وعرفوا الحقيقة وأنشأوا يتمتمون

بآيات القرآن وأنا غائبة عن الوعي أنادي زوجي وحبيبي وعمري فلا يجيب ندائي لأول مرة منذ عرفته.

وجاء الطبيب وقال سكتة قلبية مفاجئة، وقلت لله الأمر من قبل ومن بعد لكني يارب العليلة وهو الصحيح وقلبي مريض وقلبه لم يشك المرض يومًا، وقد جاء بي إلى هذه البقعة الطاهرة ليطلب لي الشفاء وهو لا يدري أنه الفراق، لكنه قضاء الله ولا راد لقضائه.

ومضت المراسم الحزينة بطيئة، وفي صلاة الظهر بالمسجد النبوي كان زوجي معي، ولكنه جسد مسجى أمام قبر الرسول ﷺ هو الشاب الذي كان يتفجر حيوية ونشاطًا قبل ساعات، أوصل الرفاق زوجي إلى البقيع ووري الثرى مع الصحابة والتابعين، ورحلنا إلى مكة لنبدأ مناسك الحج، وفي السيارة التي حملتنا من المدينة إلى مكة انفجرت دموعي لأول مرة تنعي زوجي وعمري وأبا أبنائي الطيب الطاهر الحنون، وأحاط بي ضيوف الرحمن من زملاء الرحلة تختلط دموعهم بدموعي ويخففون عني أحزاني، ومضت أيام الحج وكتمت السر في قلبي 26 يومًا حتى أؤخر الأحزان عن أهلي وأبنائي قدر ما أستطيع، إلى أن جاء يوم العودة فأبرقت لأسرتي وأولادي بالنبأ الحزين.. وعدت إلى القاهرة فنزلت من باب الطائرة في رحلة العودة وحدي أكفكف دموعي، وكنت قد دخلتها من قبل في رحلة الذهاب معتمدة على ذراع زوجي مبتهجة مستبشرة. وواجهت مصيري.. وحاولت قدر جهدي التخفيف عن أطفالي بالحديث لهم عن فضل من يلقى الله في الأرض الطاهرة ويدفن في البقيع مع الصحابة والتابعين، ومرت الأيام بطيئة كالحجر الثقيل حين يدفعه الإنسان المجهد، ومضى عام على الذكرى الحزينة، وواجهت الحياة بأعبائها وآلامها، وقد ترك زوجي لي معاشًا لا بأس به، وقد أصبح أكثر

ما يقلقني الآن وأفكر فيه طويلًا هو عملي في الشركة، فلقد حصلت على أجازة مرضية لعدة شهور بعد عودتي بسبب ظروفي الصحية والنفسية، والجميع يقولون لي إن معاش زوجي وإن كان يكفي نفقات الأولاد الآن، فإنهم سيكبرون وستزداد مطالبهم ولن يفي المعاش المحدود بها، وأني سوف أحتاج إلى راتبي بالشركة لذلك من الأفضل أن أعود لعملي، وأبنائي زاد تعلقهم بي بعد ما جرى ويرون أن وجودي بينهم فيه محافظة عليهم وعلى صحتي، وأنا الآن أقوم بواجباتي المنزلية ومتطلبات أولادي بالكاد، وبمساعدة مستمرة من شقيقاتي وأمي، وأفكر في العودة للعمل لكني أخشى أن يعرضني لمجهود جسماني وعصبي يؤثر على صحتي، وأفكر في تسوية معاشي لكني لم أكمل المدة القانونية التي تعطيني الحق في المعاش، وحتى لو أكملتها فسأتقاضى الحد الأدنى للمعاش ولن يفي بما أنفقه حاليا على العلاج كل شهر. إني احترم رأيك فبماذا تشير عليَّ أن أفعله لكي أحافظ على أبنائي وصحتي وحياتي.



ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لست في حاجة يا سيدتي لأن أكرر لك كلمات العزاء ولا الرضا بقضاء الله وقدره، فلك من إيمانك ما يغنيك عن كل ذلك. لكنني رغم ذلك لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكر في معنى الآية الكريمة التي تقول: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ وأنا أجيب عن تساؤلك

فلقد ظلت تطن بأذني وأنا أقرأ الفصل الحزين من رسالتك، وأحسست بحروفها تلح عليَّ بأن أذكرك بها لكي تخرج بك من حيرتك، «فالموعد» و«المكان» مسجلان يا سيدتي في اللوح المحفوظ من قبل أن يولد الإنسان ويدب بقدميه على الأرض. والمرض والصحة لا علاقة لهما بالأجل ولا يقدمان منه ساعة ولا يؤخران، ولقد لمست كل ذلك بكل أسف في تجربتك الأليمة.

ورغم أني لست من المتشائمين ولا ممن يرون مع الفيلسوف الألماني المتشائم هيجل أن «الحياة موت مؤجل» فإني كثيرًا ما أتذكر هذا البيت من الشعر العربي:

يـا رَاقِـدَ اللَّـيْـلِ مَسْرورًا بـأوَّلِـه ... إنَّ الحـوادَث قَـدْ يَـطـرُقْنَ أسْحَارًا !

وكثيرًا ما أردده متأسيًا في شدائد الحياة المفاجئة كلما صدمتنا بآلامها القاسية على غير انتظار، لكن لنترك هذا الحديث الثقيل الآن ولنركز على حيرتك الراهنة بين العودة للعمل والتخلي عنه.. وفي هذا أقول لك يا سيدتي إن من الحكمة أن يوازن الإنسان بين ظروفه واحتياجاته، وأن يستجيب لضرورات الحياة حين لا يكون هناك مفر منها، وأنت في تقديري سوف تحتاجين إلى راتبك خلال فترة قصيرة، لذلك فلا معنى للاستقالة من العمل أو تسوية المعاش الآن بل لا معنى أيضًا للتحسب من تأثير العمل على صحتك، وأنت أصلًا مطالبة بالاعتدال في المجهود وليس بعدم بذل أي جهد نهائيًا، وكثيرون ممن يواجهون نفس ظروفك الصحية يطالبهم الأطباء بالاعتدال ولا يوصونهم أبدًا بالتوقف عن الحركة نهائيًا، لذلك فأنت تستطيعين العودة للعمل من الناحية الصحية بشرط الاعتدال في كل شيء، وقانون العمل يعطيك الحق في ممارسة نوع من العمل الخفيف يتناسب مع صحتك ولا يؤثر عليها، ولو لم يكن هناك هذا القانون لأعطاك

قانون العدل والرحمة هذا الحق بلا جدال، فلماذا لا تجربين العودة للعمل وبذل جهد مخفف فيه لكي تستفيدي براتب العمل وبميزات الرعاية الصحية التي يوفرها لك، ولماذا لا تجربين أيضًا وفي حدود الاعتدال أن توازني بين ظروف عملك ورعاية أبنائك ولو إلى حين، إلى أن تحسي بعدم القدرة على تحمل هذا العبء.

إنك في رأيي أحق من كثيرين بالتخفيف عنك في العمل، من كثيرين ممن يتمتعون بكامل صحتهم، و«لا يزكون» عنها ببذل أية قطرة عرق في أعمالهم التي يتقاضون منها أجورهم بل و«حوافزهم» أيضًا، وما أكثرهم في مواقع القطاع العام الذي تعملين به.. وما أكثرهم في مواقع أخرى كثيرة، فلماذا لا تعتبرك شركتك «واحدًا» من هؤلاء وأنت الأحق بذلك والأجدر بسبب ظروفك الصحية، إن مجموع راتبك حتى سن المعاش لن يبلغ واحدًا في المائة مما تنفقه الإدارة العليا في أية شركة عامة على رحلاتها الخارجية ومظاهرها الشكلية خلال سنة واحدة، فلماذا ندقق دائمًا مع المحتاجين والضعفاء.. ونغمض العيون عن إسراف بعض الكبار وإنفاقهم المظهري الذي يمكن أن يحل مشكلات عديدة لآخرين من أمثالك. عودي إلى عملك يا سيدتي شكليًّا لتستفيدي براتبك في تأمين مستقبل أولادك وفي توفير علاجك، ولك من ظروفك ما يبرر لك نقص جهدك وليكلأك الله برعايته. ولتعوضك الحياة عمن فقدت خيرًا وفضلًا.

الضوء الأخير

أكتب إليك بعد صراع مرير مع نفسي، وأرجو أن تسمعني وأن تؤجل حكمك عليَّ إلى النهاية. أنا سيدة متوسطة العمر نشأت في أسرة فقيرة.. وقاسيت مرارة الحاجة. وحين بلغت سن الزواج لم أفكر في الزواج من شاب مثلي لأني كنت في حاجة إلى زوج جاهز يوفر لي المسكن والملبس والمأكل ولا يكلفني شيئًا.. وقد وجدت هذا الزوج في شخص مطلق له أولاد وعنده شقته ولديه إمكانات الحياة، بل ولا أكذبك إذا قلت لك إني فرحت به بالنسبة لظروفي التي شرحتها لك، وهكذا تزوجته واعتزمت أن أحافظ عليه وعلى حياتي الجديدة.. وكان هو أيضًا سعيدًا بي.. لكن شيئًا ما في داخلي كان يدفعني دفعًا لإساءة معاملة أطفاله - رغم أنهم أبرياء - ولتعذيبهم .. تسألني لماذا؟ أقول لك إنهم أطفال صغار حرموا من أمهم وفرحوا حين وجدوا أمًّا ترعاهم لكن النفس الأمارة بالسوء كانت تدفعني دفعًا لتعذيبهم.. ولم يخف الأمر طويلًا عن زوجي.. فقد أحس - بقلب الأب - بعذاب أطفاله.. ولم يكن هناك ما يربطني به سوى حسن العشرة فلم أنجب منه أطفالًا.. لذلك لم يجد صعوبة في التخلص مني وطلاقي فعدت إلى الوحدة وإلى معاناة ظروفي الاجتماعية بعد فترة قصيرة من الاستقرار معه.

وحاولـت أن أجـد مخرجًـا من ظروفي فعملـت في إحدى الشـركات، ومن خـلال عملي التقيـت بتاجر كبير يتعامل مع الشـركة، له بنـات وأبناء متزوجون. كان أرمـل توفيت زوجته.. ولفـت نظري إليه بحديثه الدائم عـن زوجته الراحلة وأبنائـه الذيـن يتحدث عنهم بحب شـديد.. ووجدت نفسـي أميـل إليه رغم كبر سـنه وأتمنى أن أتزوجه.. وشـاءت الأقـدار أن تتحقق أمنيتي بعـد فترة قصيرة إذ فاتحني برغبته في الزواج منّي، وسعدت بطلبه جدًّا وسارعت بالموافقة.. وبارك أبناؤه زواجي من أبيهم لكي يجد من ترعاه في وحدته.. وشـهدوا جميعًا مراسم الزواج وأحاطوا بأبيهم سـعداء بسـعادته، وقال قائلهم إن الحياة لابد أن تسـتمر وأن مـن حق أبينا أن يجد من يؤنس حياته بعد زواجنا جميعًا وانشـغالنا بأسـرنا. وزففـت إليه فـي حفل عائلي صغير وخرج الأبناء وهـم يودعون أباهم بالقبلات ويودعونني بحرارة، والبنات يقبلنني ويثنين على جمالي الهادىء وأناقتي ويقلن إنهن فخورات بي.

وأحسسـت أن هذه الأسـرة يجمعها الحب الصادق بيـن أفرادها.. وحمدت الظروف التي جعلت منِّي واحدة منهم، وانتويت أن أستمتع بحياتي.. وأن أكسب حب زوجي وأولاده، ومضت الأسـابيع والشـهور سـعيدة والجميـع يعاملونني بحـب واحتـرام.. وكنت قد تركت عملي وتفرغت لأسـرتي الجديدة، ووجدت فيهـا كل مـا أحتاج إليه، لكني يا سـيدي بدأت أغار شـيئًا فشـيئًا من حب زوجي لأولاده وأحفـاده.. وبدأ الشـيء القديم الذي أفسـد عليَّ حياتـي الأولى يتحرك مـن جديد.. وبدأت أضيق بحديث زوجي عن ذكـرى زوجته الراحلة وباهتمامه بأمور أبنائه وبناته، فإذا أردت أن أشـتري فسـتانًا قال لي زوجي اشتري لأولادي معك.. وإذا فكرت في شـراء شـيء جديد للبيت قال لي اشـتري منه لأولادي..

حتى وجدت نفسي فجأة أكره أولاده وبناته بلا سبب.. وأريد أن أبعد هذا الزحام عـن زوجي لكي انفـرد به وباهتمامـه.. وبدأت أشـكو لزوجي مـن أبنائه.. وفي البداية لم يكن يسـمع لي.. ثم بدأ يسمع ولا يعلق.. ثم بدأ يسمع ويتعاطف معي ببعـض الكلمات.. بغيـر أن يخطِّيء أبنـاءه أو يلومهم.. ثم بدأ يسـمع ويعبر عن سـخطه ببعض الكلمات القاسـية.. ثم بدأ يتغير تجاههم تدريجيًّا.. وأنا لا أدع له فرصة للتراجع ولم يمض سوى عامين حتى كان يكره أبناءه وأحفاده وأنا «أتلذذ» «لذة» الانتصار عليهم!

تسـألني مرة أخرى لماذا؟ وسـأقول لك لا تسـألني لأني لا أعرف سوى أني أردت أن أبعـد كل هذا الحشـد عـن زوجي وأن يخلو لي وحـدي.. وأن طبيعتي غلبتنـي كأنـي نسـيت كل ما جرى فـي زواجي الأول ونسـيت طلاقـي وعودتي للعمل ومعاناتي للحرمان مرة أخرى.

وبعـد أن انفردت بزوجي انقطع الأبناء والأحفاد عن زيارتنا، ولم يعد يدخل بيتنا أحد، وفي هذه الأيام بدأ زوجي بإيحاء وضغط منيِّ يبيع أملاكه لكيلا تكون هناك أشياء واضحة يمكن أن ينازعني فيها أحد.

والحق أن أبناءه لم يهتموا بذلك بقدر ما حزنوا لمقاطعة أبيهم لهم وحرمانهم منـه.. وفي إحدى المناسـبات انفجـرت ابنته الكبـرى فيّ باكية، ودعـت الله أن يحرمنـي مـن «نظري» كما حرمتهـا وإخوتها من أبيهم، وبدلًا مـن أن أغضب أو أجزع وجدت نفسي أضحك سعيدة بالانتصار عليهم.

وتفـرق الأبنـاء.. وبـدأوا يهاجـرون كل إلـى بلـد مختلف.. فهاجـر بعضهم إلـى البـلاد العربية وهاجر البعض الآخـر إلى أوروبا، حتى البنـات هاجرن وراء أزواجهن بعد أن سلمن أمرهن لله في أبيهن.

وخلت الدنيا تمامًا من حولنا.. وبدأت استمتع بالهدوء مع زوجي.. لكنه لم يطل كثيرًا.. فلقد توفى زوجي بعدها بعام وفوجئت به وهو في لحظاته الأخيرة يهتف بأسماء أبنائه وبناته وقد كنت ظننت أنه قد نسيهم.. فاندفعت أقول له أنا بنتك وزوجتك وأمك وكل شيء لك في الدنيا. لكنه لم يحفل بي وفارق الحياة ولسانه يهتف بأسماء أبنائه وعيناه تبحثان عنهم في ضيق ويأس.

وانتقل زوجي إلى العالم الآخر.. وحزنت عليه لأني وجدت معه الحياة التي أردتها.. لكني تماسكت ودبرت كل أموري بحكمة، وكانت كل ثروته تحت يدي أموالًا سائلة فانفردت بها وحرمت كل أبنائه، وتجاوزت الأزمة بسرعة.. وعشت حياتي مطمئنة للمستقبل، فعندي الشقة التي نقل زوجي عقدها باسمي، وعندي أموال في البنك، لكن الأبناء لم ينازعوني في الشقة ولا في غيرها وعشت عامين هادئين، أحيا حياة أرملة ثرية احتاطت للمستقبل باحتياطات عديدة.. عندي سيدة ترعى شئون بيتي، وأشغل وقتي بزيارة الصديقات اللاتي تعرفت بهن في السنين الأخيرة، أو أستقبل بعضهن في الصباح ونروح نتحدث في أمور الدنيا.. وأتفرج على التليفزيون وأفلام الفيديو كل يوم. وبدأت أفكر في استئجار شقة للمصيف أمضي بها الصيف في الاسكندرية.

وأسرفت في التفرج على أفلام الفيديو، حتى بدأت أحس بزغللة بسيطة في عيني، ونصحتني صديقة بأن أعمل نظارة تحفظ نظري.. فذهبت إلى أكبر طبيب عيون لعمل النظارة، واخترت نظارة أنيقة زادت وجهي شياكة وأنا أرتديها.. واستعدت راحتي في التفرج على الفيديو لكن النظارة الجديدة لم تلبث شهرين حتى بدأت تزغلل عيني من جديد، فعدت إلى طبيب العيون الذي استبدلها لي بأخرى جديدة، واستعدت أطمئناني سريعًا.. لكن النظارة لم تلبث أن ضايقتني

فاستشـرت صديقتي فنصحتني بالذهاب إلـى طبيب آخر، وذهبت إليه ففحصني بدقـة ثـم نظر لي طويـلًا وقال: يا مـدام إن القرنيـة عندك تضمر منـذ زمن.. وقد تأخرت كثيرًا في بَدْء العلاج!

فصرخت فيه: ماذا تعني؟ فقال: كل شيء بأمر الله! فغامت الدنيا أمام عيني.. وتركت العيادة وأنا لا أرى الطريق، وفي طريق عودتي إلى البيت مر شريط حياتي أمـام عيني.. مـن الفقر والحرمان إلـى الزواج الأول.. إلى الطـلاق والحرمان.. إلى الزواج الثاني.. إلى الراحة والاطمئنان والمال.. ثم فجأة قفزت إلى مخيلتي صورة ابنة زوجي الكبرى وهي تدعو الله أن يحرمني من بصري كما حرمتها من أبيها وتسمرت في مكاني.

وسألت نفسي بفزع هل يكون هذا هوالنذير؟

لا.. لـن يكون، إن معي مالًا.. وهناك أطباء.. وسـأصرف آخر قرش معي في علاجي..

وبـدأت الرحلة المريـرة.. وطفت على الأطباء ومراكـز العلاج.. وبت ليالي تعيسـة أنتظر نتائـج الفحوص.. وكل يوم يمضي تظلم عينـاي فيه قليلًا عن اليوم الذي سبقه.. وتوقفت عني مشاهدة التليفزيون والفيديو وقراءة المجلات..

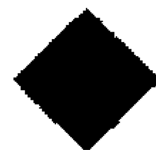
وأمضيت أيامًا قاسـية معصوبة العينين.. ثم انسـحب آخر ضوء من عيني منذ أسابيع وتحولت الحياة إلى ظلام قاتم، أيكون هذا هو العقاب الذي توعدتني به ابنة زوجي يا سيدي؟

إننـي لا أسـالك لكي تجيبنـي، لأني عرفت فعـلًا أنه كذلك منـذ أن أظلمت عيناي لأول مرة ونفض الأطباء أيديهم عنِّي يائسين.

لكني أملي هذه الرسالة على أعز صديقاتي التي وقفت معي في محنتي لكي أطلب منك شيئًا آخر.

لقد كنت من قراء هذا الباب قبل أن أفقد القدرة على القراءة، وأصبحت الآن استمع إليه.. وبعد صراع مرير مع نفسي قررت أن أكتب إليك لأطلب منك أن تنشر قصتي لكي تدعو أبناء زوجي للحضور إليَّ لكي أعطيهم نصيبهم مما ترك أبوهم رحمه الله من مال. فصورته وهو ينادي أبناءه لا تفارقني منذ كف بصري.. ووجود مالهم الذي حرمتهم منه معي يلسعني بالنار ويذكرني بما فعلت وبما جنيت، وأدعوك لأن تكون شاهدًا عليَّ أني سوف أبريء ذمتي أمام الله مما دخلها من مال حرام حين يحضر أبناء زوجي وأعيد إليهم حقوقهم.

ولتسأل الله لي الرحمة.. ولتسأل أبناء زوجي لي السماح والمغفرة وكفاني ما ألاقيه من عذاب. والسلام عليكم ورحمة الله.



ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

إن رسالتك هذه يا سيدتي من الرسائل القليلة التي لا أجد في نفسي أي ميل للتعليق عليها، لأن ما تقوله كلماتها لا يدع زيادة لمستزيد. إذ ماذا يمكن أن أقول أنا أكثر مما قلت أنت في هذا الاعتراف؟ وأيَّة كلمات يمكن أن تحذر من ظلم الأبرياء وأنانية الإنسان ووساوس النفس الأمارة بالسوء «أردع» من هذه الخاتمة المفزعة لرسالتك؟

إن كارثة البعض هي أنهم يتصورون أنهم لن يسعدوا أبدًا إلَّا بهدم الآخرين، ولـن يرتفعـوا إلَّا فوق جثـث الضحايا.. ولن يرتووا إلَّا بحرمـان الظمأى من ماء الحيـاة، مـع أن الكـرة الأرضية تتسـع للجميع، ويسـتطيع كل إنسـان لـو أراد أن يحقق لنفسـه السـعادة بغير إيذاء الآخرين، وأن يجد الأمان بغير أن يشـرِّد غيره، وأن يعيش في سـلام ويدع الآخرين يعيشـون حياتهم في هدوء، لكن ذلك يبدو صعبًـا إلَّا على من يتقون اللـه فيجعل لهم مخرجًا.. ويغـرس القناعة والطمأنينة في نفوسهم.

إنك تتسـاءلين أهو العقاب! نعم يا سـيدتي هو العقاب بـل هو العدل الإلهي الذي يغيب عن أنظار البعض في قمة اندفاعهم لإشباع أهوائهم، حين يتصورون أن الدنيا بين أيديهم وأنه لا عقاب ولا حسـاب، كما ضحكت أنت مثلًا بشـماتة وابنة زوجك لا تملك لك إلَّا دعاء العاجزين!

الآن انتهى وقت الضحك يا سيدتي.. وجاء وقت الحساب.. ووقت الضعف البشـري، والتماس العفو ممن قسونا عليهم وظلمناهم.. والظلم شر القبائح كما كان يقـول أبو العلاء المعري.. وما أعجب الإنسـان في جبروته.. وما أضأله في ضعفه! لكني لن أطيل عليك في ذلك لأنك قد عرفت الآن كل ذلك وبثمن غال تهـون معه كل أموال الدنيا، أعانك الله عليه وشـفاك منـه، فأما أبناء زوجك فإني أدعوهم للعودة إليك واستعادة حقوقهم التي طابت نفسك لأن تؤديها لهم الآن، وأما دعوتي لأن أكون شـاهدًا وشـهيدًا على ذلك فإني ألبيها مرحبًا بأن أسهم في مثل هذا العمل الخيِّر، لعله يكون طريقك إلى العفو ممن يملك العفو والمغفرة، أمـا عفو أبنـاء زوجك عنك فأمره مردود إليهم إن شـاءوا فعلوا، وهو أكرم وأكثر قربى إلى الله، وإن شـاءوا أبوا حتى بعد اسـترداد حقوقهـم، فلا جناح عليك في

ذلـك ولا جنـاح عليهم لأنـك لا تطلبين «جائزتـك» منهم، وإنمـا تطلبينها ممن يملـك منـح الجوائـز.. وأكبرها شـأنًا أن يقبل توبتـك ويغفر لك ويفـرج كربتك ويغرس الطمأنينة في قلبك.. سـبحانه وسـعت رحمته كل شيء.. وهو على كل شيء قدير.

الطارق المجهول

أنــا ابنة أســتاذ جامعي وأم جامعية مثقفــة، ورثت عنهما حــب العلم والخلق القويم، وعن أمي جمالها الرائع، لكني لم أكن أســعد بالثناء على جمالي بقدر ما كنت أسـعد بالثناء على خلقي وأدبي والحمد لله، وقد تعلمت في أرقى مدارس القاهرة، وحصلت على الثانوية العامة بتفوق والتحقت بكلية الهندسة وتخرجت فيها وعملت بإحدى المؤسســات الحكومية، وبــدأت مرحلة جديدة من مراحل النجاح في حياتي فوفقت في عملي، ومرت أيامي هادئة سعيدة بين أبويَّ، فنحن متفاهمــون متحابون، وفي كل ســنة تجتمع الأســرة في حفل عيــد ميلادي فيقدم لــي أبــي وأمي هدية ونمضي الوقت ســعداء.. إلــى أن بدأ هذا الاحتفال الســعيد نفسه يتحول إلى مشكلة حياتي حين بدأت الشموع تتزايد في التورتة من 26 إلى 27 إلــى 28 إلــى 29 حتى بلغت الثلاثين وتجاوزتها وأنا ما زلت آنســة لم تتزوج، في حين تزوجت معظم فتيات الأســرة وأصبحت لهن حياتهن الخاصة، وبدأت هذه المشــكلة تؤرقنا أنا وأبي وأمي، وإن كان أحدنا لم يجرؤ على مناقشــتها مع الآخــر علــى أمل ألَّا تكون هناك مشــكلة.. فأســرتي طيبة وأنا مهندســة جميلة.. وســمعتي بحمــد اللــه طيبة، لكــن الأيام يا ســيدي مرت دون أن تلــوح في الأفق

أية بادرة لحل المشكلة التي أصبحت مشكلة معترفًا بها، وتضيق بها صدورنا، وجاءت الخطوة الشجاعة من عمي الذي يعمل في الخارج وأكن له حبًّا خاصًا حين سألني خلال أجازة له بمصر هل لك شروط معينة فيمن تقبلين مشاركته حياتك؟ فأجبته بصراحة بأنه لا شروط لي إلَّا الخلق والاستقامة فقط، ورغم غرابة الموقف والإحساس بالمهانة فإن أملي تعلق بعمي وبأن يجيء الحل من جانبه، لأن له معارف عديدين، وتعلقت بهذا الأمل فترة طويلة حتى انتهى تمامًا بعودة عمي إلى عمله فأحسست بغصة.. وسلمت أمري لله، ووطدت عزمي على أن أقنع بما حباني الله به من نعم كثيرة وأشكره عليها، وبدأت أتعوَّد على الوحدة وأصبح عملي هو كل حياتي، ولم أعد أطيل النظر كثيرًا في المرآة.. وأتعلق بالأحلام.. ودفنت مشاعري في قلبي ونسيتها إلى أن جاءت رسالة من عمي يقول فيها إن صديقًا له سوف يزورنا حين يعود إلى مصر في الأجازة، ولم يذكر عنه سوى أنه صديق حميم له، فأيقظت هذه الرسالة المفاجئة كل أحاسيسي القديمة وفجرت داخلي بركان المشاعر المكتومة، وأيقظت في قلبي الأمل في الارتباط بإنسان يشاركني حياتي ويمنحني مالا تمنحه لي أسرتي، وأبثه حبي وأمنياتي وألوذ به من معاناة الوحدة، ويحميني ويحنو عليَّ وتكون بيننا المودة والرحمة التي وصفها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز.

وبدأت أتخيل هذا الزائر القادم من خلال عمي فهو في الخامسة والأربعين، ولابد أن صديقه في مثل عمره إن لم يكن أكبر، ورغم قبولي بهذا الوضع فإنني لم أكن في أعماقي مرحبة بأن أتزوج مَنْ يكبرني كثيرًا، وبين حيرتي بين حنيني للزواج والمشاركة وبين ضيقي بأن أتزوج من قد يكبرني، تمنيت ذات يوم ألَّا يأتي هذا الزائر لكي يجنبني عذاب الاختيار، وفي هذه الظروف تحددت الزيارة

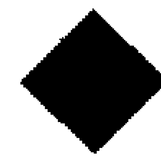
وجـاء الموعـد فألحت عليَّ أمي أن أبدل ملابسـي وأهتم بمظهـري فلم أجد في نفسـي أيـة رغبة في ذلك، ووجدتنـي أقبل الأمر كله بفتور، ثـم دق جرس الباب ودخـل الزائر فوجدت قلبي ينتفض كالعصفور المبلل في صدري.. وإذا بي أمام شـاب لا أعرف كيف أصف لك كم هو وسـيم وكم هو أنيق، بل وكم أحسسـت أنـي أعرفه من قبل، فنفضـت الفتور والمخاوف عني وتفجرت حيوية ونشـاطًا، فقمت مسـرعة لأغير ملابسـي وأنظر إلـى مرآتي وخلال دقائق عـاد إلي جمالي الـذي كنـت فقدته في غمـرة مخاوفـي، وعدت إلـى الصالون، ومضـت الزيارة سـريعة كأنها دقائق، وغادرنا الضيف بغير أن نعرف إذا ما كان سـيعود لزيارتنا أم لا، ووجدت نفسـي ألوم أسـرتي ونفسـي لأن كبرياءنا قد منعنا من أن نحاول أن نعرف هل سيكرر الزيارة أم لا، ومضت ثلاثة أيام على هذه الزيارة، كأنها الدهر كله، ثم عاد الصديق مرة أخرى كأنه القمر الذي يخرج من وسـط الظلام ليبدده. وأسـرعت مـرة أخرى إلى غرفتي ومرآتـي، وعدت إليه فجلسـنا وتحدثنا طويلًا وعرفـت منه أنـه حاصل على ليسـانس الآداب، وأنه في مثل عمري، وأنه سـعد كثيرًا برؤيتي ولـم يكن يتوقع أن تمنحه الدنيا عروسًا مثلي، وكدت أبكي من فرط سـعادتي، وأنا أسـمع هذه الكلمات التي لـم أسـمع مثلها من قبل، رغم تجاوزي لسـن الثلاثين، وسـعدت سـعادة فوق الوصف، وانتهـى اللقاء وأنا أمشـي فوق السـحاب، وخلال الأيام القليلة التالية تم القران وعشنا لحظات العمر، فلم نكن نفترق إلَّا لنلتقي، وانتهى الحلم الجميل بانتهاء أجازته سـريعًا وعودته إلى عمله على أن يعود بعد قليل في أجازة أخرى ليتم زفافنا، وتألمت لفراقه كأني عاشرته عشـر سنين قبل سـفره، ولـم يخفف عنِّي مشاعري سوى رسائله التي ربطت بيني وبينـه، وجـاء الموعد المحـدد للزفاف فحالـت ظروف عملـه دون أن يحضر، وكتب إليَّ أن أسـافر أنـا إليه ليتم الزفاف هناك، ورغم تحفـظ أبي على الفكرة في

البداية فإن حماستي ورغبتي الدافقة في السفر إليه أسهما في إقناعه خصوصًا وأني سأكون في رعاية عمي الذي يعمل هناك.

وجاء يوم السفر فارتديت فستان الفرح الذي اشتقت إليه سنوات طويلة، واحتفلت أسرتي في الصباح بالمناسبة السعيدة ثم ركبت الطائرة إلى مقر عمل زوجي الحبيب.. وهبطت الطائرة في المطار، وأنهيت الإجراءات وخرجت فوجدته واقفًا في انتظاري.. وحده.. بوسامته وابتسامته وفرحته في عينيه، فاندفعت إليه وتعانقنا بقلبينا وتماسكت أيدينا وهرولنا إلى سيارته الصغيرة ليبدأ حفل الزفاف من باب المطار، زفاف في الساعة الثانية بعد الظهر لا يحضره سوى العروسين، وزوجي يطلق بوق السيارة بنغمة الزفاف «بيب.. بيب» ونحن طفلان يمرحان في سعادة حتى وصلنا إلى بيتنا، وبدأت أيام العسل التي ما زلت أعيشها حتى الآن، فلقد مضى على زواجنا أكثر من عامين ونحن نعيش أسعد أيامنا، ولا تتصور أن معنى ذلك أن حياتنا خلت أو تخلو تمامًا من الخصام والمشاجرات فلنا خصامنا ومشاجراتنا التي لا تخلو منها حياة.. لكنها لا تدوم ولا تطول ولا تتجاوز الحدود، وما أحلى السعادة بعد الخصام، ومنذ عام.. انضم إلى عشنا طفلنا الصغير فاسميته باسم عمي الذي جمع بيني وبين حبيبي، فاكتملت به سعادتنا وأقر الله به أعيننا والحمد لله دائمًا على ما أعطى والشكر له في كل آن.

تسألني وما المشكلة؟ فأجيبك على الفور لا مشكلة والحمد لله وإنما دفعني للكتابة لك إحساس بصدق مشاعرك وصدق مشاركتك لأصدقائك على الورق أحزانهم وآلامهم.. فأردت برسالتي هذه أن تشاركني سعادتي التي أعيشها بعد سنوات من الوحدة والألم والخوف، فما أجمل الراحة بعد العناء كما تقول كثيرًا في ردودك، وأضيف أنا إلى ذلك وما أجمل السعادة التي تأتي بعد طول التعب

فلا يحس بها إلَّا من انتظرها طويلًا طويلًا، وأكتب إليك أيضًا لأقول لصديقاتك على الورق اللاتي ينتظرن الطارق المجهول.. ويحسبن الزمن كما كنت أحسبه ويعددن الشموع في عيد ميلادهن، ويتحسرن كما كنت أفعل، اصبرن يا صديقاتي فالحياة تمنعنا لتعطينا بعد صبر ما نستحقه ونتمناه، وسيأتي الطارق المجهول في موعده فتسعدن مثل سعادتي. إن الله لا يضيع أجر الصابرين والسلام.



ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

يا إلهي، لا أعرف ماذا أقول لك.. فرسالتك هذه إن لم تخني الذاكرة هي أول رسالة تصلني خلال هذا العام ولا تصيبني قراءتها بضيق في صدري أو تثير أشجاني، ولقد جاءت في وقتها تمامًا لكي تعفيني من الاعتذار لبعض أصدقاء بريد الجمعة الذين أرسلوا إليَّ على الورق «تأوهاتهم» من كثرة ما تحمله رسائل الباب من مآس وآلام. حتى لقد اقترح علي صديق على الورق في رسالة سأنشرها قريبا أن أسميه «صدمة الجمعة»!

لهذا أقول لك إن رسالتك السعيدة هذه قد صادفت أرضًا عطشي لما يحيي الأمل في النفس، ويدفع عنها الاكتئاب، فلقد أكدت بالتجربة الصادقة ما أومن به وأدعو إليه بلا فتور من أن كل شيء يأتي لمن صبر واستعصم وغالب نفسه فغلبها، ثم أسلم وجهه لله وانتظر، فالدنيا كما قلت بحق تمنع لتعطي

بعد حين، وهي أيضًا لا تعطي لأحد كل شيء في الوقت نفسه.. والناس أمامها في خيار دائم.. بين الالتزام بالقيم الدينية والأخلاقية مع مغالبة النفس وتحمل مشقة الحرمان، وبين الإفراط والتفريط وترك النفس لأهوائها.. ولكل إنسان أن يختار طريقه، لكنه ليس من حق من فرط ولم يستعصم ولم يحرم نفسه من لذة أو نزوة أن يطالب الدنيا بحظ الأخيار الذين صبروا وتحملوا، وقالوا ربنا الله عليه توكلنا وإليه ننيب..، ولا ينطبق هذا فقط على ما يتعلق بأخلاقيات العلاقة بين الرجل والمرأة، وإنما يمتد ليشمل أيضًا كل جوانب الحياة فمن سرق واختلس واغتصب وكسب من حرام، ثم لقي جزاءه أو نجا منه لكنه فقد احترام الآخرين وساء ظنهم به، ليس من حقه أن يطالب الآخرين باحترامه.. أو يطالب الحياة بحظ من ردوا أنفسهم عن الحرام وتحملوا الحرمان على مشقته ودعوا ربهم خوفًا وطمعًا.. لأنه لا يستوي هؤلاء مع هؤلاء مهما شهدت الدنيا من بعض الاستثناءات القليلة التي تبدو متناقضة مع ذلك، ومهما بدا لنا من مظاهر الحياة «اللذيذة» التي يعيشها من تركوا أنفسهم على هواها فالحصاد دائمًا من نفس نوع البذور، وجائزة السماء لا تأتي إلَّا لمن حفظ الله في دينه وعمله ورزقه وتعامل مع الحياة بأمانة وشرف، ولم يفقد صبره ولا إيمانه أمام بعض ما يراه في الحياة من متناقضات، وكل ذلك وأكثر تقوله رسالتك حتى وإن لم يخطر لك على بال عند كتابتها.. كما تؤكد أيضًا ما سبق أن قلته مرارًا من أن الحب قد يولد في لحظة سحرية تكون فاصلًا بين الشقاء والسعادة.. وأننا ينبغي دائمًا ألَّا نيأس من رحمة الله.

ولقد جاءت لحظتك السحرية، فصادفت ينبوعًا هائلًا من الحب المكتوم في قلبك ينتظر فقط من يكسر قشرة الأرض الخارجية ليندفع إلى أعلى، لهذا

فقد مست قلبي كلماتك صادقة المشاعر، وأنت تتحدثين عن تطلعك الحزين إلى السعادة، ثم عن فرحتك الطاغية بها حين جاء الطارق المجهول ليدق باب حياتك.

أما نداؤك الأخير لمن يعشن الآن نفس تجربتك السابقة.. فهو نداء نبيل وصادق، فتأخر سن الزواج بين الفتيات أصبح الآن من ظواهر الحياة المألوفة في مجتمعنا، وزواج الفتاة بعد الثلاثين قد أصبح قصة عادية.. لكن قيمة رسالتك هي في صدق مشاعرها وفي دلالتها الأخلاقية.. وفيما تقوله من أن تأخر السعادة لا يعني أبدًا أنها لن تجيء، وإنما يعني فقط أنها تنتظر الإشارة الإلهية من رب الكون، لكي تهبط فوق رؤوس الموعودين بها، وأن المهم هو ألَّا نفقد إيماننا بالله وبأنفسنا وبأحقيتنا في أن نسعد بكل شيء جميل في الحياة حين يحين الأوان، فشكرًا لك على رسالتك الفريدة.. ودعاء من الأعماق أن يحفظ الله عليك سعادتك وحياتك وأسرتك والسلام.

الضوء الأخضر

أنا يا سيدي زوجة منذ ربع قرن، حاصلة على الدكتوراه وأعمل في معهد للبحوث، وكان زوجي مديرًا لأحد البنوك المعروفة، وقد تزوجنا وعشنا في سعادة غامرة في فيللا في مصر الجديدة وأنجبنا ولدًا وبنتين، وتخرج الابن وأصبح مهندسًا ناجحًا، أما الابنة الكبرى وهي لب المشكلة فقد التحقت بكلية نظرية رغم مجموعها الكبير الذي كان يؤهلها للالتحاق بكلية الطب، ووافقها والدها على رغبتها في ذلك لأنها كانت الابنة الجميلة المدللة التي تجاب مطالبها بلا مناقشة واشترى لها سيارة تذهب بها إلى الكلية.

وكان الخطاب من ذوي المراكز يتسابقون لطلب الزواج منها فرفضت الجميع، وعندما تخرجت في الكلية وقعت الطامة الكبرى، حين أتت إلينا بزميل من الكلية لا يناسب مستواه الاجتماعي مستوانا، وحزن والدها وحزنّا جميعًا لهذا الاختيار، واجتمع الأقارب لإقناعها بالعدول عن قبول هذا الزواج الذي سينقلها إلى بيت قديم في حي شعبي تملكه والدة الزوج، لكنها أصرت على أن الحب والتفاهم هما أساس الزواج السعيد، وأن نقص الإمكانيات المادية لدى الزوج لا يغير من الأمر شيئًا، وأنها لا تستطيع أن «تفصل» لنا عريسا أمه دكتوراه

ووالـده مدير بنك، وهددها والدها بقطع علاقة الأسـرة بهـا إذا تزوجت زميلها، فركبت رأسـها ولم تعبأ بشـيء، وقالـت أيامها إن زوجها على اتصـال بقريب له يعمل في إحدى الدول العربية وأنه سـوف يرسـل إليهما ليعملا هناك في وظيفة راتبهـا كبيـر، وتم الزواج وودعناهـا بالدموع، وأخذها أهل زوجهـا وفي أعينهم لمعـة الانتصـار، وسـحب زوجي منها السـيارة، وبعد أسـبوع من الزواج سـقط زوجـي مريضًا بالشـلل، ونفذت هـي وعدها فلم تهتم بأخبارنـا أو بالاتصال بنا، وأصر والدها على إنهاء دراسـة أختها الصغرى بعد الثانوية العامة وخطبها لابن أخيه لكي لا تتكرر المأساة.

وها قد مضت الآن سـنتان على زواجها، وبقلب الأم الذي يقطر دمًا أرسلت أختهـا سـرًا لأعرف أخبارهـا فعادت حزينة باكيـة، وأخبرتني أنهـا وجدتها ذابلة حزينة، وقد أنجبت طفلًا، ولما استفسـرت منها عن السـفر للخارج قالت لها إن زوجها لا يطيق سـماع سـيرته، وأنه يثـور إذا ذكرته بوعـوده بالعمل في الخارج، ويقـول لها أنت من طينة أهلك لم تتزوجيني للحب، وإنما كنت تحلمين بالعمل فـي الخـارج والثراء السـريع، أو لمـاذا لـم تسـمعي نصيحة أهلـك.. أو هذه هي معيشتي.. ولن أطلقك من أجل هذا الطفل فقط؟

سيدي إني لا يغمض لي جفن ولا أحس بطعم أي طعام منذ هذه الزيارة، وقد استشـرت بعـض أقاربنا من القانونييـن، فقالوا لي إنه مـن الصعب طلب الطلاق لأنهـا قبلت كل هذا بمحـض اختيارها، وها أنذا أعيش ممزقة بين زوج مشـلول وابنة تعمل براتب كان أبوها يعطيه لها مصروف يد وهي طالبة في الجامعة، لكني أعـود فأقول لعل في هذه الرسـالة ما يفتح عيـون طالبات الجامعات إلى أن حب الزمالة ما هو إلَّا جرى وراء العواطف المشبوبة دون الرجوع إلى العقل والتفكير السليم، والسلام عليكم ورحمة الله..

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لقد كنت أتصور يا سيدتي أنك ستكتبين هذه الرسالة بقلب الأم، لتناشدي زوجك أن يرفع الحظر عن الاتصال بابنتك بعد أن مر عامان على زواجها وأنجبت طفلًا وأصبح زواجها أمر واقعًا، أو لتناشدي ابنتك أن تبدأ هي الخطوة الأولى كما ينبغي للابنة دائما فتهرع إلى أبيها المريض لتطلب منه العفو والسماح والاعتراف بزواجها، بعد أن هدأت المشاعر واستقرت الأوضاع، لكني فوجئت في نهاية رسالتك بهذا «النداء» الذي يطالب طالبات الجامعات - كما فهمت منه - بألا يتزوجن إلَّا من القادرين وحدهم وإلَّا كان الزواج جريًا وراء العواطف دون الرجوع للعقل والتفكير السليم!

فهل هذا ما تريدينه حقًا يا دكتوره؟ من أين نأتي إذن بكل القادرين اللازمين ليتزوجوا من طالبات الجامعات؟ وماذا نفعل بملايين الشباب المكافحين الذين يبدأون حياتهم بغير سلاح موروث عن الأسرة أو العائلة.

إنني لا أفضل أبدًا أن تتزوج بنت أو إبن على غير إرادة أبويه إلَّا في حالات نادرة وللضرورة القصوى، حين يتأكد لكل ذي عقل شطط الأبوين وبعدهما عن الإنصاف.. كما أنني دائما من أنصار مبدأ التكافؤ بين الزوجين بكل صوره الماديه والاجتماعية والثقافية، وفي السن بقدر الإمكان، لكنني من ناحية أخرى ضد الترفع على الآخرين وإطلاق الأحكام المتعجلة عليهم بأنهم ليسوا أكفاء

لنـا، لأن هـذا المقياس فضفاض ويعكس نظرة طبقية سـخيفة نحن في غنى عنها والحـق أني أعتبر التكافؤ الثقافي والاجتماعي أكثر أهمية من التكافؤ المادي في نجاح الزواج واسـتمراره، لذلك فإني قد ألومكما لأنكما طبقتما المعيار المادي وحـده فيمـا أتصور في الحكم على زوج ابنتك بأنه غيـر مكافئ لها، وبالتالي في رفـض الـزواج والإصرار علـى ذلك، بعد أن بـدا واضحًا أن ابنتكمـا لن تتراجع عنـه، يا سـيدتي إن من واجبنا أن ننصح أبناءنـا وأن نطلب لهم ما نعتقد أنه يحقق لهـم السـعادة، وأن نبـذل كل جهدنـا لإقناعهم بذلـك.. لكنه ليس مـن حقنا في النهايـة أن نرغمهـم على مـا نريده لهم من خيـر بعد أن يبلغوا من أمرهم رشـدًا، لأنهـم مسـئولون عـن حياتهم فـي نهاية الأمـر، ولقد أدينـا واجبنـا تجاههم ولم نقصـر في حقوقهم، فلا لـوم علينا إذا ما اختاروا ما لـم نختـره لهم، ولا ينبغي أن يكـون ذلك سـببًا للقطيعة والجفـاء، وفي حالتكـم بالذات فهذا هـو آخر ما كان ينبغـي أن تتوقعاه، لأنكما دللتما ابنتكما كثيرًا طوال حياتها.. فكانت كما تقولين الابنة التي تجاب مطالبها دون مناقشـة، ومثل هذه التربية لا تثمر إلَّا شـخصية لا تطيـع أبويهـا إذا اصطدمت إرادتها مع إرادتهما.. لذلك فإني ألومكما أولًا وألوم ابنتكمـا أيضًـا لأنها لم تواصل الحوار مـع أبيها ومعك لإقناعكمـا بالزوج الذي اختارته ولم تبذل كل جهدها للحصول على موافقتكما وسـارعت بالزواج رغم تهديـدات أبيها، ولو فعلت لاضطررتما في النهاية إلى التسـليم برغبتها. كما إني لا أقرهـا أبـدًا علـى جريمتها في حـق أبيها بالابتعـاد عنه وعدم الاهتمـام بأخبار أسـرتها طوال هذين العامين رغم كل شـيء.. فلقد كان من واجبها أن تسعى إليه مهمـا كان مـن رفضـه لزواجها، لا سـيما بعد أن سـقط مريضًا لتطلـب منه العفو والسماح والاعتراف بزواجها كأمر واقع، وبأن يقبل زوجها عضوًا في أسرتها مع

إحاطته بالاحترام الكافي، لأنه لم يرتكب جريمة حين أحب ابنتكما وتزوجها. وفي ظني أنها لو فعلت ذلك لما تمسك أبوها طويلًا بموقفه، ولتغلبت عليه عاطفته الأبوية في النهاية ولانتهت القطيعة والجفاء..، لكني قد أتصور أيضًا أن ابنتك ربما تخشى من رفض أبيها لها ولزوجها إذا ما جاءت إليه.. وهنا يأتي دورك في إقناعه بالسماح لها بأن تأتي إليه طالبة عفوه.

أما أنت أيها الأب الحزين فإني أقول لك في النهاية إن أصحاب القلوب الحكيمة هم وحدهم من يستطيعون تقبل الهزيمة الشخصية بواقعية وروح رياضية، ولا يسمحون لها بأن تفسد قلوبهم بالمرارة.. ولك من تجربتك في الحياة ما يقنعك بأن الحياة هزائم وانتصارات. وليست انتصارات ولا نجاحات على طول الخط، وكما نتقبل من الحياة انتصاراتنا الشخصية ونسعد بها، علينا أيضًا أن نتعلم كيف نتقبل هزائمنا الشخصية عند الضرورة.. ولا نتوقف عندها كأنها نهاية الدنيا. لقد خسرت هذه المعركة بين إرادتك وإرادة ابنتك وانتهى الأمر، وتزوجت ابنتك وأنجبت حفيدًا لم تره حتى الآن.. فلماذا تخسر ابنتك نفسها.. وهي في النهاية ابنتك وقد تزوجت على سنة الله ورسوله.. وليست جريمة أنها تتقاضى راتبًا كنت تعطيه لها مصروفًا شخصيًّا.. ولا هي جريمة زوجها أنه أخفق في العمل في الخارج. والسعادة في النهاية مسألة خاصة من شأن أصحابها وحدهم.. فلماذا نعذب أنفسنا.. بما لا حيلة لنا فيه.. ولماذا إذن لا تعطي الضوء الأخضر لابنتك لكي تعود إليك.. وتعيد أيامكم السعيدة معًا، لعل في ذلك ما يخفف عنك آلام المرض ولعلك ترى في حفيدك سر تواصل الحياة وجريانها كالنهر الذي لا يقف في طريقه شيء.. أفعل يا سيدي وتمتع

أنغام السعادة

أكتب لك هذه الرسالة تعليقًا على رسالة نشرت في هذا الباب منذ فترة ورأيت من واجبي أن أسرِّي عن صاحبها بعض آلامه براوية قصتي الشبيهة بقصته لكيلا يفقد الأمل في الخير والحياة. فأنا يا سيدي شاب كنت منذ سنوات طالبًا في كلية الحقـوق، وبين جـدران الكلية عرفت زميلة لي لاحظت أنها تسـعى إلى التعرف عليَّ وتختلق الأسـباب لذلك، ومع أني لم أفكر في التعرف إليها فإنني استجبت إلـى توددهـا إليَّ وأرضانـي ذلك، ثم توثقـت علاقتنا ولم تلبـث أن تحولت إلى حب جارف صهر روحينا معًا، ودام حبنا كل سنوات الدراسة حتى تخرجنا معًا، وكنـت معفيًّا من أداء الخدمة الوطنية لأني وحيد، ففاتحت أبي وأمي برغبتي في الارتباط بزميلتي، وأعلنا موافقتهما على الفور، واصحطباني إلى بيت عمها الذي تقيم معه منذ وفاة والديها، ورحب بنا الرجل وتم عقد القران سـريعًا، وافتتحت أنا بعد عام من التدريب لدى أحد المحامين مكتبًا خاصًا لي، ووفر لي أبي شـقة لتكـون عش الزوجية، ولم يبخل عليَّ بشـيء، فأصبحت الشـقة كالجنة، وطوال هذه الفترة كانت فتاتي تطير بأجنحة السـعادة، لا تصدق ما يجري وسـعيدة بكل شيء ثم تم زفافنا ونعمنا بالحب والحنان في عشنا الجميل كعصفورين يطاردان

بعضهما البعض في مرح وسعادة.. ثم فجأة صدمت بوفاة أبي الحبيب رحمه الله وحزنت لرحيله، ووجدت نفسي مضطرًا لإغلاق مكتبي للمحاماة لكي أدير عمله التجاري الذي تركه وراءه. وكنت قد سجلت عقد شقة المكتب باسم زوجتي منذ البداية فأغلقته وانصرفت إلى العمل التجاري وتفرغت له.. ووفقني الله في الحفاظ عليه وزاد دخلي زيادة كبيرة، فلم أحرم زوجتي رفيقة الحب والدراسة من التمتع بثمار مما أفاء الله به عليَّ.. فسارعت لتلبية كل رغباتها.. بل كنت لا أنتظر حتى تطلب منِّي شيئًا، وإنما أبادرها دائمًا بتحقيق كل ما تهفو إليه.

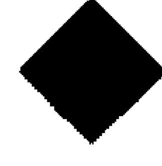
وفي هذه الظروف عدت ذات يوم من عملي فزفت إلي زوجتي البشرى بأنها حامل في الشهر الثاني فكانت فرحتي بالنبأ طاغية وكيف لا؟ وكل رجل يحب أن ينجب من زوجته التي يحبها وتحبه ولدًا «يدشن» العلاقة بينهما ويجعلها أبدية؟ وتضاعف اهتمامي بزوجتي، ورأت أُمّي أن تنتقل للإقامة معنا في الشقة في هذه الفترة بصفة مؤقتة لكي ترعى زوجتي طوال شهور الحمل. وظلت موسيقى السعادة تعزف أنغامها العذبة في عش أحلامنا، وبعد عدة أسابيع من ذلك بدأت زوجتي تفقد أعصابها وتثور لأتفه الأشياء، ثم لم تلبث عصبيتها المفاجئة أن اقترنت بشيء من المرارة والتشكي. من سوء الحظ. وفسرت ذلك في البداية بأنه من تأثير الحمل الأول عليها، لكني لم أفهم حكاية الشكوى من الزمان والحظ هذه، فلجأت إلى صديقتها الوحيدة لأسألها تفسيرًا لذلك فتهربت من الإجابة ولم تشف غليلي. وانقطعت هذه الصديقة عن زيارة زوجتي بعد أن كان لا يمضي يوم لا تلتقيان فيه عندي أو عندها. ومضت الأيام على هذه الحال وزوجتي تتباعد عني بروحها يومًا بعد يوم، حتى توقفت موسيقى السعادة عن العزف تمامًا وخيم على عش الزوجية صمت كئيب. واقتضت ظروف عملي

السفر لمدة ثلاثة أسابيع فودعت زوجتي طالبًا منها أن تراجع نفسها فيما آلت إليه حالنا، لكي نعود إلى عهدنا السعيد، ووعدتني بذلك وهي ترجوني ألَّا أشغل بالي بها وأن أهتم بعملي. وسافرت وعدت بعد ثلاثة أسابيع على جناح الشوق إلى زوجتي فأحسست منذ اللحظة الأولى التي فتحت فيها باب الشقة بشيء ثقيل يخيم على جوها، فالنوافذ مغلقة والستائر مسدلة وأمي ليست في البيت، والشقة كلها تفوح منها رائحة الكآبة، هل للكآبة رائحة يا سيدي؟ لقد شممتها وأنا في الصالة، وقبل أن أخطو إلى داخل الشقة، وقد وجدت زوجة عمها التي استقبلتني بحذر كأنها تهم بإبلاغي بشيء ما وسألتها عن زوجتي فأشارت إلى غرفة النوم صامتة. ودخلت إليها فوجدتها راقدة في السرير شاحبة ضعيفة، وما إن رأتني حتى ألقت برأسها على صدري وسالت دموعها غزيرة وعرفت أنها فقدت حملها وهي في الشهر الخامس وأنها تعرضت لخطر كبير.. فاكتأبت وحزنت لذلك، لكني لم أستسلم للحزن وآمنت بأنها إرادة الله عز وجل، وهو قادر على أن يعوضنا غيره وهدأت روعها.. وعلمت بعد ذلك أن أمي غادرت البيت غاضبة من تهور زوجتي عليها أكثر من مرة، وبعد أن صبرت عليها طويلًا، فاصطحبت زوجتي لزيارتها ومصالحتها، واستجابت زوجتي لذلك وأرضت أمي واستسمحتها وعدنا للبيت، وقد تخلصت من هم ثقيل، ولاحظت بعد هذا أن زوجتي قد بدأت تعود إلى طبيعتها الأولى، وأنها تقترب مني رويدًا رويدًا.. وبدأت تعود راضية سعيدة كما كنا قبل الحمل، وإن لم تعد تمامًا إلى عذوبتها السابقة.

وذات يوم لا ينسى عدت إلى بيتي في الظهيرة فلم أجد زوجتي، وتعجبت لذلك كثيرًا لأنها لم تتعود الخروج دون إذني، وأسرعت أتصل ببيت عمها

فلم أجدها فيه، ثم بصديقتها الوحيدة فوجدتها تدعوني لمقابلتها وفي صوتها نبرة غريبة توجس لها قلبي، وذهبت لمقابلتها فإذا بها تقص عليَّ والدموع في عينيها أقصى ما يمكن أن يسمعه رجل وزوج، فقد طلبت مني أن أطلق زوجتي مؤكدة لي أن زوجتي الحبيبة التي ارتبطت بها منذ السنة الثانية بكلية الحقوق، كانت قبل أن تدخل الكلية مرتبطة عاطفيًّا بشاب كان جارًا لها، لكنه سافر للعمل في الخارج وتركها فلم تجد بُدًّا من التعرف إلى إنسان آخر لكي ترتبط به في المستقبل، وكان الإنسان الذي وقع اختيارها عليه هو أنا، فتوددت إليَّ ونسجت حولي شباكها وتزوجتني، ثم نجح الطائر المهاجر في مهجره واستقرت أوضاعه بعد خمس سنوات من سفره، فتطلع إلى الحب القديم فراسلها على بيت عمها وأكد لها أنه مازال على الحب مقيمًا ويريد الزواج منها، وراسلته الزوجة المصون وهي زوجة وحامل، وأخفت عنه أنها زوجة أو صارحته به الله أعلم، المهم أنها نسجت المؤامرة وأحكمت خيوطها، ولم يقف الحمل عقبة في طريقها فتخلصت منه رغم تحذير الأطباء لها، وتنقلت من طبيب إلى آخر حتى وجدت طبيبًا منعدم الضمير قَبِلَ أن يجري لها عملية الإجهاض وهي في الشهر الخامس مقابل مبلغ كبير، وكادت تذهب ضحيتها لولا أن الله يمهل أحيانًا للخاطئين لكي يعاقبهم بما فعلوا فيما بعد. وباعت شقة المكتب التي كتبتها باسمها في السر.. ثم انتظرت اللحظة المناسبة ورحلت إلى أين؟ لا أعلم؟ كيف سافرت وهي زوجة ودون موافقة زوجها لا أعلم؟ وسمعت كل ذلك من فم الصديقة وأحشائي تتمزق ثم نهضت من أمامها محطمًا وعدت لمسكني فاعتزلت الناس فترة لا أريد أن أرى أحدًا، ولا أن يراني أحد، وفي داخلي إحساس كريه بالعار. ورغم أحزاني فلقد حمدت الله على أني لم أنجب من مثل هذه الزوجة ابنا يتعذب بيننا ويربطني بها إلى الأبد.

وبقيت على هذه الحال زمنا حتى هداني الله إلى الطريق السليم فوجدت ملاذي في العبادة. وأحسست أني أغسل آلامي في بحر من النور الإلهي يغمر روحي فخرجت من عزلتي وعدت إلى حياتي وعملي وطلقت هذه الشريكة الغادرة غيابيًّا، وأحسست بالراحة بعد أن تخلصت من آخر ما كان يربطني بها وهو الورقة البيضاء، وتركتها لضميرها ولحساب ربها عما فعلت، وطهرت الشقة من كل ما يذكرني بها، وأنزل الله سكينته على قلبي وأحسست الأمان في داخلي، ولم يمض عام حتى وضعت إرادة الله في طريقي فتاة جميلة صالحة، تعرف ربها فتزوجنا وعشنا حياة سعيدة هادئة يظللها الحب والتفاهم وبعد عام من الزواج أنجبنا طفلة جميلة. وتشابكت خيوط حياتنا معًا فربطتها برباط متين، وفي كل يوم اكتشف في زوجتي جمالًا فوق جمال وخلقًا أفضل من خلق، وقد ساد السلام حياتي وحياة أمي، واطمأن قلبها علي واطمأنت نفسي لبيتي وزوجتي وطفلتي، فأعطيت عملي وقتًا أكبر، وتمتعت بالمسرات العائلية مع زوجتي التي تحرص عليَّ أكثر من حرصي على نفسي، ومع طفلتي الجميلة التي أعادت مع أمها أنغام السعادة إلى عشنا الصغير، وقد مضت الآن 5 سنوات على زواجي الجديد، وفي كل يوم أشكر الله وأثني عليه أن وفقني إلى هذه الزوجة الصالحة، وأن أنقذني من الأخرى، وقد زادني ذلك تمسكًا بطريق ربي حمدًا وشكرًا له. فقل كل ذلك للصديق كاتب رسالة «الخنجر المسموم» الذي عانى نفس تجربتي السابقة المؤلمة، واطلب منه أن يتجه إلى الله كما اتجهت أنا إليه لكي ينسيه آلامه ويعوضه عما خسر خيرًا، فالدنيا بخير وما رأيناه من غدر فيها ليس معناه أن كل الناس على هذه الشاكلة، لكننا كنا فقط من ذوي الحظ العاثر وقد أراد لنا الله النجاة فنجونا بأمره والحمد لله من قبل ومن بعد.



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

صدقت يا سيدي فيما قلت وفيما رويت عن نفسك، مدفوعًا بأنبل الرغبات في تخفيف آلام الآخرين، والحق أني قد ترددت طويلًا في نشر رسالتك بعد أن لمست من خطابات بعض القراء الشبان أن مثل هذه القصص تثير شكوكهم في وفاء شريكات المستقبل، وتخيفهم من الإقدام على مشروع الزواج، وهي قضية خاسرة ناقشتها من قبل، وسأناقشها مرة أخرى، بعد أن كتب إلي أب فاضل رسالة يحملني فيها المسئولية الأدبية عن «عنوسة» ابنه الذي تخطى الثلاثين ومازال مترددًا أمام مشروع الزواج، وحجته في ذلك هو ما يقرأه من بعض قصص الغدر في بريد الجمعة! ثم يختتم الأب المشفق على ابنه رسالته طالبًا مني أن أستقبل ابنه وأناقشه وأقنعه بفساد رأيه، وأن أترجم ذلك عمليًا بأن أرشح له للزواج من تثبت له خطأ ظنونه، وتؤكد له أن الدنيا بخير وأن الفضليات هن الأغلبية الصامتة في كل زمان ومكان، ورغم أن الأمر لا يحتاج إلى إقناع لأنه سنة الحياة وليس لسنة الحياة تبديل، فإنني أقبل المسئولية وأطالبه بزيارتي عقب عودتي من السفر إن شاء الله، لأبحث معه الأمر من كل جوانبه، وأنت يا صديقي رغم ما تعرضت له من غدر خسيس، وما طعنت به من خنجر مسموم، قد ساعدتني برسالتك هذه التي تنبض بالإيمان بالله وبقضائه وقدره وبالخير الإنساني، لأنك تقدم لهذا الشاب وأمثاله إلى جوار محنة الغدر الخسيس الإيمان الصحيح بسلامة فطرة الحياة الإنسانية واستقامتها، وتكفي في هذا المجال كلماتك الصادقة المصهورة

بلهيب التجربة أن ما صادفنا في حياتنا من حظ عاثر لا يعني أن قانون الحياة هو الغدر وانعدام الوفاء، وإنما يعني فقط كما قلت أنت إننا لسوء الحظ لم نصادف من الحياة سوى وجهها القبيح ومن الناس سوى شرارهم. لكن هذا الوجه الخادع ليس وجهها الحقيقي، وهؤلاء الغادرون ليسوا هم البشر وإنما حثالتهم التي لا تخلو منها حياة ولا مجتمع في كل العصور، والذين لا يمثلون في النهاية سوى بقع سوداء متناثرة في ثوب الطبيعة الإنسانية الخيرة، هذه هي الرؤية الصحيحة التي ينبغي أن ننظر من خلالها دائما إلى كل هموم الحياة، فلست من القائلين مع المتنبي: «**أذم إلي هذا الزمان أهيله**» الذي اختار فيه كلمة «أهيل» تصغيرًا «للأهل» وتحقيرًا لشأنهم، ولست أحترم كثيرًا من يسيء الظن بالحياة وبالناس جميعًا كأنه لا يرى فيها فاضلًا سواه، مع أن هذا الاعتقاد نفسه هو أول دليل على سوء طوية الإنسان وانحراف تفكيره واستشعاره التميز الكاذب عن الآخرين، لأنه لو كان فاضلًا بحق فلماذا يستكثر على البشر أن يكون بينهم من يماثله فضلًا وخلقًا؟

لقد أعجبني في رسالتك أنك لم تفقد ثقتك بالحياة وبالخير الإنساني في محنتك، وأنك سلمت بأن ما تعرضت له هو «**حكم جرى للمليك فينا**» كما يقول أبو العلاء المعري، واتجهت إلى الله بقلبك ومشاعرك فهداك سواء السبيل، ووضع في طريقك من ضمد جراحك.. فبدأت أنغام السعادة الحقيقية مقرونة بأنغام الوفاء تعزف في عشك الجميل.. وشاءت إرادة «المليك» أن يعوضك عن الثمرة الضائعة بنتًا جميلة هي ثمرة الحب والوفاء والكرامة والأمان، فكان حقًّا على الحياة أن تقدم لك كل ذلك وأنت من لم يفقد احترامه لها في أحلك الظروف. وكان حقًّا عليَّ أيضًا أن أشكرك على رسالتك هذه وأن أهديها لكل من أزعجتهم بعض قصص انهزام الحب وانعدام الوفاء من الجانبين.

الملك

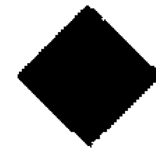
أكتب رسالتي هذه وأرجو ألَّا تستهين بها لأنها ليست مشكلة شخصية بقدر ما هي مشكلة عامة بالنسبة لكثير من الناس. فأنا يا سيدي فتاة عمري 23 سنة. لي أخت تكبرني بعام واحد، ونعيش حياة هادئة في ظل أبوين كريمين، وأسمح لي بأن أقدمهما لك. فأمي سيدة لم تنل حظًا كافيًا من التعليم، لكنها على قدر كبير من الثقافة العامة والذوق وحسن التصرف، وهي في رأيي أعقل زوجة في العالم.. ويكفي أنها تعامل أبي كـ«ملك».. وتقول لنا إن الزوجة إذا عاملت زوجها «كملك» لا تفقد كرامتها ولا تخسر شيئًا بل تكسب لسبب بسيط هو أن زوجة الملك ملكة أيضًا! ولابد أن يؤدي حسن معاملتها لزوجها إلى أن يتصرف معها بأخلاق الملوك ويعاملها هي أيضًا كملكة ولو بعد حين. هذا هو تفكير أمي التي لم تحصل على شهادة، وما تعلمه لنا لنكون زوجات صالحات وبالفعل فإني منذ وعيت على الدنيا لم أسمع أمي مرة تتشاجر مع أبي أو تعامله بجفاء أو توجه إليه كلمة خارجة.. وأقصى ما شهدته من خلافات في مرات نادرة.. هي أن يختلفا في الرأي ويدلي كل منهما بحجتة.. محاولًا إقناع الآخر فإذا ضاق أبي قال: خلاص أنا قلت كده، فتسكت أمي أو تقول له اللي تشوفه يا حاج،

ثـم لا تغضـب ولا تتركـه ليعتقد أنهـا غضبى، بل تعـود إليه بعد لحظـات حاملة فنجـان القهـوة الذي يحبه من يدهـا دون أن يطلب فتنفرج أسـاريره.. ويقول لها لسه مغيرتيش فكرك؟ يتناقشان مرة أخرى ولا تنتهي الجلسة إلَّا باتفاقهما.. هذه هي أمي.. أما أبي الذي يطيل المناقشـة معها ولا يحب أن ينفرد برأيه وحده فهو فـي رأيـي أب مثالي.. يحمل شـهادة لكنه لم يعمل بها ولو عمـل بها لوصل إلى مركز طيب، ولم يعمل بشهادته لأنه آثر أن يقف إلى جوار أبيه في أيامه الأخيرة.. وأن يتحمل معه المسئولية فوقف معه في محله ثم ورث عنه هذا المحل، وعمل فيه إلى الآن، وهو بصفة عامة مظهره جيد جدًّا ولبق في حديثه.. ولسانه حلو كما يقول الناس. وفي هذه الأسـرة الصغيرة الهادئة عشـنا أنا وأختي حياتنا وواصلنا تعليمنا، وأصر أبي على أن نسـتكمل التعليم حتى الجامعة فحصلنا على الشهادة الجامعية، ولم أشـعر فـي حياتي بأننا أقل من غيرنا أو أنه ينقصنا شـيء، رغم أننا لسـنا أثريـاء إلى أن بلغنا سـن الزواج واصطدمنـا لأول مرة بما جعـل الناس منه مشكلة!

فأنا وأختي كنا في الجامعة محل إعجاب كثير من الزملاء والأقارب والجيران، ويقولون عنا إننا على قدر عال من الجمال، لكننا مع ذلك لسـنا من مسـتواهم.. هـل تعرف لماذا لأن المحـل الذي يملكه أبي ويديره محـل «خضراوات» ولأن أبي الذي حدثتك عنه «خضري»!

والحق أني لم أكن أتصور أن مهنة أي إنسان يمكن أن تكون مشكلة اجتماعية، ما دامت عملًا شريفًا وأخلاقه كريمة.. إلى أن بدأت أحس بعكس ذلك مما حدث لي ولأختي من العرسان.. فالعريس يدخل بيتنا ويعجب بنا وبأمي وأبي، ثم حين يعـرف مهنة أبي تنزل عليـه كالصاعقة، بل إن بعض الزملاء فـي الجامعة تغيرت

نظرتهم لنا بعد أن عرفوا بها مع أن عائلة أبي وأمي بها أشخاص في وظائف مرموقة. إنني أكتب هذه الرسالة وأنا في منتهى اليأس لا سألك هل الإنسان بعمله أم بأخلاقه؟ وهل كان الأفضل أن يكون أبي موظفًا لا أخلاق له على أن يكون تاجر خضروات على خلق كريم؟ وهل كان من المفروض على أبينا وأمنا أن يشعرانا بأننا أقل من الناس، لكيلا نفاجأ بما حدث بعد ذلك ثم ما المعيار الذي ينظر به الناس إلى بعضهم البعض؟ وهل لابد أن يكون أبي رئيس مجلس إدارة أو وزيرًا لكي يرضى عنا الناس ويقبلوا بنا؟!



ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

إن أباك يا صديقتي أسعد من وزير أو رئيس مجلس إدارة.. لأنه ملك في أسرته الصغيرة المثالية، وكل إنسان مهما كان عمله يستطيع أن يكون ملكًا في حياته الخاصة إذا توافرت له السعادة والرضا، وعاش حياة هادئة بلا منغصات، وأنني لا أشك في أن كثيرين من ذوي المناصب الذين تتساءلين عنهم سوف يغبطون أباك على هذه «النعمة» التي منَّ الله عليه بها، كما أن كثيرات من زوجاتهم سوف يغبطن أمك على هذ الزوج «الملك» بأخلاقه وسماحته ولسانه الحلو وسعة أفقه وحسن تربيته لكما وحسن معاشرته، وحسن إدارته لمملكته الصغيرة هذه! إن السعادة الزوجية يا صديقتي سر من الأسرار يهب الله مفاتيحه لمن يشاء ولا فضل فيها لثقافة ولا منصب ولا مال ولا جاه. ومن مفاتيحها بالتأكيد هذه النفس

الراضية التي يتمتع بها أبواك، وهذه المشاعر العميقة التي تربط بينهما بسلاسل من ذهب، وهذا الاحترام المتبادل بينهما. وعفوًا فلقد سرحت بعيدًا عن المشكلة الأساسية لأن هذه الصورة الجميلة التي رسمتها لأبويك قد بهرتني فأردت ألَّا تضيع وسط انشغالك بهذه المشكلة السخيفة، وهي مشكلة سخيفة بالفعل لأنها من بقايا رواسب اجتماعية مريضة تتلاشى تدريجيًّا من مجتمعنا، لكن إحساسك بها مازال عاليًا لأنك تتصورين أنها وراء تأخر ارتباطك بالزواج، وإن كنت لا أنكر وجود هذه النظرة السخيفة لبعض الأعمال بلا منطق مقبول، إلَّا أن ذلك وحده ليس كل الأسباب، فأنت وشقيقتك مازلتما في مقتبل العمر وسن الزواج في مجتمعنا قد تأخر إلى ما بعد عمريكما بكثير للأسباب الاقتصادية المعروفة.

ولست أشك في أنه حين يحين الوقت الملائم سوف يتقدم لكما من يستحقكما، ومن يجد في ظروف أسرتك الصغيرة كل ما يفخر به الإنسان العاقل، لذلك فإن الخطر هنا ليس في تأخر الزواج، وإنما في تسلل هذا الإحساس الخطير بالدونية إلى نفسك، وهذا إحساس لا مبرر له بالفعل، لأن أباك رجل شريف ويعمل عملًا شريفًا ومحترمًا وضروريًّا لاستمرار الحياة، وليس هناك مجتمع في العالم كل أفراده من أصحاب المناصب المرموقة، ولو وجد هذا المجتمع لهلك أفراده بعد قليل، لأن الحياة سيمفونية متكاملة لابد من توزيع أدوارها المختلفة على الجميع لكي تتناسق الانغام ويحلو الطرب!

والإنجليز مثلًا يصفهم المؤرخون بأنهم أمة من «أصحاب الحوانيت» أي من أصحاب المشروعات الصغيرة، وأفضل المشروعات التي تحلم بها أية أسرة في أوربا هو أن تمتلك بيتًا صغيرًا تقيم فيه، وتفتتح في جزء منه متجرًا صغيرًا يتناوب كل أفراد الأسرة إدارته، ونحن في بلادنا لو كنا قد عرفنا شرف هذا العمل

فـي الوقت المـلائـم، لما وصلنا إلى أن أصبحنا نشـكو من نقص معظم الأشـياء الضرورية للحياة.. ومن كثرة الموظفين والخريجين الذين لا عمل لهم، ولسـت فـي حاجة إلـى أن أكرر عليك أن الأنبياء لم يكن بينهـم وزير ولا رئيس لمجلس الإدارة، وإنمـا كان بينهـم من رعـى الغنم وعمل صانعًا وتاجـرًا، وهذا الكلام لا جديـد فيـه، ولكني أذكِّرك بـه فقط لكي تطيب نفسـك بأبيك وأسـرتك، ولكيلا تفقدي ثقتك في نفسك وشخصيتك، ولكي تنظري إلى المستقبل في ثقة وأمل، وبالمناسـبة هل تقبـل والدتك تعميمًـا للفائـدة أن تلقي محاضرة عامـة بعنوان: كيف تعاملين زوجك كملك؟!!

المثال

أبعث إليك رسالتي هذه بعد أن ضاقت بي السبل. فأنا امرأة متزوجة وعمري 35 سنة. وقد تزوجت قبيل تخرجي في كلية الهندسة من زميل لي في الكلية كان يسبقني بعامين. وكان زواجي عاديًّا لم تسبقه قصة حب ملتهبه كالتي أقرأ عنها في رسائل البريد، وإنما كان زواجًا تقليديًّا تم عن طريق الإعجاب وتناسب الظروف. أعجبته فتقدم لأسرتي يطلب يدي وأعجبني فوافقت عليه، وبدأنا حياتنا الزوجية كأي زوجين في ظروف عادية متوسطة، وتخرجت في كليتي وعملت مهندسة في إحدى الهيئات، وعمل زوجي كمهندس حر في مجال المشروعات الخاصة، وبعد زواجي بعام رزقت بطفلتي الأولى وكنا نقيم خلال سنواتنا الأولى في شقة من 3 غرف في حي شعبي، وكانت حياتنا تمضي كأي زوجين في بداية الطريق. يخصص لي زوجي مصروفًا شهريًا للبيت، أتصرف في حدوده. وأبذل جهدي لكي يصل بنا إلى آخر الشهر، وأرتدي الملابس البسيطة التي تتناسب مع دخلنا وأشتري متطلباتي الصغيرة من راتبي، أما نزهاتنا فكانت في زيارة الأهل أو الذهاب إلى السينما من حين إلى آخر. ومعظم أمسياتنا نقضيها معًا في البيت.. يعود زوجي من مكتبه في المساء نتناول العشاء معًا ونتسامر قليلًا

ثم نبيت ليلتنا سعداء، وكان زوجي طموحًا فاشترك في عدة مشروعات درت علينا أرباحًا كبيرة، وتوسعت أعماله الهندسية ومشروعاته.. وخلال 8 سنوات تقريبا من زواجنا كان زوجي قد أصبح ثريًا ثراء خرافيًا، فاقترح عليَّ زوجي أن استقيل من عملي، وأن أتفرغ للبيت، وكنت قد أنجبت طفلتي الثانية فرحبت بذلك، لكي أرعى شئون طفلتيَّ الصغيرتين، وبدأت آثار النعمة الجديدة تظهر على حياتنا.. ومن الشقة الصغيرة إلى شقة واسعة حديثة، وأثثناها بأثاث فاخر وأصبحت لنا سيارة مرسيدس آخر موديل ولم يبخل زوجي بأي شيء.

وبدأت حياتنا الجديدة.. ومع ازدياد المال وكثرته الرهيبة تغير كل منا، فاتجهت أنا إلى الله وتحجبت ولزمت البيت، أغرس في البنتين الأسس الدينية والمبادئ الأخلاقية.. وعلمت أن الله هو المعطي وهو المانع، فزادتني النعمة قربًا إلى الله وعرفانا بفضله، أما زوجي فلقد أحس بأن المال يجري بين يديه بعد طول معاناة، فبدأت ليالي السهر حتى الفجر في الخارج، واحتساء المشروبات وارتياد الملاهي والفنادق الكبرى كل ليلة، وبدأ الخلاف يطل كالنذير على حياتنا الهادئة.. وحاولت إصلاحه بكل الطرق باللين وبالخصام وبالهجر، وبالجلسات العائلية التي تنتهي بوعد منه بعد التكرار، ثم لا تمضي سوى أيام حتى يعود إلى ما كان عليه..

وبعد فترة أخرى بدأ يردد نغمة الزواج. من أخرى، مع أن الله قد وهبني قدرًا كبيرًا من الجمال والجاذبية، بل وبدأ يعترف لي بأنه يتردد على الملاهي الليلية وله نزوات فيها، فغضبت وهجرت البيت، فلجأ إلى إخوتي وأعادني إليه مرة أخرى، وبعد عودتي بأيام كنت في المطبخ أشرف على إعداد الطعام فرن جرس التليفون، وإذا بسيدة تطلب الحديث معي لتبلغني بانتقام وتشف أن

زوجـي قد تزوج من امـرأة أخرى. ووضعـت السـماعة ودارت الأرض بي ولم أشـك في صحة النبأ، لأن السـيدة التي أبلغتني به قالت لي إنها تفعل ذلك انتقامًا منه لأنه وعدها بالزواج ولم يف بوعده وتزوج أخرى! وتأكدت من صحة الخبر فواجهتـه في جلسـة عائلية فاعترف وأبدى اسـتعداده لأن يطلقهـا. وطلقها فعلًا بعد زواج دام شـهرًا واحدًا خسـر فيه الآلاف الكثيرة من الجنيهات. ومن عجب أن الظروف أتاحت لي أن أرى فيما بعد غريمتي وأقسـم لك أن أي نفس سـليمة تعـاف النظـر إليها، فهي دميمـة الخلقة لكـن المكياج الصارخ والألـوان الفاقعة والأزيـاء الفاضحـة واللهجة الناعمة واللكنـة الرقيقة في الكلام قـد انقلبتا فجأة عند الطلاق إلى ردح وألفاظ نابية بذيئة هتكت ستار المظهر المفتعل. وظهر كل إنسان على حقيقته.

وهـدأت أحوالنا قليلًا.. لكن الحال لم تنصلح، فقد عاد زوجي سـامحه الله إلى طريقه الأول بعد أسابيع، ورجعت ليالي السهر حتى الفجر وكل مستلزماته، وفشلت كل محاولاتي لإصلاحه وكل محاولاتي أيضًا للطلاق وأعلنها صراحة أنـه لن يعود عن طريقه، ومل إخوتي وهم خمسـة رجال يشـغلون مراكز مرموقة الموضوع لكثرة تكراره فانصرفوا عني يائسـين، وهم أيضًا يرفضون مبدأ الطلاق من أجل بنتي، وأيضًا من أجل لقمة العيش والمأوى لأني تركت عملي منذ سنين ولم يعد لي مأوى سـوى بيتي ويصعب عليَّ أن أجد البديل سـواء في المأوى أو العمل، وما كنت أحسـب يا سيدي أن الإنسان لكي يجد لقمة عيشه ومكانًا يأويه لابد وأن يدفع مقابل ذلك ثمنًا غاليًا من كرامته وآدميته.

لقـد جربـت أن أصبـر واحتسـب.. وتسـاميت بنظرتـي إلـى أبعد مـن ذلك، فبـدأت أنظر إلى الآخريـن الذين ابتلاهم الله بالعجز والمـرض، واعتبرت ما أنا

فيه ضربًا من ضروب الترف إذا قيس بآلام غيري وأفرغت كل همي في القراءة والعبادة، لكن يبدو أن الصمت والتجاهل يغري البعض بالتمادي، فلقد ازداد زوجي انغماسًا في طريقه الجديد، وما كان يحدث سرًا أصبح يحدث علنًا.. وقد عرضت عليه أن أتنازل له رسميًا عن كل شيء: عن الشقة والأبناء والنفقة والمؤخر وأمضي إلى حال سبيلي فرفض كل ذلك.

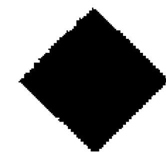
فماذا أفعل يا سيدي.. هل أجاريه انحرافًا بانحراف وعبثًا بعبث؟

هل أكتم غيظي وأندب حظي بين جدران شقتي؟

هل أتخلص من حياتي وأواجه بئس المصير في الأخرة؟

لقد مات أبي منذ فترة، وانشغل عني إخوتي بحياتهم ولم يعد لي من معين في هذه الحياة فهل تساعدني بالرأي في محنتي!

إنني أطلب مشورتك لكنني أرجوك أن تراعي أنني إنسانة أملك المشاعر والأحاسيس، وأني بطبيعتي محدودة الصبر والاحتمال. فماذا تقول لي؟



ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

إنني سوف أجيبك عن تساؤلاتك الحائرة بالترتيب، ثم أشير عليك بما أراه في النهاية. فأما تساؤلك الأول: هل تجارينه انحرافًا بانحراف؟ فأقول لك عنه

يا سيدتي إن الخطأ لا يبرر الخطأ، وأن ما نعيبه على الآخرين ونكاد ندمر حياتنا رفضًا له، لا يحق لنا أن نرتكبه أو نكرره، فضلًا عن أنه يصبح انتقاما من الضحية لا من الجاني، لأنه يسيء إليك أنت ويدمرك قبل أن يسيء إليه هو، كما أن دينك وخلقك لا يقبلان به ولن يسمحا به أبدًا بإذن الله.

وأما تساؤلك الثاني هل تكتمين غيظك وتندبين حظك؟ فأقول لك عنه إن الاكتفاء بكتمان الغيظ وندب الحظوظ لا يغير من الأمر شيئًا ولن يخفف عنك آلامك وربما ضاعفها.

وأما تساؤلك التقليدي عن التخلص من الحياة.. وهو تقليدي لأني أقرأه في رسائل معظم المعذبين إليّ، فإني أكتفي بأن أقول لك عنه إن رفض الحياة فتنة وأن الحياة هبة أعطاها لنا الخالق ولا يجوز لأحد أن يتصرف فيها غير من وهبها لنا.

وبعد ذلك أقول لك إن زوجك يا سيدتي يعيش صدمة الثراء المفاجئ، ولم يفق بعد منها، والناس حيال الثراء المفاجئ ينقسمون، فبعضهم يزيدهم المال تواضعًا لله وعرفانًا بفضله وأداء لحقوقه، ويعرفون كما عرفت أنت أن الله هو المانح والمانع فيزدادون قربًا إليه. والبعض الآخر يتصورون أن المال قد جاءهم على علم عندي كما قال قارون غرورًا واستكبارًا فخسف الله به الأرض، وهؤلاء يطلق الثراء غرائزهم إلى عنانها.. وعدوانيتهم إلى أقصى مداها، فيفسد حياتهم ويدمر الكثير من معنوياتهم.

والثراء الرهيب يا سيدتي يدمر المعنويات عند بعض غير الأسوياء كما يدمر الفقر المعنويات عند البعض الآخر منهم مع أسـ

لهذا فالفقر اختبار.. والثراء أيضًا اختبار، ويجزي الله كل إنسان بما صنع في اختباره.

ولهذا أيضًا قيل الكثير عن ثقل الغنى الذي يغري الإنسان بالمعصية، ويسهل له الطريق إليها، وقال الرسول الكريم ﷺ لعبد الرحمن بن عوف - وهو من هو - ما معناه أنه يكاد يراه فوق الصراط يميل به إلى اليمين مرة وإلى اليسار مرة من ثقل الغنى.. فيبكي ابن عوف هلعًا فيبشره الرسول الأمين ﷺ بالجنة ويصبح من العشرة المبشرين بها.

إلى هذا الحد يورد المال الإنسان موارد التهلكة إن لم يحسن التعامل معه، ويتجنب غوايته ويخدم به مجتمعه ويسهم به في ترقية الحياة من حوله.

والكارثة أن كثيرين من فرسان الطبقة الجديدة التي حققت الثراء الخرافي في 7 أو 8 سنوات كما فعل زوجك من النوع الثاني من البشر، أو على الأقل يكونون هكذا خلال السنوات الأولى من صدمة الثراء، ثم تعتدل موازين البعض منهم ويفيقون إلى أنفسهم.. ولكن بعد أن يفسدوا الحياة من حولهم ويخلفون وراءهم كثيرًا من الشروخ.

والعجيب أن البعض منهم يكتسب الثراء.. لكنه لا يكتسب معه أخلاقياته، لأن للمال أيضًا أخلاقيات عند من يدركون التزاماته الأدبية والاجتماعية ويحسنون التصرف فيه.

فهو يسهل للإنسان السوي الكرم والنجدة والشهامة والمشاركة في تخفيف آلام الآخرين، وهي قيم قد تعوق قلة الإمكانات الكثيرين رغمًا عنهم عن ممارستها، أما الآخرون فإن الثراء يتحول عندهم إلى سلوكيات استفزازية

وإنفاق استفزازي فلا يستفيد المجتمع بفضول أموالهم، وإنما تستفيد به غالبًا العواهر وأرباب الفجور.

ومع كل ذلك فإن زوجك ليس حالة ميئوسًا منها.. وسوف يزهد حياة اللهو ويملها خلال وقت قصير، وسوف يكتشف سريعًا أنه لا شيء يعدل سلام الإنسان النفسي وتمتعه بالحياة الأسرية الهادئة الدافئة في بيته، ولن يتحقق ذلك وأنت بعيدة عن الميدان.. أي وأنت تهجرين العش وتتركين المعبد لغريماتك.. وأنت تثيرين الزوابع معه كل يوم. وتعقدين له المجالس العائلية كل حين، وإنما سوف يتحقق حين تتمسكين بموقفك الرافض لحياته العابثة بلا صدام.. وبلا تحد لأن التحدي يستثير العناد. بل يكفي أن تكوني دائمًا المثال الآخر الذي يظهر الفرق واضحًا بين العفة والخلاعة.. وبين النبل والمتعة الرخيصة، وبين الاحترام والابتذال.. وزوجك يتمسك بك الآن على طريقة بعض العابثين الذين يريدون لأنفسهم حياة اجتماعية مستقرة، ثم ينطلقون على هواهم في الخارج يرددون مع أمير الشعراء «**كل مليحة بمذاق**» لكنه في النهاية عبث لن يطول.. وغواية لن تستمر للأبد، وكلما رأي الرجل في زوجته هذا المثال الآخر وخزه ضميره واقترب به من الندم.. فارخى له حبال الصبر قليلًا يا سيدتي، وسوف يثوب إلى رشده بعد حين، ولا تستجيبي لنزعة قلة الصبر والاحتمال فيك، لأن الأمراض المستعصية تتطلب علاجًا طويلًا، كما يقول المثل الإنجليزي، والتصقي بابنتيك.. ولا تُسدِّى أبواب العودة إليك أمامه، لأن زوجك في حالة عناد تؤجج الثروة من نيرانها لكنه سوف يعود.. وسوف تظلين دائمًا له كما كنت في الماضي وفي المستقبل ملاكه الحارس.. والجوهرة الأصيلة التي تكشف زيف الحلي المزورة. وكل شيء يأتي لمن صبر!!

طريق الآلام

أنا شـاب نشـأت بين إخوة وأخوات في أسـرة متراحمة، عائلها تاجر ميسور الحـال، ومنـذ الصغر بدأت أعاون أبي في تجارتـه، فكنت أذهب إلى المحل في سـاعات فراغي من الدراسة وأشـاركه العمل والإدارة، حتى وصلت إلى الثانوية العامـة فتعثـرت فـي الحصول عليهـا عامين متتاليـن، ورأى أبـي أن أتوقف عن الدراسـة وأتفـرغ للعمل ووافقت، وشـققت طريقي معه في العمـل الذي أحببته ولـم تمـض بضعة شـهور حتى كنت أديـر العمل كله وحدي. لكن شـاءت إرادة اللـه بعد قليل أن يحـدث موقف معين في العمل بيني وبين أبي رأى بعده أنني لا أصلح للعمل وطلب منِّي العودة للدراسة، وبالرغم من أني لم أكن مخطئًا فإنني امتثلت لإرادته لأني نشأت على حبه واحترامه حتى ولو اختلفت معه في الرأي، وهكـذا عُدْتُ لاسـتذكار دروس الثانويـة العامة التي انقطعت عنهـا، وكان لدى أبي في تجارته موظف مشـهود له بالأمانة واسـتقامة الخلـق، يحبني كأحد أبنائه وأحبـه وأحترمه لطيبته وحسـن مودته لـي، وكنت أزوره في بيته كثيرًا واستشـعر الراحـة والأمـان بين أبنائه، ومـن بينهم فتاة هادئة مهذبة فـي المرحلة الثانوية من هذا النوع الذي تشعر من الوهلة الأولى برضائه واستكانته واستسلامه لما تجري

به المقادير. وتوثقت علاقتي بالأسرة فبدأت أستذكر معها دروس الثانوية العامة في بيتها، واستأذنت أبي في ذلك فسمح لي لثقته في حسن تربية هذا الموظف لأبنائه، ورحت أقضي معظم أوقاتي بينهم حتى كلل الله جهودنا بالنجاح فنجحنا معًا. وسعد أبي سعادة طاغية باجتيازي لعقبة الثانوية العامة، وفي غمرة نشوته بنجاحي سألني عن المكافأه التي أريدها عن نجاحي، فطلبت منه أن أخطب هذه الفتاة، فاستمع إليَّ بفهم وقال لي إنه لا يمانع في ذلك فالأب فاضل وأسرته شريفة، لكني أخشى عليك التسرع فأنت شاب والحياة أمامك عريضة، وقد تدخل الجامعة وترى غيرها فتندم على الارتباط بها الآن، لكني أكدت له تمسُّكي بها فوافق أمام إصراري، وبحكمته وطريقته العملية في الحياة رأى أن أتزوجها على الفور ما دمت متمسكًا بها، لكي أستطيع أن أتفرغ للدراسة والعمل الذي عدت إليه بعد نجاحي، بدلًا من الانشغال بزيارتها كل يوم.

فتزوجت فتاتي الرقيقة خلال شهور قليلة، ورأى أبي أن أبدأ السلم من أوله لكيلا أستسهل كل شيء في الحياة، فتزوجنا في شقة صغيرة بأحد الأحياء الشعبية وبأثاث بسيط، وبلا أية كماليات، فلم يكن لدينا سخان ولا غسالة ولا تليفزيون أو حتى راديو، ومع ذلك فقد بدأنا حياتنا الزوجية في قمة السعادة والتحقت بأحد المعاهد التجارية العليا، وعملت كموظفت في تجارة أبي وعملت معي فيها أيضًا زوجتي كموظفة صغيرة، وكان مجموع راتبنا نحن الاثنين يقل عن راتب أي موظف آخر فيها، مع أني من أصحاب المال كما يقولون. ومع ذلك كنا سعداء بأننا نعمل ونكافح لكي نعول نفسينا، وكنا نذهب للعمل في السابعة صباحًا ولا نعود منه إلَّا في العاشرة مساء، وقبيل الامتحان بشهر واحد كنت أتفرغ للاستذكار وتعويض ما فاتني، ثم أدخل الامتحان فيوفقني الله إلى النجاح، وبعد عام من زواجنا أنجبت زوجتي طفلًا جميلًا توج حبنا وكفاحنا

واضطرت زوجتي للانقطاع عن العمل لترعاه، فزاد أبي راتبي قليلًا لأستطيع مواجهة أعباء الحياة، واستمرت أيامنا سعيدة في هذا البيت الصغير، ونحن نحلم بأن نكبر شيئًا فشيئًا.. فنشتري كل ما نريد بالتدريج، ونحلم باليوم الذي أتخرج فيه من المعهد وأبدأ عملًا خاصًا وأنجح فيه، فننتقل من الشقة الصغيرة إلى شقة لائقة، ومن التقشف إلى السعة ومن العناء إلى الراحة. ويبدو أننا أسرفنا قليلًا في الأحلام فقد صحوت ذات يوم على الآم شديدة في بطني ومعدتي لم أقو على احتمالها، وأسرعت زوجتي بنقلي إلى المستشفى فتبين أني قد أصبت وأنا في الرابعة والعشرين من عمري بقرحة في القولون والأمعاء الغليظة، وأحتاج إلى جراحة لعمل فتحة صناعية في جدار البطن لتقوم بمهمة الإخراج بدلًا من الفتحة الطبيعية وتمت الجراحة.

وبدا لي أني أتماثل للشفاء لكن بعد عشرة أيام حدث ثقب في الأمعاء الدقيقه امتد إلى خارج الجسم بعد أن التهمت الأحماض والعصارات الهضمية اللحم والجلد، وعجز الأطباء عن علاجي وتدهورت صحتي ونقص وزني بسرعة رهيبة حتى بلغ 32 كيلو جرامًا فقط، أي أقل من وزن طفل في السابعة من عمره، وأيقن الجميع أن قضاء الله قد حَمَّ وانتظروه بإشفاق عليَّ وعلى زوجتي، التي لم تتجاوز الثانية والعشرين من عمرها وطفلي الذي لم يكمل عامه الأول. وفي هذا الجو الكئيب أسر أحد الأطباء لزوجتي بأن هناك بصيصًا من الأمل في إنقاذي إذا استطعت السفر إلى لندن خلال يومين أو ثلاثة، وعرض نفسي على أحد مشاهير الأطباء الإنجليز الذي ذكره لها بالاسم، وعرفت ذلك من زوجتي لكنني لم أتعلق بالأمل لأنه يفوق إمكانياتي المادية. فأنا موظف صغير لا يملك سوى راتبه، وأين لي بنفقات السفر وبمن يدبر لي العرض على هذا الطبيب خلال هذه الفترة القصيرة، وصرفت الأمر عن ذهني واستسلمت لإرادة الله، وتظاهرت بالشجاعة

وقلبي يتمزق حزنًا على زوجتي التي لم تفارقني طوال الأيام الماضية، وبعد يوم من هذا الحديث جاءني أبي المكافح يبتسم ابتسامته التي تعكس الألم أكثر مما تعكس السعادة، وأبلغني أنه سيرتب سفري على نفقته خلال يومين للندن للعلاج. ووجدت نفسي أقول بغير وعي إنه لا داعي لذلك تمامًا فالأمل ضعيف جدًّا والنفقات باهظة وأنا لست ابنك الوحيد، ولديك أبناء غيري فلن تفقد الكثير بفقدي فإن كان لي رجاء عندك فهو أن ترعى زوجتي وابني من بعدي.

ولتوفر نقودك لكيلا يكون الأمر موتًا وخراب ديار، وكنت صادقًا في كل كلمة نطقت بها، لكني لمحت علامات الألم في وجهه وهو يقول لي بعدها كلمات لم ولن أنساها العمر كله، فقد قال لي أكرمه الله وجزاه عنِّي وعن إخوتي خيرًا عميمًا: يا بني حين يتعلق الأمر «بالضنا» فإنه لا يجوز أن نتعامل معه بنفس الحساب الذي نتعامل به في التجارة أو في أمور الحياة الأخرى. فإن كنت الآن ميسور الحال، فلقد ولدت عاريا وسوف أغادر الدنيا عاريا كما دخلتها. فلا كنت إذن ولا كانت تجارتي إن لم أجر وراء الأمل حتى آخر قرش أملكه وليفعل الله بنا ما يريد، واختنق صوته فانهمرت الدموع من عيني. وانحنى ليقبل جبهتي فأمسكت يده بيدي الضعيفة وبذلت جهدًا كبيرًا لأرفعها إلى فمي وأقبلها قبل أن يسحبها مني في حياء. وبعد يومين من هذا المشهد كنت محمولًا فوق نقالة إلى الطائرة وحيدًا بلا رفيق إلَّا من عناية المضيفات بي اللاتي أشفقن على هذا الشاب الغريب الذي يسافر وحده إلى المجهول.

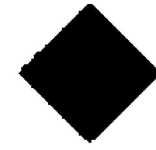
وفي مطار لندن كانت هناك نقالة أخرى تنتظرني لتحملني إلى المستشفى، وبين جدرانها عشت 45 يومًا لا أرى غير الطبيب والممرضة وجدران الغرفة، وشاءت إرادة ربي الذي يحيي العظام وهي رميم أن أشفى وأنجو من الموت، فغادرت المستشفى بعد شهر ونصف الشهر إلى المطار مباشرة، وفي القاهرة

كان أبي وأمي وإخوتي وزوجتي ينتظرونني ومعهم الكرسي المتحرك ففوجئوا بي أعود إليهم سائرًا على قدمي، وكانت فرحتهم وفرحتي بعودتي إليهم طاغية، لكن المتاعب الصحية لم تنته عند هذا الحد. فقد تم علاج الثقب لكن بقيت الفتحة الصناعية كما هي، وطلب مني الطبيب المعالج أن أعود إليه بعد 4 شهور لسد هذه الفتحة، فامضيت هذه الفترة في بيت أبي، وعدت للندن مرة أخرى وامضيت فيها 12 يومًا لم أر خلالها الشارع كما حدث في المرة الأولى، وتم سد الفتحة وعدت طبيعيا كما كنت قبل المرض، واستقرت حالتي الصحية بعدها، فعدت إلى ممارسة حياتي الطبيعية وعدت للعمل والدراسة التي أهملتها ونجحت في امتحان السنة الثالثة، الذي أعاقني المرض عن دخوله وأنجبت طفلة أخرى وحصلت على البكالوريوس، وقررت ألَّا انتظر وظيفة وأن أعمل بالتجارة، وانفصلت عن أبي واستقللت بعملي لكي أعول أسرتي الصغيرة.

وخلال 4 سنوات من العمل والكفاح حققت قدرًا كبيرًا من النجاح مع زوجتي الحبيبة، التي وقفت إلى جواري في المحنة والألم، وحققنا لأنفسنا وطفلينا الكثير مما تمنيناه فاشترينا الكماليات، وانتقلنا إلى شقة أجمل في الحي الذي يقيم به أبي. وبدأت الحياة تبتسم لنا من جديد، فإذا بالمرض يعاودني من جديد فاضطررت لبيع الشقة، ودخلت أحد المستشفيات الكبرى وأجريت جراحة لم تنجح بكل أسف وكادت تودي بي بسبب حدوث تسمم، فأعددتُ كل ما بقي لي من مال وسافرت إلى طبيبي المعالج، ودخلت المستشفى هناك وتم علاجي لكن بغير عودة إلى الحياة الطبيعية إلى الأبد، إذ سأظل بالفتحة الصناعية ما بقي لي من عمر، ورضيت بذلك وقلت لنفسي إنه قضاء أرحم من قضاء آخر كما بقي في جسمي جزء من القولون لم يستأصل بعد، ويسبب لي الآمًا لا قبل لبشر بها ولا علاج لها سوى المسكنات، إلى أن يأتي اليوم الذي أستطيع فيه

استئصاله وعدت لحياتي من جديد أعمل وأكسب وأعاني الآلام ما يذكرني بالآم شيخ الصابرين سيدنا أيوب، وكلما توفر لي قدر من المال ذهبت إلى الطبيب المعالج لاستئصال الجزء الباقي لكي أتخلص من الآلام ومن الحقن المسكنة التي أعيش عليها، فيستمهلني إلى الوقت المناسب، وهكذا مضت 4 سنوات طويلة قبل أن أن يستأصلوا الجزء الباقي من القولون، تحملت فيها آلامًا أقوى من الاحتمال، وتعاطيت خلالها من الحقن المسكنة ما لم يترك في جسمي مكانًا لم تعرفه الحقن، حتى كدت أدمنها وحين طلبت مني زوجتي أن أقلل منها نظرت إليها في عتاب، ولعلها المرة الأولى خلال 8 سنوات التي تألمت فيها منها وقلت لها حتى أنت لا تدرين بعذابي؟ فبكت بشدِّة وأقسمت أنها تحس بما أتحمله من آلام لكنها تخشى علي من الإدمان فطلبت منها إدخالي مصحة لأتخلص من الحقن، ودخلت المصحة فعلا وتحملت نظامًا علاجيًا جديدًا لا يتخيل أحد آلامه ولا عذابي فيه، لكنني تحملته بجلد وصبر يفوق التصور، حتى لقد مرت علي لحظات تعبت فيها من كل هذا الألم الذي يمكن أن يتحمله جسم الإنسان الضعيف، لكني لم أفقد صبري ولا إيماني بالله ورضائي بما اختاره لي، حتى تم شفائي بأمر ربي، فالتأم الجرح تمامًا، ولم أعد في حاجة إلى الحقن، وكان ذلك قبيل شهر رمضان الماضي فنويت الصيام قربى لله وشكرًا له، واستطعت أن أصوم لأول مرة منذ 4 سنوات حتى في الأيام التي كانت نفسي تعاف فيها السحور كنت أصوم وأتحمل الجوع كما تحملت الآلام التي تهد الجبال، وبعد فترة نقاهة قصيرة عدت إلى العمل وبدأت حياتي من جديد مع زوجتي، وحين أعود من عملي الآن وأجلس بين زوجتي وأطفالي، وأرى زوجتي تتحرك بين المطبخ وحجرة المعيشة وتداعب هذا وتلاعب تلك، ولا تغفل عيناها عنِّي في كل لحظة، فما إن أرفع وجهي إليها لأطلب منها شيئًا

إلّا وأجد عينيها تتابعانني، وتنتظران إشـارتي وحين يجمعنا التليفزيون في جلسة هادئـة بعد نهار من العمل، ونحن نعيش جو المـودة والرحمة والحب المتبادل، أعرف كم كان فضل الله عليَّ عظيمًا، فلولا وقوف زوجتي إلى جواري ورحمة أبـي بـي في المرة الأولى، مـا اجتزت هذه المحنة ولما اسـتطعت أن اعتمد على نفسـي فـي اختيار باقي مراحلها، فالإنسـان يا سـيدي يسـتطيع أن يعيش سـعيدًا راضيًـا مهمـا كان به من ألـم، ومهما كانت ظروفه صعبة إذا أحب البشـر وأحبوه، وآمن بالله وبقضائه وقدره، وتحمل أقداره راضيًا. فالمال لا يحيي ولا يميت ولا شيء يعدل راحة القلب واطمئنان الضمير، والثقة بالله. هدانا الله جميعًا وخفف آلامنا وألهم كل المعذبين الصبر على الشـدائد والابتلاء والاختبار، كما صبرت وكما تحملت. والسـلام عليك وعلى قرائك من المعذبين والمهمومين ورحمة الله وبركاته. مع تحيات أسعد إنسان في الوجود لك ولهم.



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

إن خيـر مـا يفعلـه المـرء بعد قـراءة رسـالة صادقة ومعبـرة كرسـالتك هذه، هـو أن يصمـت لفترة يلتقط خلالها أنفاسـه ويسـتعيد فـي ذهنه وقائعهـا ويتأمل معانيهـا ودروسـها، فالحق أن شـحنة الصدق والألـم والأمل فيها تعقد اللسـان وتمنعه من الكلام، ولو تُرِكْتُ لنفسي لما علقت عليها بكلمة واحدة لأنها ليست في حاجة إلى تعليق ولأنها من الرسـائل القليلة التي يحس الإنسـان بعد قراءتها

أن نظرته لمشاكله الخاصة قد اختلفت عن ذي قبل، وبأن استعداده لاحتمال همومها الصغيرة قد أصبح الآن أقوى وأكبر بعد أن تلقى منك هذا الدرس في احتمال الآلام والإيمان بالله والرضا بكل ما تقذفنا به أمواج الحياة.

فإذا كنت تصف نفسك في نهاية رسالتك بأنك أسعد إنسان في الوجود، فأنت أحق بذلك وأجدر، لأن من عانى الألم ازداد تذوقه لنسائم الحياة الرطيبة حين ترق له، ولأنك يا صديقي قد استعنت عليه بالإيمان والصبر، وأنفاس الحب التي تتنفسها مع زوجتك المحبة المخلصة التي شاركتك رحلة الآلام، وليس هذا من قبيل المغالاة فلقد ثبت بالعلم والتجربة أن من يتنفسون الحب في حياتهم الخاصة أكثر قدرة على احتمال الألم من غيرهم، بل وأكثر نضارة وأطول شبابًا ممن يتنفسون البغض والشحناء والمرارة في حياتهم. وهكذا تكرر الحياة معك قصتها القديمة الجديدة، حين تمنح وتحرم وتسخو وتبخل. وتعطي وتمنع فتتساوى الأقدار في النهاية كما هي الحال غالبًا في هذه الدنيا التي لم ترو ظمأ أحد أبدًا. لكنك يا صديقي جدير بالحب والسعادة والنجاح، لأنك امتحنت بأشد البلاء فصبرت عليه، واقتربت من الله فقربك إليه وطلبته فوجدته وعرفته فعرفت الخير كله، ورضيت بما قسم لك فأراح قلبك وبدنك وصرت عنده محمودًا كما تقول معاني الحديث القدسي المعروف، فواصل طريقك يا صديقي شاكرًا راضيًا باذرا الحب والخير والعطاء حولك، ونعلم أنه مَا مِنْ وخزة ألم تحزنا بها الدنيا إلَّا ولنا بها عند الله أجر عظيم، وأنت قد مشيت طريق الآلام حتى استوفيته، وحق لك أن تهنأ الآن بحياتك وأسرتك، وبقوة إرادتك وبحكمتك التي تعينك على تقبل الحياة والتواؤم مع متغيراتها مع خالص مودتي وعظيم إعجابي.

نهر الحنان

بدأت قصتي حين كنت طالبة في كلية التجارة في التاسعة عشرة من عمري. فتاة جميلة ومرحة وطيبة وتحلم بالمستقبل السعيد، ففي هذه المرحلة من العمر تقدم لخطبتي طبيب شاب، فرفضت في البداية، لكن أبي أقنعني بقبول الخطبة فوافقت، ثم لم ألبث أن ارتحت إلى خطيبي لما لمسته فيه من تهذيب ورقة في المعاملة، وبدأت فترة الخطبة، فشهدت خلافات كثيرة بين أبي وخطيبي حول المسائل المادية، حتى جاء يوم عيد ميلادي وجاء خطيبي ليصحبني لنحتفل معًا بالمناسبة السعيدة، فشاءت الظروف أن يتجدد الحديث بينه وبين أبي حول المسائل المالية ثم تطور الحديث إلى جدال عنيف فخرج خطيبي ثائرًا منفعلًا، فاستأذنت أبي في اللحاق به لأهدّئه وخرجت مهرولة وراءه فلحقت به عند السيارة، وركبت بجواره وطلبت منه أن ينسى ما حدث، وأن نذهب إلى الكازينو الذي اختاره من قبل لنحتفل فيه بعيد ميلادي كأن شيئًا لم يكن، لكنه ظل على ثورته يقود السيارة ويقذفني بالكلام الجارح، وهو في قمة الانفعال ويرتجف من العصبية والانفعال، وأنا أبكي والسيارة تمضي بنا في شوارع القاهرة المزدحمة، حتى أفقت فجأة على صوت ارتطام شديد في السيارة من الجانب الذي

أجلس فيه، ولم أشعر بعد ذلك بشيء إلَّا وأنا راقدة فوق سرير في أحد المستشفيات. وعرفت بعد أيام أن السيارة قد اصطدمت بسبب عدم تركيز خطيبي بأتوبيس عام، وأن جروح خطيبي سطحية أما جروحي أنا فكانت جرحًا غائرًا في جبهتي.. وجرحًا كبيرًا في كتفي، ثم وهو الأهم جرح داخلي عميق أو تهشم بمعنى أصح استدعى تدخلًا جراحيًّا.. وانتهى بأن أصبحت عقيمًا غير قادرة على الحمل والإنجاب. وتماثلت للشفاء بعد فترة وخرجت من المستشفى حزينة يائسة. ومع ذلك فقد رفضت أن يذكر أحد خطيبي بسوء أمامي، أو أن يعتبره مسئولًا عما حدث لي، فما جرى قد جرى ولا راد لقضاء الله. ولا فائدة من اتهام خطيبي وهو في النهاية حصني وملاذي الذي سأقاسمه الحياة بخيرها وشرها. وحرصت على ألَّا أشعره بأي شيء من ذلك، لكني لاحظت أن زياراته لي قد تباعدت وأنه يجيئني فيجلس صامتًا بالساعات، كأنه لا يجد ما يقوله لي. فأدركت أنه قد أعاد حساباته، وقررت أن أعفيه من وعوده لي. فلم ينتظر سامحه الله أن تأتي المبادرة منِّي وفاجأني بخطاب يعتذر فيه عن عدم إتمام «مشروعنا» وصدمت صدمة أليمة، وثار أهلي لكني قررت مواجهة الموقف بشجاعة.

وبعد فترة قصيرة من الاحتجاب ومراجعة النفس تأهبت للعودة لممارسة حياتي، فعدلت تسريحة شعري بحيث أسدل بعض خصلاته على جبهتي لإخفاء جرحها، وتكفلت ملابسي المحتشمة دائما بإخفاء الجرح في كتفي، وخلعت الدبلة وعدت إلى كليتي فواصلت الدراسة حتى تخرجت وعملت، ومضت سنوات العمر متشابهة بطيئة توفى خلالها أبي وتزوجت شقيقتي وأشقائي، وخلا لي البيت فعشت فيه وحيدة حزينة لا أمل لي في زواج ولا في إنجاب، وكلما تقدم لي شاب عارضًا علي حبه ورغبته في الزواج منِّي صارحته بحقيقة

ظروفي. فيشكرني على صراحتي، ثم يذهب من حيث أتى ولا يعود. حتى بلغت الثامنة والعشرين من العمر وأنا على هذه الحال.

وذات يوم ضقت بوحدتي في مسكني، فقررت أن أمضي أجازتي السنوية في بيت شقيقتي المتزوّجة في الريف، وهو بيت صغير جميل أجد فيه راحتي، وأجد في مداعبة ابنتها الصغيرة ورعايتها سلواي ومتعتي، وأمضيت أيامًا مع أسرة شقيقتي، ثم جاءها ذات يوم صديق حميم لزوجها ليودع طفليه الصغيرين عندها لاضطراره للسفر في رحلة عمل قصيرة وبسبب مرض المربية، وانصرف الصديق بعد أن اطمأن على طفله وطفلته، ووجدت نفسي اقترب منهما وأداعبهما وأقص عليهما الحكايات وأشاركهما ألعابهما البريئة، وأتولى شئونهما حتى أودعهما الفراش في المساء، وتكرر ذلك في اليوم التالي وعرفت من شقيقتي قصته، فهو أرمل في الثلاثينات من عمره، رحلت زوجته عن الحياة بعد عشرة لم تكن طيبة، ولم ترع خلالها حقوق ربها في زوجها وولديها، فكان رحيلها نهاية لعذابه معها، وبداية لوحدته ومعاناته مع طفليه اليتيمين. ففهمت لماذا خفق قلبي عندما رأيته، ولماذا غزا هذان الطفلان المحرومان قلبي منذ اللحظة الأولى، وعاد الصديق ليسترد طفليه فحزنت لذهابهما وتمنيت لو رأيتهما مرة أخرى، ومرت أيام وتكررت زيارات الصديق، ثم فوجئت به يطلب منّي الزواج، وقبل أن أجيبه بالرفض أو القبول فوجئت به يصدمني بقوله إن زواجنا سيكون إذا وافقت «زواجًا أبيض» أي زواجًا على الورق فقط، لأنه وبصراحة بالغة قد كره الزواج وكره النساء مما عاناه من غدر زوجته الراحلة، ومن طعناتها له، وأنه سيتزوج من أجل طفليه اللذين يريد لهما أمًّا صالحة وحياة مستقرة، لا سيما بعد أن لاحظ ارتياحهما لي وارتياحي لهما، وبقدر ما فرحت بعرضه بقدر ما حزنت له إذ لماذا

يتخيل أني سأقبل هذا الزواج الناقص؟ وأنا ما زلت فتاة جميلة لم تتزوج بعد إلَّا إذا كان يعتبرني عانسًا سوف تقبل بأي شيء.

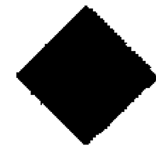
وأمضيت ليلة كئيبة وأنا أفكر في عرضه وكدت أرفضه، لولا أن تمثلت لي صورة الطفلين البريئين فهدأت أفكاري وقرر قبول الزواج منه. وفي اليوم التالي أعلنت للجميع موافقتي، وكانت حجتي لإقناع إخوتي به إنني لا أستطيع أن أواصل حياتي وحيدة في مسكن واسع بلا رفيق ولا أنيس إلى الأبد، وفكرت في أن أخبره عن آثار الحادث، لكني تذكرت ماذا جره عليَّ ذلك من قبل لي فجبنت عن إبلاغه به، وأعفيت ضميري من اللوم بأن زوجي لا يريدني سوى أم لطفليه، وتم عقد القران وانتقلت إلى بيت زوجي، وبدأت أيامي فيه سعيدة ازداد فيها تعلقي بالطفلين، وشكرت الله على زواجي من هذا الرجل الطيب الكريم، وشيئًا فشيئًا وجدت حبه يتسلل إلى قلبي وينمو داخله رغم «زواجي الأبيض» منه، ورغم بعض رواسب الشكوك القديمة في نفسه من أثر معاناته مع زوجته الراحلة والتي كانت تطفو أحيانًا في معاملته لي، فتثير بعض الخلافات والمشادات الصغيرة، ورغم احترامي له فقد اضطررت يومًا لأنَّ الفت نظره إلى أنه ليست كل النساء متشابهات. وأنني لن أكون يومًا كزوجته السابقة. فرأيت نظرة الألم في عينيه، فندمت وبكيت واعتذرت له، لكنه انصرف عني حزينًا، فتعلمت من يومها أن احتمل الألم وأن أدعه يفرغ معي همومه وآلامه السابقة إلى أن يستريح ويسترد ثقته بالحياة والبشر، وحدث بعد ذلك حادث صغير ساعد على ذلك. ففي إحدى هذه الأزمات العابرة نشب جدال عنيف بيننا فراح يهزني بقوة وأنا أبكي بحرقة ثم توقف فجأة ليسألني عن جرح جبهتي، فقد تراجعت خصلات شعري عن جبهتي وهو يهزني، فرآه وتوقف ليسألني عنه بهدوء، فرويت له عن

حادث التصادم وعن الجرح الآخر بكتفي، وحاولت إخباره عن آثار الحادث الأخرى على عقمي فلم أستطع فسكتت ثورته فجأة، وتحول إلى إنسان رقيق طيب كعادته واصحطبني معه إلى سهرة في الخارج، وبدأ يصطحبني معه كثيرًا إلى سهرات وتوقفت قسوته وازدادت رقته وطيبته وازداد حبي له وتعلقي به.

وبعد شهور من زواجي مرضت طفلتنا الصغيرة، فنقلتها لفراشي لأرعاها خلال الليل، وعاد زوجي من الخارج ففتح غرفة الأولاد ليطل عليهما كما تعود كل ليلة، فلم يجد ابنته فيها فجاء إلى غرفتي منزعجًا، فوجدني ساهرة عليها أغير لها كمادات الماء المثلج وأداعبها، فرق قلبه لي ولها وجلس معنا وقتًا طويلًا يحدثنا. ثم انصرف وهو يحذرني من انتقال العدوى لي.

وشفيت ابنته بعد قليل ومرضت أنا، وارتفعت حرارتي إلى درجة خطيرة، فإذا بزوجي يعتذر عن عدم الذهاب إلى عمله، ويبقى إلى جانب سريري ليكرر معي ما فعلته مع طفلته، ويعطيني الدواء ويقوم على خدمتي، ثم إذا به وأنا في شبه غيبوبة من الحرارة، يعترف لي بأنه أحبني ولن تهنأ له حياة إلَّا معي. فأجد نفسي رغم الحرارة والمرض والهذيان أعترف له أنا أيضًا بحبي من بين دموعي، ومرت أزمة المرض بسلام. وجاء حبيبي إليَّ ليقول لي إنه يريد أن يوثق روابطه بي بأن ننجب طفلًا وأكثر لتكون لنا حياة طبيعية كاملة، فوجدت لساني يتجمد في حلقي ودقات قلبي تتلاحق وتعلو حتى خشيت أن يسمعها، وغضب زوجي لصمتي فانصرف عني غاضبًا ومتباعدًا، وما زال كذلك حتى الآن، فماذا أقول له يا سيدي؟ هل أقول له إنني عقيم وأخفيت عنه ذلك منذ البداية؟ أم أقول له إنني فأرة جبانة خشيت أن تفقدك فأخفت عنك ما تصورت أنه لا يهمك؟ ثم كيف أبلغه بذلك هل أكلف شقيقتي بذلك؟ أم تؤدي لي هذه الخدمة فتنشر

رسالتي فيقرأها ويعرف سري بغير أن أتحمل مشقة إبلاغه به، ثم ماذا تراه سيفعل بعد أن يعرف ذلك، هل سأفقد زوجي الذي أحببته وسكنت إليه بعد طول معاناة؟ وماذا أفعل يا سيدي لكي أتجنب ذلك؟



ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

يا سيدتي إن الأمر أهون كثيرًا مما تتصورين، ولن يهدد حياتك ولن يفقدك زوجك إن شاء الله. فزوجك ليس راغبًا في أعماقه في إنجاب المزيد من الأطفال، لكنه رجل عادل أدرك بعد أن تزوجك وأحسنت معاشرته، وامتصاص معاناته ورعاية طفليه، أنه قد ظلمك بما فرضه عليك من شروط قاسية قبل الزواج، ورأى أن من واجبه وقد تفجر حبك في قلبه ولمس حبك له وإخلاصك أن يعفيك من هذه الشروط الظالمة، وأن يعفي ضميره من وزر حرمانك من الإنجاب مراعاة لظروفه هو وحده. وهكذا أعلنك رغبته في أن ينجب طفلًا يوثق الروابط بينكما، لكنه في الحقيقة لا يريده ولا يحتاج إليه، ولن يضيره بكل تأكيد أن يتنازل عنه، وقد منحته الحياة زهرتين جميلتين تنموان تحت رعايتك وتتمتعان بأمومتك، ولا أبالغ إذا قلت إن هذا هو الوضع الأمثل بالنسبة له ولطفليه، لكنه لا يريد أن يظلمك ولا أن يحرمك مما يتصوره حقًا لك لتتواصل الحياة بينكما وتتعمق جذورها. فإذا ما صارحته الآن بحقيقة الأمر فلسوف يرحب به في أعماقه، وسوف يزداد تمسكًا بك، لأن ضميره سوف يطمئن إلى أن طفليه لن

ينافسهما في قلبك ورعايتك أحد، وأن أسرته لن تعرف بعض المشاكل التي تنشأ أحيانًا بسبب التفرقة في المعاملة بين الأبناء في مثل هذه الظروف.

إذن فمن هذه الناحية فلا خوف على سعادتك، لكنك قد أخطأت بلا شك في إحجامك عن إبلاغه بالأمر قبل الزواج، لأن المصارحة هي أساس الثقة دائمًا، ولأنك لم تدركي الفارق الجوهري بين ظروفه وبين ظروف من تقدموا لك من قبل، فلم تتنبهي إلى أن هذا السر الذي تخفينه هو بالنسبة له من المميزات وليس من العيوب، لكني ألتمس لك العذر على أية حال، وأتصور أيضًا أن زوجك العادل سوف يلتمسه لك وسوف يفهم دوافعه.. ويعرف أنك أخفيته أصلًا رغبة فيه وأملًا في الارتباط به ،ولأن أقصر الطرق إلى الأهداف الشريفة هي الخطوط المستقيمة. لهذا فإني أنصحك بأن تصارحيه الآن بنفسك وحتى قبل أن يقرأ هذه الرسالة. ولا تخشي شيئًا يا سيدتي، فكلاكما يحتاج إلى صاحبه بنفس القدر وبنفس الرغبة، وقد عبرتما معًا مرحلة التجارب والمعاناة والشكوك، وتفجر ينبوع الحب صافيًا في قلبيكما.

وفي مثل هذه الظروف لا يهدم الإنسان خلية النحل التي يجني منها العسل، لسبب مثل هذا، وإنما يحفظها ويرعاها ويعفو عما سلف، لكي تتواصل الحياة ويستمر في جني رحيق الحب معك، ولا شك أنك تستحقين كل ذلك وأكثر، فلقد صبرت على زوجك وتحملت الكثير معه حتى تفجر الينبوع في قلبه ورعيت الله في حقوق طفليه، واستسلمت لأقدارك راضية مستكينة ولم ينضب أبدًا نهر الحنان في أعماقك تجاهه، وتجاه طفليه، حتى وأنت تتعرضين لبعض انفعالاته ومراراته القديمة.. لذلك فمن العدل ألَّا يتخلى عنك زوجك مهما جرى، وأن تهدأ مخاوفك.. وأن تنعمي بالسعادة مع أسرتك الصغيرة إلى الأبد إن شاء الله.

الحذاء

أكتب إليك بعد أيام من قراءتي لرسالة «الصفعة» للطالبة الجامعية التي اضطرت للعمل في بيت إحدى الأسر، فأساء رب الأسرة معاملتها وتَرَكْتَها بعد أن نزل على وجهها بصفعة دامية أمام ضيوفه.

وأنا أكتب لك لأنه كان لهذه الرسالة شأن في حياتي، فأنا طالبة جامعية مثل تلك الطالبة، لكنني أدرس في كلية عملية مرموقة لا تقبل إلَّا المتفوقين، ولا يصمد لنفقات الدراسة فيها سوى القادرين. لذلك فقد تعثرت فيها واضطررت لتقديم اعتذار عن عدم دخول الامتحان أكثر من مرة بسبب ظروفي القاسية، واضطراري للعمل لأعول نفسي وإخوة أربعة، وجدت نفسي مسئولة عنهم بعد رحيل أبي وأمي بغير مورد سوى معاش ضعيف، ولعلك تذكرني فلقد جئت إليك منذ أكثر من عام وطلبت مساعدتك في حل المشكلة التي كانت تواجهني وقتها، وهي رفض الكلية قبول آخر اعتذار تقدمت به لها مما يعني فصلي بسبب تجاوز مرات الرسوب، فإذا كنت قد نسيتني بين عشرات ممن تراهم.. فإني لم أنس حتى الآن دهشتك وتأثرك برزانة ملابسي، وأنت تسمع لي صامتًا ثم تكلف زميلة فاضلة لك بالذهاب إلى الكلية ومقابلة رئيسة القسم، التي كانت تعترض

على قبول الاعتذار. كما لم أنس لهذه الزميلة الكريمة مجيئها إلى الكلية جزاها الله عني خير الجزاء. ومقابلتها لرئيسة القسم وللعميد، وإنفاقها وقتًا طويلًا في شرح ظروفي ومخاطبة إنسانيتها حتى وعدت بتأييد طلبي في مجلس الكلية، وقد استغرق ذلك أيامًا طويلة ترددت على بريد الأهرام خلالها أكثر من مرة حتى كلل الله مسعاكم ومسعاي بالنجاح، وقبلت الكلية اعتذاري، وفي أحد هذه الأيام فوجئت بمساعدك الفاضل يحدثني بأدب وينقل لي رأيك وهو أنه يجب علي أن أتفرغ للدراسة هذا العام على الأقل، لكي اجتاز عقبة هذه السنة، لأنها فرصتي الأخيرة لاستكمال الدراسة، ويبلغني أنك ترى أن يقدم لي بريد الأهرام مساعدة مالية منتظمة حتى اجتاز هذه السنة الصعبة، ثم يوجد لي بعدها عملًا خفيفًا ويتوقف عن مساعدتي، وبعد ذلك حاول أن يقدم لي مبلغًا كبيرًا كبداية لهذه المساعدة، فشكرته وشكرتكم واعتذرت عن عدم قبول المبلغ، لأني قادرة على العمل وغادرتكم شاكرة لكم نواياكم الطيبة.

وواصلت كفاحي في الحياة مع إخوتي، فوجدت لاثنين منهما عملًا صغيرًا أسهم في تخفيف الأعباء، وركزت جهدي في الدراسة إلى أن انتهى العام الدراسي، وبدأ الصيف، فرحت أبحث عن عمل كعادتي، وذات صباح قرأنا إعلانًا في الأهرام كالإعلان الذي قرأته كاتبة رسالة الصفعة يطلب فتاة أو سيدة لرعاية شئون ابنتين، فاتصلت برقم التليفون وتقدمت لربة هذه الأسرة فسألتني عن شهادتي الدراسية، فادعيت لها أني حاصلة على شهادة متوسطة.. فرحبت بي وسلمتني العمل، وبدأت عملي معها فكانت سيدة رحيم وكان زوجها رجلًا مهذبًا كريمًا، وبدأت أذهب إلى بيت الأسرة كل صباح فأعمل حتى المساء، ثم أعود إلى الغرفة التي تجمعني مع إخوتي.. ومضت الأمور هادئة لكني

لاحظت أن الأسرة لها ابنة واحدة صغيرة في حين كان الإعلان يتحدث عن ابنتين، وقبل أن اسأل عن الأخرى، سمعتهم يتحدثون عنها وفهمت أنها مسافرة إلى الخارج في رحلة سياحية بعد انتهاء الامتحان.

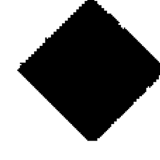
وكانوا ينتظرون موعد مكالمتها من الخارج بلهفة، ويتحدثون عنها كثيرًا فاشتقت إلى رؤيتها.. خصوصًا بعد أن قالت لي السيدة إنها في مثل سني، وأعطتني بعض ملابسها القديمة فكانت بالنسبة لي أكثر من جديدة، ومضى شهر على هذه الحال، كان الأبوان خلالها كثيري السفر بحكم عملهما، فأمضيت أوقاتًا طويلة مع الابنة الصغرى وأحببتها وتفانيت في خدمتها، ثم جاء موعد عودة الابنة الكبرى من الخارج فانشغلت في ترتيب حجرتها وإعداد البيت لاستقبالها، وخرجت الأسرة كلها لتستقبلها في المطار، وعادوا جميعًا سعداء ضاحكين فما إن رأيتها عن بعد حتى خفق قلبي بشدة، فقد كانت زميلة لي بنفس الكلية وفي نفس السنة الدراسية، ربما كانت لا تعرفني لكن المؤكد أنني أعرفها لأن الأثرياء يلفتون أنظار البؤساء من أمثالي في الكلية بملابسهم وبمظهرهم الفخم، في حين لا نلفت نحن نظرهم إلَّا إذا كنا من المتفوقين، ولم أكن أنا كذلك وجاءت اللحظة الحرجة فتقدمت منها وصافحتها فصافحتني ولم تعرفني، وشكرت الله على ذلك، ونويت أن أكتم عنها هذا السر إلى أن تنتهي شهور الصيف، ثم انقطع عن العمل وأتفرغ للدراسة. ثم بدأت صديقاتها يأتين إلى البيت لزيارتها والترحيب بها فأقدم لهن المشروبات، وأتجنب الوقوف طويلًا أمامهن إلى أن رأتني واحدة منهن، فبدا على وجهها أنها تعرفني أو تحاول أن تتذكرني، فأسرعت بالذهاب إلى المطبخ، وبعد انصراف الصديقات دعتني الابنة الكبرى وسألتني: هل صحيح أنك طالبة في كلية الطب معي وفي نفس السنة؟ فعرفت أن الصديقة طالبة معنا أيضًا وتعرفني شكلًا، ولم أكن أنا أعرفها لسوء الحظ، فاعترفت لها

بالحقيقة وفسرت لها كتماني للأمر بإحساسي بالحرج ورجوتها ألَّا تشيع ذلك، فهزت رأسها صامتة، ولم تتغير معاملتها معي، وبعد أسابيع خرجت هي ذات صباح فظننتها ذاهبة إلى النادي كعادتها لتمضي فيه معظم النهار، لكنها عادت بعد 3 ساعات غاضبة ومكفهرة وعصبية وأساءت معاملتي بلا سبب، ولا تخاطبني أمام صديقاتها إلَّا بـ «أنت يا غبية» وتعاملني بعصبية شديدة وتحملت أول الأمر ثم شكوت لأمها فطيبت خاطري، وقالت لي إن نتيجتها قد ظهرت ورسبت مع أنها باقية للإعادة، لهذا فهي عصبية ونصحتني بأن أتحملها وتحملتها أيامًا، حتى بدأت أحس أنها لا تطيق أن تراني فلم أجد مفرًّا من الانسحاب، وأبلغت السيدة بذلك فشكرتني، لكن زميلتي ما إن رأتني أجمع أشيائي القليلة وأستعد للانصراف حتى ثارت فجأة واتهمتني بالجحود، وجذبت حقيبة يدي وفتحتها وأخرجت منها بطاقة الكلية ومزقتها فلملمت بقاياها، وأخذت حقيبتي وتحركت للانصراف فازدادت ثورتها وأمرتني بأن أخلع الحذاء الذي أرتديه، لأنه ملكها ولأني لا أستحقه بعد أن تنكرت لجميل الأسرة، فوقفت حائرة لعدة ثوان ثم انحنيت فخلعت الحذاء وتركته جانبًا، وحمدت الله أنها لم تطلب الفستان وقد كان ملكها أيضًا ثم غادرت الشقة.. ووجدت نفسي حافية فاحترت كيف أعود إلى بيتي وهداني تفكيري إلى أن أطرق باب الشقة المجاورة لأطلب من جارة الأسرة شبشبًا أعود به للبيت، ففتحت لي السيدة الباب واندهشت لطلبي ثم طلبت مني الدخول، وقدمت لي حذاء وسألتني عن ظروفي وواستني وقالت لي إنها علمت من ابنتها صديقة مخدومتي السابقة أنني طالبة معها في نفس الكلية، وهوَّنت عليَّ الأمر فشكرتها وانصرفت وعدت لبيتي، ومرت عدة أيام وتذكرت أني لم أعرف نتيجتي بعد فتوجهت للكلية لأعرفها، وقبل أن اقترب من القسم وجدت شلة صديقات الابنة الكبرى واقفات يتحدثن فعدت من فوري

ولم أجرؤ على الدخول، وقد تخيلت أنهن جميعًا قد عرفن قصتي، وبعد أيام أرسلت شقيقي إلى الكلية فعاد بالمفاجأة الكبرى وهي أني نجحت! فقدرت أن ذلك ربما كان أحد أسباب ضيق الابنة الكبرى بي، ومضت أيامنا كالمعتاد في تقشف وعناء، حتى فوجئت يوم الجمعة 14 أكتوبر الماضي بربة الأسرة التي كنت أعمل عندها تأتي إلى غرفتي المتواضعة، فارتعبت في بادئ الأمر خوفًا من أن تكون الأسرة قد اكتشفت ضياع شيء منها، فاتجهت ظنونها إليَّ، لكنها قدمت لي صفحتك المنشورة بها رسالة «الصفعة» وعاتبتني كيف أكتب عنهم هذا الكلام وكيف أدعي أن زوجها قد صفعني، ولم أفهم شيئًا في البداية ثم قرأت الرسالة سريعًا وأقسمت لها أني لست كاتبتها، وأنها فتاة أخرى لها مثل ظروفي فصدقتني واطمأنت.

وجاءت بداية العام الدراسي.. فسألت نفسي كيف سأواجه مجتمع الكلية بعد أن ذاعت قصتي فيه بالتأكيد، وكيف سأدخل المستشفى الذي سأتدرب به خصوصًا أن هذا العام هو عام الدراسات العملية أو الإكلينيكية، وترددت في البداية ومازلت، فقررت أن أكتب إلى كاتبة رسالة الصفعة لأقول لها يا زميلتي في الشقاء إنه إذا كانت صفعة ظالمة قد نزلت على وجهها، فإن الحياة تنزل فوق وجهي ووجوه إخوتي بالصفعات منذ وجدنا أنفسنا بلا سند ولا معين منذ سنوات، فتصبري يا زميلتي فليس لنا سوى الصبر والإيمان.

ثم قررت أن أكتب لك لأسألك هل تستطيع أن تساعدني في تحويل أوراقي من كليتي إلى كلية أخرى مماثلة، لكي أتجنب المعاناة بين زملائي وزميلاتي اللاتي لابد قد عرفن الآن حكايتي كاملة.. هل تستطيع يا سيدي.. وهل تذكرتني أولًا؟



ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

نعم تذكرتك يا آنستي وتذكرت أيضًا أن المبلغ الذي تشيرين إليه لم يكن من بريد الأهرام، وإنما كان من نفس هذه الزميلة الفاضلة التي رجوتها أن تذهب إلى كليتك لتحدث أستاذتك في شأنك فلبت النداء متحمسة، ثم أبدت لي رغبتها في تقديم عون عاجل لك لا ينتظر إجراءات بريد الأهرام لمساعدتك، فاستجبت لرغبتها وكان ما كان من اعتذارك الذي أثار إشفاقي عليك، وضاعف من احترامي لك، ثم نسيت أمرك في زحام المشاكل، حتى جاءتني رسالتك هذه فقرأتها بلهفة من يتلقى رسالة من صديق قديم فرّقت بينهما الحياة، فأسعدني منها خبر اجتيازك لعقبة هذه السنة الكئود التي كادت تعرقل مشوارك البطولي في الدراسة، وآلمني منها ما لقيت من عنت زميلتك هذه - سامحها الله - بسبب لا ذنب لك فيه، وهو رسوبها ونجاحك أنت رغم اتساع الفوارق واختلاف الإمكانات، فلا شك أنها قد عرفت بنجاحك قبل أن تعرفي أنت، فهالها أن تنجحي وأنت الكادحة المهمومة بقوت يومك، وأن تفشل هي، وهي الناعمة بكل شيء جميل في الحياة، فضاقت نفسها بك ولم تطق عليك صبرًا، لكن كل ذلك قد مضى وانطوت صفحته، ولم يعد من المفيد الوقوف الآن أمامه، لأننا لو توقفنا أمام كل إساءة لحقت بنا لما تقدمنا خطوة واحدة إلى الأمام، ولأهدرنا العمر في اجترار الأحزان، لهذا فإني سوف أتجاوز هذا الأمر إلى الموضوع الأهم، وهو رغبتك في الانتقال من كليتك بحجة أن قصتك قد ذاعت بين زملائك فيها، وأسألك

أولًا لماذا تتصورين أنك قد أصبحت حديث الآخرين لمجرد أنك فتاة شريفة مكافحة احتاجت إلى العمل كمديرة بيت خلال شهور الصيف، وفيم يختلف هذا العمل عن الأعمال الأخرى التي يستعين بها طلبة الجامعات على أمرهم؟ وماذا في ذلك يستدعي أن تتواري عن أنظار الآخرين وأن تهربي من مواجهتهم؟ إنه أكبر دليل على أنك فتاة جادة شريفة اختارت الطريق الصعب الشحيح، لكي تعول نفسها وأسرتها فماذا عندك لكي تخجلي منه؟ أو ليس الأحرى بالملوثين والمنحرفين وحدهم أن يتواروا عن الأنظار، وأن تواجهي أنت الآخرين بالثقة في النفس وفي جدارتك بالاحترام، ولماذا تتصورين أن هؤلاء الآخرين.. قد قُدَّتْ قلوبهم من حجر وانقلبت المعايير عندهم، فجعلوا من قصتك مبررًا للنيل منك واستصغار شأنك؟

إن الدنيا بخير يا آنستي وزميلاتك وزملاؤك يعيشون عصرهم ويعرفون الكثير من صعوبات الحياة، ويعانون منها بدرجات متفاوتة، وأنت في حالة دفاع مشروع عن النفس ضد العوز، ولقد استعاذ الرسول الكريم ذات مرة من الكفر والفقر معًا فسئل أيستويان؟ قال: نعم لأن الفقر المذل الذي يدمر المعنويات ويهدر آدمية الإنسان يتساوى مع الكفر في بشاعته وكراهيته فعلًا، فلماذا تحملين نفسك هذا العبء النفسي الجديد؟ وأنت المثقلة بأعباء الحياة، لقد كادت ملحمة كفاحك أن تؤتي ثمارها فلا تسمحي لأي عارض عابر كهذا الأمر بأن يعرقل خطواتها بعد أن اقتربت من النهاية المظفرة، ولو أنصفت نفسك لاستجبت لنصيحتي ولذهبت إلى كليتك مرفوعة الرأس، ولعاملت الجميع بروح طبيعية وبروح ليس لديها ما تخجل منه، وأولهم زميلتك صاحبة موقعة الحذاء المؤسفة، التي لا أشك في أنها قد ندمت على اندفاعها فيها، وعرفت

كم أساءت بها إلى نفسها وأسرتها قبل أن تسيء إليك، ولعلها الآن تطلب راحة ضميرها بإصلاح الأمر معك لأننا في النهاية بشر يا صديقتي ولسنا مردة ولا شياطين، لنا حمقنا وخطايانا ولنا أيضًا ندمنا وخوفنا من عقاب السماء، وتطلعنا الخفي إلى أن نحتمي من غوائل الزمن بألّا نظلم غيرنا.

فأخرجي إلى كليتك فخورة بنفسك وبكفاحك، ولسوف تنبئك الأيام بكذب هواجسك ومخاوفك، فإن لم تفعلي فتفضلي بزيارتي لنبحث الأمر معًا والله المستعان على ما يصفون.

الشعاع

سيدي: لي مطلب عندك ربما يبدو لك غريبًا لكنه بالنسبة لي ليس كذلك.. وقبل أن أقول لك ما هو مطلبي. سأقدم لك نفسي فأقول لك إنني شاب عمري 27 سنة حاصل على شهادة جامعية وأعمل موظفًا بشركة براتب معقول في إحدى المدن القريبة من القاهرة، ولي شقة بها بعض الأثاث، ورغم أني في مقتبل الشباب فلقد عشت تجربة مريرة تركت في نفسي أبلغ الأثر، وكانت هي الدافع وراء رسالتي هذه. فمنذ سبع سنوات تعرضت لحادث سيارة فقدت على إثره بصري.. وعشت في ظلام دامس لمدة سنة أتنقل من طبيب إلى طبيب والأمل يبدو ضعيفًا واهيًا، ثم أشار عليَّ البعض باستكمال العلاج في الخارج وقامت أسرتي بعد جهد جهيد بتدبير المبلغ المطلوب بعضه بالاستدانة.. وبعضه ببيع بعض الأشياء الثمينة القليلة التي كانت تملكها، وشددت الرحال إلى لندن لأستقر في أحد مستشفياتها غريبًا في بلاد غريبة كفيفًا لا أرى إلَّا الظلام، أعتمد على سمعي في الاتصال بالعالم الخارجي، أمد يدي إلى الأمام لأتحسس طريقي إلى الحمام وطريقي إلى السرير، أعيش مع الأمل يومًا ومع اليأس أيامًا.

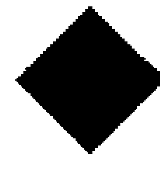
و أه من ليل الغارق في الظلام، إنه طويل، طويل، لا يفرق الإنسان بينه وبين الصباح إلَّا حين يسمع دبيب الحياة يسري من حوله، فيعرف أن يومًا آخر قد

انقضى، ويومًا جديدًا قد بدأ، وعشت في لندن ثلاثة شهور كانت بالنسبة لي ثلاثين شهرًا.

وكانت أقساها هذه الأيام التي أجريت فيها الجراحة، ثم نمت بعدها على السرير مربوطًا بالسيور الجلدية لكيلا أتحرك أية حركة بسيطة قد تفسد أثر العملية، وآه يا سيدي مما عانيته من الخوف والرعب، و آه من ثقل اللحظات والدقائق والساعات، ثم جاءت أخيرًا اللحظة الموعودة لفك الأربطة عن عيني حيث سيتبين نجاح العملية أو فشلها، ويرفع الطبيب الأربطة في حذر وأنا أتوجس خيفة وهلعًا من المستقبل، ثم يسألني ماذا أرى.. فأتردد ثم أقول له لا أرى شيئًا.. فلا يتراجع وإنما يقول لي: ألست ترى شعاعًا ضعيفًا من الضوء يخفف من الظلام الذي كنت تراه فأقول له بعد تردد نعم يا سيدي أحس كأن الظلام قد خف سواده قليلًا فيقول لي سعيدًا: إذن أبشر فهذا الشعاع هو بداية الإبصار.. إن العين تسترد وظيفتها شيئًا فشيئًا.. وبالفعل يا سيدي فلقد بدأ هذا الشعاع يكبر حتى بدأت بعد فترة أميز الضوء، وفيما يشبه الحلم وجدت نفسي أخرج شيئًا فشيئًا من دنيا الظلام إلى دنيا النور، ورغم أني لم أكن أميز في البداية بين الأشياء.. لكني بمرور الوقت بدأت أميز حدود الأشياء، وأعود إلى عالم المبصرين، وسبحان من له القدرة على كل شيء، وعدت إلى بلادي متخليًا عن عصاي وعن يأسي وخوفي من المستقبل. ومنذ عودتي واستقراري في عملي وفي حياتي خامرني خاطر لم يلبث أن استولى عليَّ تمامًا وأصبحت مقتنعًا به إلى النهاية.. وقد بدأ هذا الخاطر في ذهني وأنا أسير الظلام وحيدًا غريبًا بعيدًا عن أهلي وبلادي في المستشفى في لندن. إذ نذرت لربي إن هو منّ علي بالشفاء وبرؤية الحياة والأضواء مرة أخرى ألَّا أتزوج في مصر.. إلَّا من كفيفة حرمتها الدنيا من نعمة الإبصار.. لأكون عينيها

اللتين تبصر بهما، وأكون شريكها ورفيقها في رحلة الحياة لأني أقدر على فهمها من غيري.. وقد انتميت إلى عالم الظلام حوالي 15 شهرًا..

ولا تظن أنها كانت مجرد خاطرة.. طرأت على ذهني وأنا ضعيف وحيد في بلاد غريبة.. فلقد عدت إلى بلادي وأنا مصمم عليها.. وبالفعل تقدمت لخطبة فتاة كفيفة منذ شهور، لكني لم أوفق في التفاهم مع أهلها ربما لأني لم أنجح في أن أعبر لهم عن مشاعري تجاه هذا الأمر، كما أعبر الآن عنه لك في هذه الكلمات.. فلست ممن يحسنون الكلام.. وقد أعبر عن نفسي كتابة أفضل مما أفعل إذا تكلمت.. لذلك أكتب إليك طالبًا منك عونك في العثور على شريكة حياتي ممن يبصرن بقلوبهن، وليس لي من شروط بشأنها سوى أن تكون مسلمة وأن تكون في العشرينيات من عمرها. وأرجو ألَّا أكون قد أضفت ثقلًا جديدًا إلى أثقالك التي تنوء بها. وشكرًا لك مقدمًا.



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لا يا سيدي بل أسعدتني وخففت عنِّي الكثير، فمما يسعدني بغير شك أن ألتقي ولو على الورق مع إنسان صهره الألم فطهره من شوائبه ورقق من شعوره وأكسبه شفافية وزاده حبًا للحياة والبشر كما فعل معك، إن النفس يا صديقي تتطهر بالألم كما يتخلص المعدن النفيس بالنار من شوائبه، فتترسب في قاع الإناء.. ويطفو على سطحه الدر الثمين، وهكذا فعل معك الألم لأنك أصلًا من معدن نفيس.. ولو كنت غير ذلك لأكسبك مرارة.. ولتساءلت كما يفعل بعض الممتحنين به. ولماذا أنا وحدي من ادخرت له الحياة كل هذه الآلام؟

فلا يزيدهم التساؤل إلَّا مرارة وقنوطًا.. لكنك يا سيدي قد نجوت من ذلك.. ولم يترك الألم في نفسك إلَّا الرغبة في إسعاد نفس بشرية تعاني مما عانيت منه وذقت من قبل مرارته.. وهذا هو درس التجربة الأليمة عند محبي الحياة من أصحاب القلوب الكبيرة.

لقد زارني ذات يوم رجل ناجح معروف وطلب مني أن أحيل إليه أية حالات أتلقاها لعلاج شلل الأطفال من غير القادرين على نفقات العلاج، فلم أسأله عن سبب اختياره لهذه الحالات بالذات، لكني فهمت على الفور أنه يعيش هذه التجربة الأليمة مع أحد أبنائه ويعرف قسوتها ويريد أن يخفف عن بعض الآباء مرارة الإحساس بالعجز، أمام هذه العذاب الأليم الذي عاناه من قبل.. وكابده وأنت تريد أن تفعل الشيء نفسه في حدود قدراتك.. وسوف أساعدك على تحقيقه بإذن الله إذا زرتني.. أو كتبت إليَّ عنوانك.

لقد فكرت للحظات في أن أقول لك ما اعتدنا نحن الذين يتصدون للرد على رسائل القراء.. من أن إحساس الإشفاق ليس أساسًا متينًا للزواج.. وأنه وحده لا يكفي لضمان السعادة الزوجية أو استمرارها، لكني تراجعت سريعًا حين تذكرت أيضًا كلمة قديمة للدكتور حسين هيكل في أحد مقالاته.. تقول «إن رضا الضمير هو مفتاح السعادة!» فلم لا يكون الأمر كذلك في مثل حالتك وأنت تقبل على هذه التجربة مدفوعًا بدوافع نبيلة.. و راضي الضمير عن نفسك وعنها.. ومن الذي يستطيع أن يضع قوائم إحصائية دقيقة للقواعد التي تثمر زواجًا سعيدًا وتلك التي لا تؤدي إليه.. والسعادة في النهاية ومهما فعلنا هبة من الله يؤتيها من يشاء، إن النفوس الشفافة الخيِّرة الشكور للحياة أحق بالسعادة من غيرها.. وأنت قد عانيت في حياتك آلامًا حقيقية.. فلم لا تكون سعادتك أيضًا سعادة حقيقة ودائمة بإذن الله؟!

الألم المصهور!

أنـا يا سـيدي رجل نشـأت في أسـرة بسـيطة شـريفة، وأمضيت فتـرة صباي وشـبابي أكافح لتعليم نفسـي.. وأتحمل عناء السـفر كل يوم من قريتي الصغيرة إلى المدرسـة فـي المدينة، ثم التحقـت بالجامعة في العاصمـة، وتخرجت بغير أن تكـون لـي أية علاقة عاطفيـة مع أية فتاة، لأنـي آمنت دائمًا بأننـي لا يجوز أن أتعلق إلَّا بمن سـوف أرتبط بهـا. وبدأت حياتي العملية بعـد التخرج فتم تعييني في إحدى المدن الصغيرة. وبدأت أرد لأهلي بعض ما تحملوه من عناء من أجل تعليمي لكي يستطيعوا أن يواصلوا أداء الرسالة مع إخوتي.

وبعد أعوام من تخرجي تزوجت من إحدى قريباتي القاهريات، وعشت معها أجمـل أيام حياتـي، وأنجبنا طفلتين، ثم جاءتني الفرصـة للعمل في الخارج فلم أتردد في قبولها لأرفع مسـتوى أسرتي الصغيرة، وأسرتي الكبيرة صاحبة الفضل علـيَّ، وسـافرنا معًا وعشـنا عدة أعوام سـعيدة في الخـارج، لم أتوقـف خلالها عن مسـاعدة أسـرتي، ثم عدنا.. فاسـتقلت من وظيفتي ووفقني الله إلى مشروع تجـاري صغير حقـق نجاحًا طيبًا، فاسـتقرت حياتنا وألحقت الطفلتين بمدرسـة راقية، واشـتريت لزوجتي سـيارة إلى جانب سـيارتي، وبذلت كل جهدي لتوفير

الحياة الكريمة لأسرتي. ولم ألاحظ خلال انشغالي بذلك أن زوجتي قد خلعت الحجاب بحجة أنه يسبب لها حساسية جلدية في رأسها، أو أنها اندمجت في الحياة القاهرية فأصبحت لها صديقات كثيرات تتحدث إليهن كل يوم بالساعات في التليفون، ومضت الحياة عادية لا تخلو من بعض الخلافات الصغيرة، التي كنا نحتكم فيها للأم فتؤيدني في موقفي دائما وتعود الحياة إلى مجراها الطبيعي.

ورغم كثرة مشاغلي فلقد كنت حريصًا دائمًا على أن أقضي فترة الظهيرة مع زوجتي وبنتي، ثم أخرج إلى عملي وأعود قبيل العاشرة لأطمئن عليهن جميعًا ونتسامر قليلًا ثم يأوي كل منا إلى فراشه، فأنا لا أسهر ولا أدخن ولا أتعاطى أية مكيفات، وليس في حياتي سوى أسرتي الصغيرة وعملي. لذلك فقد سعدت بأسرتي الصغيرة للغاية لكني من فرط سعادتي كنت أحس دائما إحساسًا غريبًا بأنها قد لا تدوم ولا أعرف لماذا.

وفي غمار هذه السعادة فوجئت ذات يوم بأعز صديقات زوجتي، وهي سيدة فاضلة تزورني في مكتبي مع زوجها الرجل الوقور، فتصورت أنهما في حاجة إلى خدمة معيَّنة أستطيع أن أؤديها لهما بحكم عملي. لكني فوجئت بهما متحرجين وحائرين لا يعرفان كيف يبدآن الحديث، ثم بعد شيء من التردد تكلمت الصديقة وصوتها يرتجف فإذا بها تطلب منِّي باسم زوجتي وباسم بنتيَّ اللتين تناولت معهما الغداء منذ ساعتين في جو عائلي سعيد.. الطلاق. فبدا لي أني لم أسمع جيدًا. لكنها واصلت الحديث وشاركها فيه زوجها.. فهممت بأن أتكلم فأحسست بأن لساني ملتصق بسقف حلقي ولا يتحرك، وقد أحمر وجهي حتى أحسست بالنار في أذني ولا أعرف ماذا قلت، لكن زوج الصديقة تحدث وعيناه منخفضتان، وطلب مني التفكير في الأمر آسفًا للظروف التي وضعتهما

في هذا الموقف، فوعدتهما بأني سـأتفاهم مع زوجتي على كل شـيء، وتركاني وأنا في أسوأ حال، وفي الليل عدت لبيتي فوجدتها نائمة، وفي صباح اليوم التالي لم أستطع أن أحييها تحية الصباح فبدأتني هي بالتحية، وكأن شيئًا لم يكن. وبعد قليـل تكلمنا فأكدت لي مـا قالته لي صديقتها.. واتفقنا مبدئيًا على أن نكتم الأمر عن أهلي وأهلها، إلى أن يستقر الوضع، لكني رأيتها تتصرف بنفسية المسافر بعد قليـل، فهي تجمع التحـف والأنتيكات وتضعها في الحقائـب، وتغلف الأجهزة المنزليـة والكماليـات كأننا سـنهاجر. وخرجت إلى مكتبي وقدت سـيارتي وأنا لا أرى الطريـق أمامـي، ولـم أعد يومها إلـى البيت في فترة الغـداء، لكني ذهبت لزيـارة صديق قديم ورويت له القصة كلها واستشـرته فـي أمري، فنصحني بعدم الاستجابة لرغبتها لكيلا تتشتت بيننا الطفلتان.

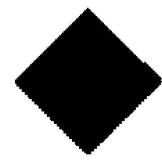
وبعـد تفكيـر عميق قررت أن أعمل بنصيحته، لكنـي عزمت على أن أجاريها لكي أعرف سـر هذا التحول المؤلـم.. ودفعني الفضول والشـك لأن أستمع إلى حديثهـا في التليفون مع صديقتها.. فإذا بي أكتشـف أنها سـوف تتـزوج قريبًا لها بعد الطلاق. وسـمعتها تشـرح ترتيباتها، وكيف أنها سـوف تترك لي الشقة خالية والطفلتين في رعاية الشغالة، وأنها ستزورهما مرة كل أسبوع. إلخ.. كل هذا وأنا على قيد الحياة ومازالت زوجتي وفي عصمتي، ترى هل جرب أحد من قرائك أن يكتشف فجأة أنه لا مكان له في أحلام زوجته عن المستقبل، وهل ذاق مرارة هذه اللحظة.. لقد تجرعتها يا سيدي وأنا واقف أستمع حديثها عن أحلامها التي تريد أن تبنيها على أنقاض حياتي وأسرتي وطفلتيَّ، فعرفت أن في الدنيا آلامًا أقسى من آلام المرض وطعنات السكاكين، فانفجرت فيها وواجهتها بما سمعت فلم تنكر، بل وتنمرت بشدة وطلبت الطلاق فقررت ألَّا أطلقها وقلت لها إنها قد انتهت من

حياتي كزوجة، وأن عليها أن تبقى في البيت لرعاية طفلتيها حتى تتخرجا، ثم تفعل بحياتها بعد ذلك ما تشاء. وثرت لكرامتي ورجولتي فسحبت منها السيارة، وتجنبتها كزوجة وكتمت أحزاني في قلبي، فلم أبح بها لأحد وعشت حياتي في الظاهر رجلًا ناجحًا مرموقًا كريمًا. وفي الواقع رجلًا منهارًا محطمًا مجروحًا، أتساءل: وماذا فعلت لكي أتلقى هذه الطعنة في كرامتي وقلبي ورجولتي؟ ومرت الشهور والأيام كئيبة بطيئة تتخللها بعض المناوشات والمناورات، وتعرضت لخسائر كثيرة في عملي بسبب شرودي، واضطراب ذهني، لكني تذكرت أيام الفقر والجوع ومستقبل طفلتيَّ، فتحاملت على نفسي وأفرغت همي في العمل، فاستعدت بعض توازني وعاهدتني هي على أن تحفظ كرامتي وكرامة الأسرة، فتحملت منها الكثير حتى يكبر الأبناء، ثم يحكم الله بيننا. ومرت على هذه الحال ثلاثة أعوام، ثم شاءت المصادفة أن أصحو في الليل منذ فترة قصيرة فإذا بي أسمعها تتحدث في التليفون عن نفس المشروع القديم، وعرفت أشياء وأشياء، فأحضرت أمها وصديقتها الوحيدة، وواجهتها أمامهما، إذا بها بكل وقاحة تطلب الطلاق مرة أخرى، وتحدد شروطها وهي أن أترك لها السيارة والشغالة وأرسل إليها مصروف البنتين، فكدت أفتك بها أمام أمها وصديقتها التي انهارت حين سمعت ما سمعت منها، وقالت لها أمامي إن زوجك عشرة على عشرة وأنت مفترية ولا تستحقين أن تعيشي معه يومًا واحدًا.

فما كان منها إلَّا أن حاولت الانتحار، وانهارت ونقلت إلى المستشفى وأقسمت بأغلظ الأيمان إن ما حدث لم يتجاوز الحديث.

وخرجت من المستشفى بعد ساعات وعادت إلى البيت، وأنا الآن يا سيدي أعيش أتعس أيام حياتي، فأنا لا أستطيع أن أنظر إلى وجهها، ولا أستطيع أيضًا

البعد عن طفلتي، وأخاف عليهما وقد قتلني الشك بسهامه فسحبت السيارة مرة أخرى، ورفعت حرارة التليفون، وعاودني الشرود القديم، فبدأت أنسى في عملي وأهمل قراءاتي ومشروعاتي، ورحت أسير بالساعات هائمًا في الشوارع لا أعرف ماذا أفعل؟ ولا كيف أتصرف؟ وأسأل نفسي: ولماذا أعيش ولماذا أعمل وأكسب ولمن؟ وبنتاي تنظران إلى بدهشة وتتساءلان عما جرى لي وقد تحول ليلي إلى سهاد، ونومي إلى أحلام مفزعة، وصحوي إلى عذاب. والصداع يلازمني في كل حين وبدأت أتمنى الموت. إن أمها تطالبني بأن أصفح عنها مرة أخرى لكنني لا أعرف كيف.. فماذا أفعل يا سيدي.. هل لديك كلمة تواسيني بها؟ وهل تنصحني بالزواج..؟ وهل لو تزوجت سوف تحل المشكلة؟



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

ولماذا يا سيدي كل هذا العذاب الذي يتضاءل إلى جانبه عذاب بروميثيوس، حين حكمت عليه الآلهة في الأسطورة الإغريقية بأن يشد وثاقه إلى صخرة فوق الجبل، ثم يأتي النسر الجارح وينهش قطعة من لحمه في النهار فتنمو مكانها قطعة أخرى في الليل لينهشها النسر من جديد في الصباح التالي! إن استمرار معاناتك دون أن تتخذ قرارًا حاسمًا بشأن حياتك معها لا يعني سوى أن ينهش الألم من جسمك كل يوم قطعة جديدة. فلماذا لا تحزم أمرك وتستريح ولست أول المعذبين في الأرض ولن تكون بكل أسف آخرهم.

إن بعض السيدات وهن قلة والحمد لله، يرين خطأ وجهالةً أنهن إذا طلبن الطلاق لهذا السبب بالذات ورفض الزوج، فإنه يصبح من حقهن أن ينتقمن منه بطعنه في كرامته، غير مدركات أنهن بذلك إنما يطعن أنفسهن أولًا وأبناءهن ثانيًا ثم أزواجهن في النهاية، لأن مفهوم الشرف مرتبط بواجبات الإنسان تجاه نفسه أولًا قبل أن يرتبط بحقوق غيره عليه، ولأن من لا تريد الحياة مع زوجها تستطيع أن تتمسك برغبتها في الطلاق، إلى أن تناله بلا غدر ولا طعنات، وأنت يا سيدي قد جربت الصفح مرة، فلم يثمر وأثبتت لك التجربة المريرة أنها ما زالت سادرة في إطاعة هوى نفسها، فارحم نفسك إذن من هذا العذاب وليرع الله طفلتيك مادام واجبها الإنساني تجاههما لم يردعها عن غيها.

إنني أتفق معك تمامًا في أنه لا شيء في الدنيا يعدل سعادة الإنسان في حياته الخاصة، وفي أنه لا مال ولا جاه ولا نجاح يستطيع أن يعوضه افتقاده للسعادة والأمان والدفء العاطفي في حياته الخاصة. لكننا يا صديقي لا نختار أقدارنا ولا نملك أن نرغم أحدًا على أن يبادلنا مشاعرنا، وإنما نستطيع على الأقل أن ننأى بأنفسنا عمن لم يحفظ لنا عهودنا، وأن نتطلع دائمًا إلى أن تعوضنا الحياة عن آلامنا بمن يعرف لنا قدرنا ويشاركنا أحلامنا، ويرى فينا أمله ومستقبله، فاستعد توازنك وثقتك بنفسك، فليس عارًا لنا أن يغدر بنا البعض، إنما العار هو عار من لم يرع حقوق ربه في علاقته بنا، والحياة في النهاية لا تتوقف عند أحد.. ومياه النهر لا تكف عن الجريان، فإذا كانت سفينة السعادة لم تتوقف في مرفئنا الآن فلا شك أنها تنتظرنا في مرفأ آخر قريب، سوف نهتدي إليه حين يأذن الله لنا بذالك، أما آلامك التي تصهرك الآن فثق أنها لم تذهب سدى.. فلقد عرفت بالألم الكثير والكثير من حقائق الحياة التي لم تعرفها من قبل، وسوف تستفيد بخبرتها الثمينة في أيامك القادمة إذ ماذا يعرف عن الحياة من لم يعرف الألم يا صديقي؟

الوقت المناسب

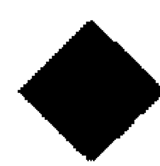
أنا شـاب نشـأت في أسـرة من خمسـة أفراد، عائلهـا أب مكافح يعمـل فرانًا فـي مخبـز بلـدي، ونعيش جميعًا فـي غرفة واحدة لا نسـتطيع الدخـول إليها إلَّا فـوق قطع الحجر تسـبح حولهـا مياه المجـاري، وطوال حياتي كنـت أعمل مع أبي لأسـهم بقـدر قليل في تكاليف الحيـاة.. فكنت أعمل في «السـحلة» أي في تهويـة الخبز الخارج مباشـرة من فوهة الفرن، فكنـت أمضي أول الليل في حمل طاولات الخبز من أمام الفرن لأضعها على الباب لكي تنفث بخار الماء الصاعد منهـا في الهواء الطلق، ثم أعيده إلـى داخل الفرن بعد فترة، وكنت أحصل مقابل هذا العمل على مبلغ 250 قرشًا كل يوم.. كانت ثروة كبيرة بالنسبة لي ولأسرتي. وظللـت أمارس هذا العمل حتـى حصلت على الثانوية العامـة، وبمجموع كبير أهلني للالتحاق بكلية الهندسـة، ومازلت أعجب حتى الآن كيف كنت أسـتطيع أن أجد الوقت الكافي لمذاكرة دروس الثانوية العامة، لكن الله ييسـر الأسـباب حين يشاء وقد يسر لي أمري فنجحت وتفوقت رغم صعوبات حياتي، وفي السنة الأولـى مـن التحاقي بالكلية عجز أبـي عن مواصلة الوقوف أمـام لهيب الفرن.. فتوقـف عن العمل نهائيًا لعجزه، وأصبحت أنا الشـاب الـذي لا يزيد عمره على

20 سـنة العائـل الوحيد لأسـرتي، فأصبحـت أعمل بعد خروجي مـن الكلية في الفـرن حتى سـاعة متأخرة مـن الليل، ولـم أعـد أعمل في «السـحلة» لأن أجرها لا يكفـي.. وإنما ترقيـت وأصبحت «فرانًا» يقف أمام فوهـة الفرن ويقذف بقطع العجين داخله. ثم يخرجها بعد وقت محسوب فيفتح عليها الرشاش وهو حنفية ميـاه تنفـث ذرات المـاء عليه لتبريده، ثـم يزيحهـا جانبًا ليحملها غلام السـحلة الجديـد. وكنت أتقاضـى مقابل هذا العمل 4 جنيهات كل يـوم، كانت هي مورد أسرتي الوحيد.. وموردي كطالب هندسة.

ومرت الأيام بصعوبة شـديد ووفقني الله في دراسـتي كما وفقني في عملي، فتخرجت من قسـم الكهرباء بالكلية، وتفرغـت تمامًا للعمل في المخبز، إلى أن يحل موعد تجنيدي وجاء الموعد فانقطع رزقي ورزق الأسرة اللهم إلَّا من بضعة جنيهات أعمل بها في أيام الأجازات، واضطررت خلال فترة التجنيد للاقتراض مـن معارفي وأصدقائي لتلبية مطالب الحياة لأسـرتي، فخرجت من عام التجنيد مدينًـا بمبلغ رهيب هـو ثلاثمائة جنيه! وبدأت رحلة البحث عن عمل بشـهادتي فانضممت إلى نقابة المهندسـين واسـتخرجت بطاقة العضويـة، وصورت باقي أوراقي وتقدمت بها إلى كثير من الشركات التي قرأت في الإعلانات عن حاجتها لمهندسين.. لكن النتيجة دائما كانت واحدة وهي نعتذر لعدم الحاجة، ووجدت أسرتي ستهلك لو تفرغت للبحث عن عمل بالشهادة، فوضعت أوراقي كلها في كيس بلاسـتيك قديم وحفظتها تحت «حشـية» الكنبة. وأسـلمت أمري إلى الله وقلت لنفسي إن العمل سوف يأتي وحده حين يريد لي الله ذلك، وعدت للفرن الـذي كنـت أعمل فيه فوجـدت «منصب» الخباز مشـغولًا بآخـر، لكن صاحب الفـرن قبلني كمـوزع للخبز، أحمل الطوالة في الفجر وأذهب لتسـليم الخبز إلى

مطاعـم الفـول التي تفتح أبوابها قبيـل الفجر، ورضيت بحالـي، ولـم أفقد الأمل في تحسـن الأحوال، لكني تعرضت هذا الصباح لموقف جدد مواجعي فدفعني للكتابـة إليـك، فقـد كنت عائدًا في الخامسـة صباحًـا من عند زبون، بعد تسـليم الخبز.. فاعترض طريقي ضابط شـرطة شـاب أصغر منِّي سنًا برتبة الملازم أول، ومعـه عدد من الجنود واسـتوقفني ثم قال لي بجفاء «جـاي منين يا ولد دلوقت» فقلت له بهدوء: كنت أوزع الخبز يا باشـا فنظر إلي قليلًا ثم سـألني أين رآني من قبل.

ولـم أجد جوابًا لأني لا أعرفه فعلا ولـم أره، لكن يبدو أن جوابي قد أثار شكه فأمر أحد جنوده بتفتيشـي ففتشني، وأعطى محفظتي للضابط الذي فتحها ورأى فيهـا بطاقة نقابة المهندسـين، فنظر إليها باهتمام ثم سـألني بصوت مختلف أنت مهندس؟ فقلت له نعم يا باشا وانتظر التعيين فأعطاني أوراقي وقال لي اتفضل مع السـلامة.. وبدا لي أنه أحس بشـيء من الندم على معاملته الجافة لي في البداية، فشـكرته ومضيت في طريقي بعد أن ذكرني هذا الموقف المهين بأنني مهندس.. وأريد في النهاية أن أسـألك ماذا يفعل شـاب مثلي لا واسـطة له لكي يجد العمل الذي يتناسب مع دراسته بعد كل هذا «الغُلْب» الذي عانيته طوال حياتي.



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

يفعـل مـا فعلتـه أنت بالضبـط يـا صديقـي، أي يقبـل أي عمل بصفـة مؤقتة خصوصًا إذا كان في حاجة إلى عائده، إلى أن يأتي الوقت المناسب فيجد العمل

الذي يتلاءم مع دراسته، ويستطيع أن يعبر فيه عن نفسه ويحقق أهدافه، ولكل إنسان وقت مناسب لابد أن تتحقق فيه أحلامه مهما تأخرت، فينال ما سعى من أجله ويبذل في سبيله العرق والدموع، فإذا كان لنا رجاء عند الله سبحانه وتعالى فهو فقط في أن يتحقق للإنسان ما يتمناه لنفسه في وقت لا يكون قد فقد فيه القدرة على الاستمتاع بثمار ما كافح طويلًا من أجله، لكيلا تفقد الأشياء قيمتها وحتى لا تتكرر معه كلمة أوسكار وايلد الشهيرة.. من أن كل ما يتمناه المرء لنفسه قد يحققه لها.. ولكن غالبًا ليس في الوقت المناسب!

أما ما عدا ذلك فسوف تتحقق الآمال دائمًا بحق ما قدمنا للحياة من عطاء، وبحق ما كافحنا وشقينا ولهثنا طويلًا وراءها، فتأكد من ذلك دائما ولا تفقد إيمانك بنفسك، بل وفخرك بكفاحك النبيل. واسرع بالاتصال بي إذ يبدو أن الله سبحانه وتعالى قد أذن لهذا الوقت المناسب بأن يجيء، لأني أبحث منذ فترة عن مهندس كهرباء حديث التخرج تلبية لطلب صديق لبريد الأهرام فلا تتأخر وشكرًا.

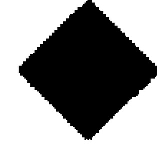
ذوبان الجليد

أكتب إليك يا سيدي رسالتي الثانية بعد عام تقريبًا من رسالتي الأولى إليك، التي نشرتها بعنوان «زائر الصباح» والتي رويت لك فيها أني مهندس في الخامسة والأربعين تزوجت منذ 10 أعوام من فتاة ذات خلق ودين وجمال فاكتملت سعادتي بها.

وعشنا حياة هادئة جميلة إلى أن مرت السنوات ولم يزرنا زائر جديد، ولم نوقد شموعًا، فبدأت رحلة طويلة من التحاليل والعلاج صدمت خلالها مرارًا وضعفت في بعض مراحلها، ففعلت كما يفعل البسطاء واستسلمت لبعض الوصفات البلدية التي لا تتفق مع علمي وديني، حتى جاءتنا البشرى بعد عذاب طويل، وجاءت نتيجة التحاليل إيجابية، وحملت زوجتي ثم وضعت مولودها الأول، وليد الصبر والعناء ففرحنا به وحلقنا فوق أجنحة السعادة ثم لم تمض أيام حتى صحوت على يد زوجتي توقظني لأجد طفلي شاحبًا وأنفاسه تتلاحق، فأسرعت بحمله إلى المستشفى ثم غادرته بعد ساعات ومعي ورقة تنعى إلى الدنيا هذا الزائر الذي لم تطل زيارته لها، فكأنه جاء في الصباح ورحل قبيل

الضحى، ورويت لك كيف تحول بعدها مذاق الحياة في فمي إلى مرارة. وكيف تحجرت دموعي فلم أستطع أن أذرف دمعة واحدة، في حين سالت دموع زوجتي انهارًا، فكتبت ترد علي وتحاول أن تخفف آلامي وتنصحني بتقبل أقداري.. لأن رفضي الداخلي لما حدث هو الذي يمسك دموعي وتطالبني بأن أبكي لكي تطهر الدموع جراحي، وبالتمسك بالأمل بعد أن زالت أهم العقبات التي كانت تحول دون الإنجاب. وأن التجربة يمكن أن تتكرر فإن كانت ثمرتها الأولى فرحة لم تطل، فلسوف تكون ثمرتها الثانية سعادة دائمة وزائرًا مقيمًا بإذن الله. قائلًا لي إنه إذا كان صبح هذا اليوم وليَّ، فإن غدًا لناظره قريب، ثم اختتمت ردك على رسالتي بهذه الأية الكريمة: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ إنه نعم المولى ونعم النصير، فما إن وصلت في ردك إلى هذه الآية الكريمة حتى تفجرت دموعي المحبوسة.. وتساقطت بغزارة على صفحات الجريدة وحرت في تفسير هذه الدموع، التي تحجرت أكثر من شهرين، والتي طالما تمنيتها من قبل.. ثم سالت وذابت فجأت كما يذوب الجاليد ويتحول إلى ماء، وسألت نفسي أهو الحزن الدفين الذي يسكن أعماقي؟ أم هو الأمل والرجاء الذي لا ينقطع في الله سبحانه وتعالى؟ أم هو تعاطف قرائك معي ودعواتهم لي؟ لقد نزلت سكينة الله على قلبي يا سيدي بعدها.. ورضيت بإرادته وتقبلتها صابرًا وآملًا، فتخلص عشنا الصغير من بعض أحزانه وواصلنا حياتنا العادية.. ثم لم تمض شهور حتى حدث الحمل مرة أخرى، رغم تحذير الأطباء لنا بعدم تكراره قبل عامين من التجربة الأليمة السابقة، لكننا سلمنا الأمر لصاحب الأمر، وأخذنا بالأسباب فأشفق علينا الأطباء وأمدونا بقائمة طويلة من أدوية تثبيت الحمل، ومنع النزيف، وهي نادرة رغم أهميتها القصوى، ولا أعرف لماذا،

فبـدأت رحلاتي حول مصر للبحث عنها في مـدن المحافظات، فحصلت عليها مرة من الاسـكندرية حيث أعيـش، ومن القاهرة وطنطـا ودمنهور مرات أخرى، ومرت شـهور الحمل بسـلام وجاءت اللحظة المرتقبة مرة أخرى، ولا أسـتطيع مهما فعلت أن أصف لك مشاعري وهواجسي خلالها.. حتى جاءت إلى الحياة وليدة الأمل والرجاء والرضا بكل شـيء.. سـالي.. الطفلة الجميلة ومرت الأيام الأولى سـعيدة ثم جاء يوم السبوع، فأقمنا حفلًا كبيرًا سعد به الأهل والأصدقاء، وحملت طفلتي بين يدي سعيدًا ورحت أنظر إلى وجهها الملائكي، وأطيل النظر إليـه كأني أختـزن صورته في أعماقي، فلاحظت أنه كلمـا ومض فلاش التصوير ظهر بوضوح اللون الأصفر يكسـو وجهها. ففزعت وأشـفق الأهل والأحباء من فزعي، وتجددت هواجسـي فتوجهت بها إلى نفس المستشـفى الذي ذهبت إليه قبل عام واحد، وكل خوف الدنيا في أعماقي حتى وصلنا إلى الأطباء ففحصوها وهوَّنـوا علينا الأمـر، وأكدوا لنا أنها حالـة صفراء فسـيولوجية، أي طبيعية وأنها سـتزول بالتدريـج خـلال أيام. فعدنـا إلى البيت والأمـل يداعبنا فلـم تمض أيام حتى بدأ اللون الأصفر في الاختفاء تدريجيًا.. وبدأ وجهها يكتسب بدلًا منه لونًا ورديًا لـم أر في حياتي أجمل منه، على كثرة ما رأيت من لوحات الفنانين فالشكر للـه في كل حين.. والشـكر لك ولقرائـك الطيبين الذين أحسسـت بدعائهم من أجلي، وكان دعاء صادقًا اسـتجابت له السماء، مثلما أفعل أنا كلما قرأت رسائل الزمـلاء المهمومـين فأدعو لهم الواحد الأحد، وأضع رجاءهم على بابه الذي لا يصد أحدًا، وشـكرًا لنافذتك المضيئة بالحب والتعاطف الإنساني في هذا الزمن المادي الصعب. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

إن الحمـد لله هذه هي كلمة السـر التي أنزلت السـكينة على قلبك.. فتقبلت أقدارك. وأعفيت نفسـك من المعاناة وعشـت حياتك صابرًا وآملًا فكافأك ربك بتحقيق المنى واكتمال السعادة.

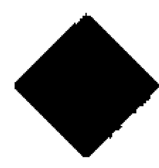
وكذلك يجزي الله الصابري، فهنيئًا لك يا صديقي «سالي الصغيرة». وشكرًا لك أن أسـعدتني وأسـعدت أصدقاءك على الورق بهذه الرسالة المعبرة الرقيقة، ودعاء لك من الأعماق بأن يحفظ الله عليك أسرتك الصغيرة وأن يحقق الأحلام لكل من يخفق قلبه بهذا الأمل المشروع.. والسلام.

المرحلة الحرجة

قررت الكتابة إليك بعد أن ضاقت بي الحِيَلْ، ويئست من كل شيء.. فنحن يا سيدي أسرة صغيرة متدينة ومتحررة في حدود تقاليدنا الشرقية.. متوسطة الحال سعيدة ومتفاهمة.. زوجي رب أسرة مكافح لا يتوانى عن بذل كل جهد في سبيل إسعاد أسرته.. وأنا أم أعرف ربي وأحب أسرتي وبيتي وأبنائي، وليس لي مطمع في الحياة سوى أن أحمي أولادي وأساعدهم على مواصلة حياتهم بالطريق المستقيم.. وقد أوشكوا على بلوغ نهاية رحلة التعليم.

لكني مأساتي يا سيدي أن أحد أبنائي قد أوشك على الخروج عن الطريق المستقيم، بعد أن كان الجميع يشهدون له بالاستقامة. ومنذ سنة تقريبًا تغير ابني وأصبح عصبيًّا ودائم الشجار معنا، ولا يحب البقاء في البيت، ويرغب دائمًا في الخروج مع أصدقائه.. نعطيه مصروفًا معقولًا بالنسبة لسنه، فيريد نقودًا أكثر لكي يكون هو الأفضل دائمًا بين أصدقائه. نرفض أن نعطيه أكثر فيثور ويسبني أنا أمه بأقذع السباب، ويحطم كل ما يصل إليه.. بل أكثر من ذلك لم يتورع أكثر من مرة عن أن يمد يده عليَّ، بل بدأ يمد يده على أشياء في البيت ويأخذها.

ورغـم كل ذلك فأنا أعامله بحنـان أكثر من الأول. وقد اعتبر ذلك ضعفًا فتمادى في تصرفاته، وقد حاول والده أن يوقفه عند حده بالنصيحة أولًا.. ثم بالشدة ثانيًا بعـد أن زادت طباعه سـوءًا فوقف أمـام والده موقف الند للنـد، وحاول أن يترك البيت. وقد بدأ يرسـب في دراسـته وفقد أبوه الأمل فيه.. أما أنا فأخاف أن أتركه لنفسه فيضيع، إنني أريد منك النصيحة لنا وله بعد أن رفض النصيحة من الجميع، معتقـدًا أنه الوحيد الذي لا يخطئ، وأننـا جميعًا متخلفون لكن لا تقل لي: أعطه مزيدًا من الحنان لأني أعطيه من الحنان الكثير ولا تقل لي: انصحيه فلقد نصحته حتـى بـح صوتي، وبحثت عن أصدقائـه فوجدتهم جميعًا فاسـدين، ولا يريد أن يتركهم، وقد أصبحت غير قادرة على السيطرة عليه يا سيدي، وأخشى لو أبلغت أبـاه ببعـض ما أخفيته عنه من تصرفاته أن يطرده مـن البيت. لقد فكرت حين بلغ بـي اليـأس منتهاه أن أنهي حياتي لكن خوفي من ربـي يمنعني. وهو من قرائك.. فانصحه لعل كلامك معه يجدي فيما فشلت فيه أنا وأبوه وشكرًا.



ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لا أعتقد يا سـيدتي أن بضع كلمات منِّي سوف تغير من شأن ما عجزت حتى الآن عـن تغييره.. ليس فقط لأن الكلام قد لا يجدي في مثل هذه الحالة.. وإنما أيضًا لأني أغالب إحساسًا يمنعني من تدفق الحديث مع مثل هذا الابن الضال..

فالحق أنني لا أستطيع أبدًا أن أتواصل مع إنسان أعرف عنه أنه قد سب أمه بأقذع السباب، وأنه لا سامحه الله قد مد يده عليها بالضرب، إذ كيف أستطيع أن أحترم مثل هذا الإنسان وأن أتحاور معه؟!

ومع ذلك فسوف أغالب إحساسي هذا وأقول له: إنني لن أحدثه عن تعاليم دينه، ولا عن القيم الخلقية التي تتمثل في احترام الأبوين ورعايتهما واللطف بهما في كل حين.. لكنني سأحدثه بمنطق التجربة العملية في الحياة وحده فأقول له: إني ما عرفت في حياتي شخطًا أذى أبويه وعاش حياته هانئًا سعيدًا من البداية إلى النهاية، ولا شخصًا أهان أبويه إلَّا وذاق من العذاب بعد حين ما يهون معه متاع الدنيا كلها، فاختر لنفسك ما تشاء.. فأنت الغارم في النهاية. وأنت من سيؤدي هذه الفاتورة فيما بعد لأنها فاتورة واجبة السداد ولا مفر منها.

لكنك لو أنصفت نفسك لأفقت من غيك، والتمست الصفح والعفو من أبويك، ولأديت واجبك في الدراسة فتنقذ نفسك من الضياع.. وتسعد قلوب من يخلصون لك الحب والعطاء.. وتبني حياتك ومستقبلك على أسس راسخة من رضا الأهل والسلوك القويم.

أما أنت يا سيدتي فلن أقول لك أعطه حنانًا أكثر.. لأنك أسرفت فيما يبدو فيما أعطيته منه.. بل وتسامحت معه بأكثر من اللازم، وإنما سأقول لك أعطه تفهمًا أفضل لبعض تطلعاته.. وبعض ظروف المرحلة الحرجة من العمر التي يمر بها، فإن مغالاتنا أحيانًا في الخوف على أبنائنا من الضياع قد تدفعنا إلى المغالاة في محاولة السيطرة على تحركاتهم اعتقادًا أننا بذلك نحميهم، فيخلق ذلك لديهم شعورًا معاكسًا يدفعهم إلى الانفلات.. والأفضل أن تكون محاولاتنا للإرشاد عن بعد يسمح لهم بالاختيار بغير ما يتصورونه من ضغوط عليهم.

ومن الأفضل أيضًا أن نحاول دائمًا التحكم في مخاوفنا تجاههم، بحيث لا تدفعنا إلى تصرفات عصبية معهم بلا داع، وأنت مثلًا تقولين إن كل أصدقائه فاسدون.. فما هو مفهوم الفساد في رأيك؟ وهل يكفي الاعتماد على مظهر الأشخاص للحكم على حقيقتهم مثل هذا الحكم القاسي.. وهل يكفي نفورنا من بعض الأشخاص للحكم عليهم بأنهم فاسدون، ونطالب الأبناء بالانضمام إلينا في هذا الحكم؟ وأن من قد نراهم نحن بمقاييسنا فاسدين.. قد يرى أبناؤنا بمقاييسهم أنهم أشخاص ممتازون.. فمن يتنازل عن حكمه؟! إنه مجرد مثال لا أقصد به سوى أننا مطالبون بفهم أكبر لتفكير أبنائنا لكي يتحقق التواصل بيننا.. فواصلي إذن يا سيدتي الكفاح معه، ولا تفقدي صبرك عليه إلَّا في حالة واحدة هي أن يتطاول أو أن يمد يده مرة أخرى بالأذى عليك، فإن تكرر ذلك.. قطعت يده. فلا صبر ولا تسامح.. ولو أدى الأمر إلى مصارحة أبيه بكل شيء وتصعيد الموقف إلى أقصاه.. فذلك أفضل بكثير من أن يستمر في هذا الخطأ.. وأن يتمادى فيه.. وفي النهاية فإنك لا تهدي من أحببت.. لكن الله يهدي من يشاء.

بلا رتوش

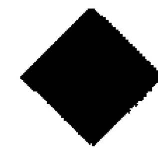
أول شـيء أعرفك بنفسـي.. أنا طالب في الصف الثاني الإعدادي ولي أخت في الصف السادس الابتدائي، وعندما قرأت ردك على رسالة «العائلة المسمومة» قرأة عبارة فيه هزتني ومزقتني هي:

فـإذاَ رحِــمْــتَ فـأنْـتَ أمٌ أو أبٌ   هــذانِ في الـدُّنـيا هُـمَـا الرُحَـمـاءُ

فأنـا والـدي متزوج من سـيدة أخـرى غير أمـي، ومطلق أمـي، ونحن نعيش مـع أمـي، وأمـي تعمل وأنـا وأختي فـي البيت، صدقنـي إذا قلت لـك إنني كلما نظـرت ورأيـت «أولاد» مـع آبائهـم «يخرجـوا» أتمـزق وأحقد عليهـم ولا أحد يحـس بهذا الشـعور غيـر أنا وأختي ولما أحب أن «أشـوف» بابـا وأذهب إليه أنا وأختـي، يعطينا بعض الفلوس، وبعد قليل يقول لنا «روحوا» عشـان متتأخروش وأنـا أحـس أنه «يوزعنـا» وزوجته تفضل تبـص إلينا «تنظر» بكراهيـة، وإذا ذهبنا وأبـي غيـر موجود تطردنا مـن «على الباب» ونرجـع باكين، ولا تلمنـي إذا قلت لك إني أخذت أشـرب سـجاير وأشـرب «حجات» أخرى كثيـر لأن بابا يعطيني «فلـوس» ليتخلص، مني وماما تعطيني «فلوس» حتى لا أحس بفـراق بابا، وأنا ضايـع ولا أحد يحـس «بيه» ولا أعرف مـاذا أفعل بعد أن علمت أنا ماما سـوف

تتزوج هي الأخرى وطبعًا زوجها يريد أن «يعطينا» إلى أبي ولما علمت زوجته أخذت «تسرخ» في وجهه، أنا غير «مسئولة» عنهم، وأبي لا يريد أن يزعلها وأنا وأختي في ضياع ولا أعرف ماذا أفعل بعد أن تتزوج أمي، فإذا كانت الرحمة غير موجودة في أبي الذي تركنا منذ أجل امرأة أخرى، ولم يحس بنا ونحن أولاده، فمن الذي سوف يحس بنا، وأمي هي الأخرى.. ماذا أقول هل هذا حقها؟ وأين حقي أنا وأختي في الحياة. إن أختي تبكي هي الأخرى و«أنها» مرضت وأصبحت ضعيفة.. فماذا تقول «لهذه» الآباء والأمهات، وماذا «تعملوا» لمثلنا أنا وأختي، إن الذي يموت أبوه وأمه يدخل الملجأ.. فهل نحن مصيرنا «كذالك» وأبي وأمي عايشين وإيه؟ وأين القانون الذي يحمينا ويلزم الآباء أن يرحموا أولادهم من الشوارع والضياع؟ أرجو أن ترفع صوتك أنت بنداء إلى الآباء أن يرحموا أولادهم من الضياع، وأن نلقى في أحضانهم الحنان والرحمة «بدل» القسوة، وعدم الاهتمام والأنانية لأنفسهم، وكل واحد يلقى اللوم على الآخر، وليس عندي أكثر من «ذلك» غير دموعي وعذابي الذي في قلبي.

«ابنك المعذب...»



ولكاتب هذه الرسالة المعبرة أقول:

نعم يا صديقي الصغير سأرفع صوتي مطالبًا الأمهات والآباء أن يرحموا أولادهم.. ولن أجد ما أقنعهم به بذلك «أبلغ» من رسالتك هذه لأنها رسالة

«بليغة» في الصدق الإنساني المؤلم، وإن لم تكن «بليغة» في اللغة التي كتبت بها.. لكن ماذا يجدى تنميق الكلمات.. مع مثل هذه الصرخة المعبرة؟

إن رسالتك هذه سوف تطلع كثيرين ممن يقفون مترددين على مشارف خطوة الطلاق المدمرة، على مشاعر أبنائهم تجاه الآباء والأمهات الذين يعرضونهم لهذا الهوان بلا مبرر، وفي ظني أن رسالتك هذه سوف تنقذ أبناء آخرين من السقوط في الهاوية التي سقطتما فيها بلا ذنب ولا جريرة.. وسوف ترد إلى البعض عقولهن وعقولهم وتدفعهم للرجوع عن العناد، الذي يتجاهل في لحظة الحمق مصير الأبناء ومستقبلهم.

أما أنت وأختك فلا تحزنا فإن أمكما لن تتخلى عنكما مهما حدث.. فإذا كانت زوجة أبيكما قد رفضت قبولكما.. فأمكما مطالبة بألَّا تتخلى عن حضانتكما سواء تزوجت أو لم تتزوج.. وليس مهمًا هنا من هو المسئول عن ذلك، هي أو أبوكما فالمهم هو رعايتكما وحمايتكما مهما جرى.. ولا وجه للتوقف أمام هذا السؤال فليس من العدل أن يتبارز الآباء والأمهات لإثبات مسئولية الآخر.. والأبناء ضائعون بينهما، وإنما العدل هو أن ينضم الأبناء إلى من تسمح ظروفه بذلك أيًا كانت مسئوليته، وفي مثل هذه الحالة فليس من المنطقي أن تتخلى عنكما أمكما.. ولن تفعل بإذن الله.. وإنما ستحاول الاحتفاظ بكما في حياتها الجديدة.. فإن رفض الزوج فلا مجال للتردد في رفض هذا الزواج، والانتظار لفرصة زواج آخر تتوافر لكما فيه الحماية والأمان.. وما أكثر الأشخاص الذين حرموا من الأبناء ويسعدون برعاية ابنين مثلكما.

إن هذا هو واجبها يا صديقي، فلا تخف ولا تحزن، وأدعوك إلى ألَّا تسيء الظن بأمك، بل وأيضًا إلى ألَّا تكره أباك مهما حدث، وإن كنت لا أغفر له ضعفه

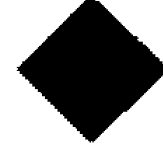
مع زوجته، ولا رغبته في التخلص منكما، ولا غيابه عن الإشـراف عليكما حتى عرفت التدخين في هذه السـن المبكرة.. لكنه أبوك في النهاية. كما أدعوك أيضًا إلـى ألَّا تكره الأطفال الذين تراهم في صحبة آبائهم.. فهم ليسـوا مسـئولين عن ظروفكمـا.. ولـم يسـيئوا إليكما. كمـا أطلب منـك بصفة عاجلـة أن تكف «عن شـرب» السـجاير والأشـياء الأخرى، لأنك بذلك تنتقم من نفسك في حين أنك لست مسئولًا عن شيء مما جرى.. وإنما هو سوء الحظ.. الذي أوقعكما في هذه الظـروف الحزينة.. فهون عليك.. فأنت تعيش فـي النهاية مع أمك.. وترى أباك وكلاهمـا يحبك ويعطيك النقـود مهما بدا لك غير ذلـك، وهناك آلاف الأطفال الذين حرموا من آبائهم وأمهاتهم إلى الأبد، ولا يجدون من يرعاهم فأنت أحسن حالًا من غيرك.. مهما كان الأمر وأرجو أن تراسلني باستمرار وأن تكتب إلى بما سيجري من تطورات في حياتكما وأرجو أن تكون سعيدة بإذن الله.

الغريب

أرجو أن تعذرني في رداءة الخط والأسلوب، لأني طالب في المرحلة الإعدادية وعمري 14 سنة. وقد كتبت لك هذه الرسالة لأني قرأت رسالة اسمها «السهام النارية» عن الأب الحنون الذي ترك عمله في السعودية وجاء إلى مصر يبحث عن أولاده، ويتعذب لكي يراهم بعد أن غدرت به زوجته وتركته. وقرأت لك. تقول له وأنت تطمئنه إلى أن أبناءه لن ينسوه وسيرتبطون به عاطفيًّا مهما حاولت الأم إبعادهم عنه، أن في الأب قبسًا من روح الله، لأنه يمثل سر الحياة بالنسبة لأبنائه ولدى الأبناء دائمًا ميل غريزي للتواصل معه، والحاجة إليه والبحث عنه، وما أيسر استمالة قلوب الأطفال بالحنان والرعاية، وهذا كلام صحيح لأن عندي هذا الميل الغريزي من ناحية أبي، لكنه هو الذي لا يريد أن يراني، لقد طلق أمي وأنا عمري 4 سنوات، وأختي عمرها سنة. فعشنا مع أمي لدى جدتنا وتركنا أبي من يومها ولم يصرف علينا مليمًا واحدًا، رغم أن النقود تجري في يده، وكان عنده سيارتان وقطعة أرض في الهرم، ونصيب في عمارة، ورغم سفره المتكرر للدول العربية، وقد تزوج منذ فترة لكن الله لم ينعم عليه بأبناء، ومع ذلك فهو لا يحبنا ولا يسأل عني وعن أختي. وحين أذهب إليه في

بيتـه أجد في عينه عدم الرغبة في مقابلتي، وذهبت مرة لزيارة عمتي لأني لا أريد أن تنقطـع الصلـة بيننا وبين عائلة أبـي، فدعتني للذهاب إلى فرح عمي الشـاب، وكان فـي فندق كبير وذهبت وأنا فرحان لأني سـأرى أبـي، وأحس بأن لي عائلة وأقـارب. لكـن لا تتصور الفـزع الذي رأيته على وجه أبي حيـن رآني في الفرح، ولا تتصـور إحساسـي بالارتباك عندما سـألني، مـن الذي قال لـك أن تأتي هنا، فجلست بعيدًا عنه كأني غريب، وانتهى الفرح في الساعة الثالثة صباحًا، وظننت أنه سـيأخذني عنده في البيت حتى يطلع الصباح وأستطيع العودة إلى البيت لكنه قـال لي: أذهب وخد «تاكسـي» ولـم يفكر ثانية واحدة في مـاذا يمكن أن يحدث لي من مكروه في هذه السـاعة المتأخرة من الليل؟ ولـم يفكر في أن يسـألني هل معـي نقـود أم لا؟ لكن الحمد لله كانت معي أجرة التاكسـي، وسـائق التاكسـي الغريب كان إنسـانًا أكثر من غيره.. وسـألني لماذا أنت في الشارع في هذا الوقت فحكيـت لـه الحكايـة، فتألم وقـال لا حول ولا قـوة إلّا بالله، النـاس دي قلوبها حجر؟ وأوصلني إلى البيت ولم يكن يريد أن يأخذ منّي الأجرة، لكني تمسـكت بأن أعطيها له، فنزل من التاكسـي وأوصلني حتى مدخل البيت وقال لي: سـأقف لك في بئر السلم حتى تطلع لكيلا تخاف، وظل واقفًا إلى أن شكرته وقلت له مع السـلامة، فهل يوجد أب يعامل ابنه بهذه المعاملة القاسـية؟ ولماذا لا يحبنا أبي كما نحبه ولا يسـمح لنـا بالاقتراب منه؟ وأين الرعاية لنـا ونحن لا نريد أن نقف ضده أمام القضاء لأنه في النهاية أبي وأنا وأختي نحمل اسمه؟

ثم لماذا ليس عند أبي هذا القبس من روح الله الذي كتبت عنه؟



ولكاتب هذه الرسالة أقول:

هذا القبس موجود فعلًا يا صديقي في كل الآباء حتى في أبيك نفسه، بدليل أنك ترغب في التواصل معه والبحث عنه، رغم مجافاته لك وتخليه عن أداء واجباته تجاهكم، ونحن حين نطلق الأحكام فإنما نتحدث أصلًا عن الأسوياء من البشر لا عن الشواذ منهم، ووجود بعض الاستثناءات لا يغير من القاعدة العامة، وهو أنه من الطبيعة البشرية أن يتلهف الأب على أبنائه، وألَّا يطيق بعادهم وأن يؤدي واجباته تجاههم.. فإذا كان أبوك يجافيك ويقطع ما بينه وبينك أنت وشقيقتك فهذه جريمة ضد الدين وضد الطبيعة البشرية السوية، وهو لن ينجو بجريمته أبدًا ما لم يرجع عنها ويعوضكما عما حرمكما منه طوال السنين الماضية، وسوف يأتي يوم قريب يحس فيه بالحاجة إلى مشاعر الأبناء الصادقة وعواطفهم فلا يجدها.. وسوف يأتي يوم يتلفت فيه حوله فلا يجد سوى الفراغ والخواء والعدم، فيعرف كم كان قاسيًا لاهيًا حين رفض هذه المشاعر الإنسانية الصادقة، وحرم نفسه منها فاستمر في تواصلك مع أسرة أبيك، واستعن بالعقلاء منهم على إلزامه بأداء حقوقكما المادية والإنسانية، ولا تتوقف عن زيارته كلما أتيحت لك الفرصة، عسى أن يذيب اقترابك منه جليد مشاعره، ويوقظ في قلبه المشاعر الأبوية التي تدفع غيره من الآباء إلى أن يحفروا في الصخر بأظافرهم ويضحوا بسعادتهم الخاصة وراحتهم، لكي يوفروا لأبنائهم الحياة الكريمة، ويضيئوا حياتهم بالحب والعطف والحنان، ولا تبتئس فأنت تطيع ربك ودينك بالسعي للتواصل

مـع أبيـك.. وسـوف تحقـق أهدافك فـي الحياة جزاء لـك على سـلامة فطرتك ونقاء قلبك.. ولا تيأس من موقف أبيك فكم رأينا في الحياة من كانوا مثله قساة غلاظًا، ثـم رقق الزمن مشـاعرهم، وحولهم بعد حين إلـى آدميين يتحدثون عن المشـاعر الإنسانية، ويفتقدون مشاعر الأبناء الذين جافوهم وباعدوهم من قبل، فعسى أن يتعلم أبوك من تجارب الآخرين، وأن يؤدي واجباته الإنسانية والمادية تجاهكـم بغيـر حاجة لأن ينتظـر مطارق الزمن القاسـية، لكي تهوى فوق رأسـه فيتعلم الحكمة ويعود إلى الحق والعدل.. ولكن بعد فوات الأوان.

المحتويات

جميع الكتب التي تمت الإشارة إليها
موجودة لدينا بالمكتبة

■كتب للمؤلف من إصدارات «الدار المصرية اللبنانية ■

1- العيوان الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة الثامنة 2008
2- وقت للسعادة.. وقت للبكاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثامنة 2010
3- شركاء في الحياة	قصص إنسانية	الطبعة السادسة 2010
4- خاتم في إصبع القلب	صور أدبية	الطبعة السادسة 2008
5- وحدي مع الآخرين	مقالات	الطباعة السادسة 2008
6- ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	الطبعة الخامسة 2008
7- عاشوا في خيالي	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2001
8- ترانيم الحب والعذاب	مقالات وصور أدبية	الطبعة السادسة 2008
9- الثمرة المرة	قصص إنسانية	الطبعة الخامسة 2008
10- دموع القلب	قصص إنسانية	الطبعة الخامسة 2009
11- أرجوك أعطني عمرك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة 2008
12- من المفكرة الزرقاء	صور ومقالات أدبية	الطبعة الثانية 2001
13- الأرض المحترقة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2001
14- سلامتك من الآه	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة 2008
15- هو وهي والآخرون	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2009
16- حكايات شارعنا	صور ومقالات أدبية	الطبعة الثانية 2003
17- قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2003
18- الرسم فوق النجوم	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة 2007

وأهم الكتب

19- تحية المساء	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2003
20- الزهرة المفقودة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2005
21- يوميات طالب بعثة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة 2009
22- سائح في دنيا	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى 2004
23- أماكن في القلب	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2009
24- لا تنسني	قصص رومانسية	الطبعة الثالثة 2013
25- نهر الدموع	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة 2014
26- مكتوب على الجبين	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة 2013
27- أوراق الليل	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000
28- طائر الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2010
29- أعط الصباح فرصة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2010
30- الحب فوق البلاط	قصص قصيرة	الطبعة الثالثة 2010
31- قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2001

■ أعمال لم تنشر من قبل ■

32- أرض الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2012
33- نافذة على الجحيم	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2011
34- بعد مغيب القمر	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2010
35- فتاة من قاع المدينة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2010
36- طائر الحب القديم	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2015
37- الحب والطارق المجهول	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2015

